وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
رئاسة جامعة ديالى
كلية التربية للعلوم الإنسانية
قسم اللغة العربية

الإيثار الدلالي في القرآن الكريم

إطروحة تقدمت بها
إلى مجلس كلية التربية للعلوم الإنسانية في جامعة ديالى ، وهي
جزء من متطلبات نيل شهادة الدكتوراه فلسفة في
اللغة العربية وآدابها

الطالبة
بشرى عبدالمهدي إبراهيم التميمي

بإشراف
الأستاذ الدكتور
ليث أسعد عبدالحميد

١٤٣٦ هـ ٢٠١٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٩ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾

الحشر : ٩-١٠

الإهداء

إلى . . . مَنِ آختَارَهُمَا اللهُ إلى جوارِهِ، فَرَحَلا

عَنّا لِيَلْتَحِقَا بِرِكْبِ الشُهدَاءِ، فَفَازَا وسَعِدَا .

إلى . . . روحي أخويَّ الشهيدين (صلاح) و (إبراهيم)

أقدمُ هذا الجهدَ المتواضع، حبًا ووفاءً وذكرى . . .

أختكما الباحثة

بشرى

شكر وامتنان

قال تعالى : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ البقرة: ١٥٢ ، فالحمدُ لله ربّ العالمين ، والصلاة والسلام على أفصح من نطق بالضاد سيدنا محمد (ﷺ) ، وعلى آله الطيبين الطاهرين . وبعد ..

فإنّ من كمال الفضل شكر أهله . أقدم خالص الشكر والامتنان إلى أستاذي الفاضل الذي لن أنسى ماحييت فضله وعونه وصبره الدكتور ليث أسعد عبدالحميد ، وإلى أساتذتي الأفاضل في قسم اللغة العربية ممن كان لي شرف الاستماع إلى محاضراتهم والإفادة من فيض علمهم في السنة التحضيرية ، وأدعو الله تعالى أن يمّد في أعمارهم ويحبوهم بالمنن والعطايا ، ويرفع درجاتهم بين عباده في الدنيا والآخرة .

كما تملي عليّ فروض الأدب والعرفان ان أشكر اختي وصديقتي الوفية المدرس المساعد (منى رفعت عبدالكريم) التي كانت نعم العون لي .

وأعترف أن هذا الجهد المتواضع لم يكن ليرى النور لولا تلك القلوب الطيبة التي لم تألُ جهداً في تقديم العون لي ، فجزى الله الجميع عني خير جزاء المحسنين .

الباحثة

المقدمة

التمهيد

مفهوم الإيثار الدلالي

الفصل الأول

الإيثار الدلالي

على

المستوى الصوتي

المبحث الأول : الإيثار الدلالي في الصوامت والصوائت

المبحث الثاني : الإيثار الدلالي في الفاصلة القرآنية

المبحث الثالث : الإيثار الدلالي في التكرار الصوتي

المبحث الأول

الإيثار الدلالي

في

الصوامت والصوائت

المبحث الثاني

الإيثار الدلالي

في

الفاصلة القرآنية

المبحث الثالث

الإيثار الدلالي

في

التكرار الصوتي

الفصل الثاني

الإيثار الدلالي

على

المستوى الصرفي

المبحث الأول : الإيثار الدلالي بين الأفراد والتثنية والجمع

المبحث الثاني : الإيثار الدلالي بين المبني للمعلوم والمبني للمجهول

المبحث الثالث : الإيثار الدلالي بين مصادر الأفعال

المبحث الرابع : الإيثار الدلالي بين صيغ المشتقات

المبحث الأول

الإيثار الدلالي

بين

الإفراد والتثنية والجمع

المبحث الثاني

الإيثار الدلالي

بين

المبني للمعلوم

و

المبني للمجهول

المبحث الثالث

الإيثار الدلالي

بين

مصادر الأفعال

المبحث الرابع

الإيثار الدلالي

بين

صيغ المشتقات

الفصل الثالث

الإيثار الدلالي

على

المستوى التركيبي (النحوي)

المبحث الأول : الإيثار الدلالي بين التقديم والتأخير

المبحث الثاني : الإيثار الدلالي بين التذكير والتأنيث

المبحث الثالث : الإيثار الدلالي بين الحذف والذكر

المبحث الرابع : الإيثار الدلالي بين الأساليب النحوية

المبحث الخامس : الإيثار الدلالي وأثره في التضمين والنيابة

المبحث الأول

الإيثار الدلالي

بين

التقديم والتأخير

المبحث الثاني

الإيثار الدلالي

بين

التذكير والتأنيث

المبحث الثالث

الإيثار الدلالي

بين

الحذف والذكر

المبحث الرابع

الإيثار الدلالي

بين

الأساليب النحوية

المبحث الخامس

الإيثار الدلالي

وأثره

في

التضمين والنيابة

الخاتمة

المصادر

و

المراجـــع

Abstract

اقرار المشرف

اشهدُ أن إعداد هذه الأطروحة الموسومة بـ (**الإيثار الدلالي في القرآن الكريم**) لطالبة الدكتوراه (بشرى عبد المهدي ابراهيم) جرى بإشرافي في كلية التربية للعلوم الانسانية – جامعة ديالى ، وهي جزء من متطلبات نيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها .

التوقيع :

الأستاذ الدكتور

ليث اسعد عبدالحميد

التاريخ : / /

بناءً على التوصيات المتوافرة أُرشح هذه الأطروحة للمناقشة .

التوقيع :

م.د محمد عبدالرسول سلمان

رئيس قسم اللغة العربية

/ /

اقرار الخبير العلمي

اشهد ان هذه الاطروحة الموسومة بـ (**الإيثار الدلالي في القرآن الكريم**) قد راجعتُها من الناحية العلمية وبذلك أصبحت مؤهلة للمناقشة قدر تعلق الامر بالسلامة العلمية .

التوقيع :

الاستاذ الدكتورة ساجدة مزبان

التاريخ : / /

اقرار لجنة المناقشة

نحن أعضاء لجنة المناقشة ، نشهد اننا اطلعنا على هذه الاطروحة الموسومة بـ **(الإيثار الدلالي في القرآن الكريم)** وقد ناقشنا الطالبة **(بشرى عبد المهدي ابراهيم)** في محتوياتها وفيما له علاقة بها ، ونرى أنها جديرة بالقبول لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها بتقدير **(جيد جداً)**

الأستاذ الدكتور	**الأستاذ الدكتور**	**الأستاذ الدكتور**
ابراهيم رحمن حميد	**علي عبدالله حسين**	**احمد هاشم احمد**
/ /	/ /	/ /
رئيساً	**عضواً**	**عضواً**

الأستاذ المساعد الدكتور	**الأستاذ المساعد الدكتور**	**الأستاذ الدكتور**
ضرغام عبود محمد	**قسمة مدحت حسين**	**ليث اسعد عبدالحميد**
/ /	/ /	/ /
عضواً	**عضواً**	**عضواً ومشرفاً**

صدّقها مجلس كلية التربية للعلوم الانسانية في جامعة ديالى .

الأستاذ المساعد الدكتور

نصيف جاسم محمد الخفاجي

عميد كلية التربية للعلوم الانسانية

/ /

اقرار لجنة المناقشة

نحن أعضاء لجنة المناقشة نشهد اننا اطلعنا على هذه الاطروحة الموسومة بـ (**الإيثار الدلالي في القرآن الكريم**) وقد ناقشنا الطالبة (**بشرى عبد المهدي ابراهيم**) في محتوياتها وفيما له علاقة بها ، ونرى أنها جديرة بالقبول لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها بتقدير (**جيد جداً**)

الأستاذ الدكتور ابراهيم رحمن حميد ٢٠١٤ / ١٢ / ٨ رئيساً	الأستاذ الدكتور علي عبدالله حسين ٢٠١٤ / ١٢ / ٢٧ عضواً	الأستاذ الدكتور احمد هاشم احمد ٢٠١٤ / ١٢ / ٩ عضواً
الأستاذ المساعد الدكتور ضرغام عبود محمد / / عضواً	الأستاذ المساعد الدكتور قسمة مدحت حسين ٢٠١٤ / ١٢ / ٢٨ عضواً	الأستاذ الدكتور ليث اسعد عبدالحميد ٢٠١٤ / ١٢ / ٢٣م عضواً ومشرفاً

صدّقت من قبل مجلس كلية التربية للعلوم الانسانية / جامعة ديالى .

الأستاذ المساعد الدكتور

نصيف جاسم محمد الخفاجي

عميد كلية التربية للعلوم الانسانية

٢٠١٥ / ١ / ١٤

اقرار المشرف

اشهدُ أن إعداد هذه الأطروحة الموسومة بـ (**الإيثار الدلالي في القرآن الكريم**) لطالبة الدكتوراه (بشرى عبد المهدي ابراهيم) جرى بإشرافي في كلية التربية للعلوم الانسانية – جامعة ديالى ، وهي جزء من متطلبات نيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها .

التوقيع :

الأستاذ الدكتور

ليث اسعد عبدالحميد

التاريخ : ١٠ / ٩ / ٢٠١٤

بناءً على التوصيات المتوافرة أُرشح هذه الأطروحة للمناقشة .

التوقيع :

م.د محمد عبدالرسول سلمان

رئيس قسم اللغة العربية

١٠ / ٩ / ٢٠١٤

اقرار الخبير العلمي

اشهد ان هذه الاطروحة الموسومة بـ (**الإيثار الدلالي في القرآن الكريم**) قد راجعتُها من الناحية العلمية وبذلك أصبحت مؤهلة للمناقشة قدر تعلق الامر بالسلامة العلمية .

التوقيع :

الاستاذ الدكتورة ساجدة مزبان

التاريخ : ١٤/ ١ /٢٠١٥

المحتويات

العنوان	رقم الصفحة
المقدمة	أ – ت
التمهيد : مفهوم الإيثار الدلالي	١-١٦
الفصل الأول : الإيثار الدلالي على المستوى الصوتي	١٧-٧٠
– الدلالة الصوتية .	١٧-٢١
– المبحث الأول : الإيثار الدلالي بين الصوامت والصوائت	٢٢-٣٤
– توطئة :	٢٢-٢٤
– أولاً : الإيثار الدلالي في الصوامت	٢٤-٢٩
١. إيثار صوت الغين على صوت العين في (شغَفَ وشَعَفَ) .	٢٤-٢٧
٢. إيثار صوت الخاء على صوت الحاء في (نَضَخَ ونضحَ) .	٢٧-٢٩
– ثانياً : الإيثار الدلالي في الصوائت	٣٠-٣٤
١. الإيثار بين الضمة والكسرة .	٣٠-٣٢
٢. الإيثار بين الضمة والفتحة .	٣٢-٣٣
٣. الإيثار بين الكسرة والفتحة .	٣٣-٣٤
المبحث الثاني : الإيثار الدلالي في الفاصلة القرآنية	٣٥-٤٧
– الفاصلة لغة ، واصطلاحاً .	٣٥-٣٧
– الإيثار في إيقاع الفاصلة .	٣٨-٤٧
المبحث الثالث : الإيثار الدلالي في التكرار الصوتي .	٤٨-٥٥
– توطئة .	٤٨-٥٠
– أولاً : تكرار الصوت المفرد .	٥١-٥٣
– ثانياً : تكرار الصوتين المؤتلفين .	٥٣-٥٤
– ثالثاً : تكرار الصوتين المختلفتين .	٥٤-٥٥
الفصل الثاني : الإيثار الدلالي على المستوى الصرفي .	٥٦-١٢٢
– الدلالة الصرفية .	٥٦-٥٨
– المبحث الأول : الإيثار الدلالي بين الإفراد والتثنية والجمع .	٥٩-٨٢
– توطئة .	٥٩-٦٠
– أولاً : الإفراد :	٦٠-٦٦
أ. إيثار الخطاب بصيغة المثنى على الخطاب بصيغة المفرد .	٦٠-٦١

ب. إيثار الخطاب بصيغة الجمع على الخطاب بصغة المفرد .	٦٢-٦٦
ثانياً : التثنية :	٦٧-٧٥
أ. إيثار الخطاب بصبغة المفرد على الخطاب بصيغة المثنى .	٦٧-٧٠
ب. إيثار الخطاب بصيغة الجمع على الخطاب بصيغة المثنى .	٧١-٧٥
ثالثاً : الجمع :	٧٦-٨٢
أ. إيثار الخطاب بصيغة المفرد على الخطاب بصيغة الجمع .	٧٦-٧٩
ب. إيثار الخطاب بصيغة المثنى على الخطاب بصيغة الجمع .	٧٩-٨٢
– المبحث الثاني : الإيثار الدلالي بين المبني للمعلوم والمبني للمجهول.	٨٣-٩٤
– المبحث الثالث : الإيثار الدلالي بين مصادر الأفعال.	٩٥-١٠٦
١. إيثار صيغة (فِيعَال) على من صيغة (التفاعل) .	٩٥-٩٦
٢. إيثار صيغة (فُعُول) على من صيغة (التفاعل) .	٩٦
٣. إيثار صيغة (فَعَال) على من صيغة (إِفْعَال) .	٩٧-٩٨
٥. إيثار صيغة (فَعُول) على من صيغة (تَفَعُّل) .	٩٩-١٠٠
٦. إيثار صيغة (أفاعيل) على من صيغة (تفعلات) .	١٠٠-١٠١
٧. إيثار صيغة (استفعال) على من صيغة (تفعيل) .	١٠١-١٠٢
٨. إيثار صيغة (فِعّال) على من صيغة (تفعيل) .	١٠٢-١٠٤
١٠. اسم المصدر (فَعْل) على من المصدر (مُفَاعَلَةَ) .	١٠٤-١٠٥
١١. اسم الهيأة (فِعْلَة) على من المصدر (فَعْل) .	١٠٥-١٠٦
المبحث الرابع : الإيثار الدلالي بين صيغ المشتقات .	١٠٧-١٢٢
– أولاً : الإيثار بين صيغة اسم الفاعل وصيغ المشتقات الأخرى :	١٠٧-١١٢
١. إيثار (اسم الفاعل) على من (اسم المفعول) .	١٠٧-١١١
٢. إيثار صيغة (اسم الفاعل) على من (الصفة المشبهة) .	١١٢
– ثانياً : الإيثار بين صيغة المبالغة والمشتقات الأخرى :	١١٣-١١٦
١. إيثار صيغة المبالغة على من اسم الفاعل .	١١٣-١١٤
٢. إيثار صيغة المبالغة على من اسم المفعول .	١١٤-١١٥
٣. إيثار صيغة المبالغة على من الصفة المشبهة .	١١٥-١١٦

– ثالثاً : الإيثار بين صيغة اسم المفعول والمشتقات الأخرى :	١١٦–١١٨
– إيثار اسم المفعول على من اسم الفاعل .	١١٦–١١٨
– رابعاً : الإيثار بين الصفة المشبهة وصيغ المشتقات الأخرى :	١١٨–١٢٢
١. إيثار الصفة المشبهة على من اسم الفاعل .	١١٨–١٢١
٢. إيثار الصفة المشبهة على من صيغة المبالغة .	١٢١–١٢٢
الفصل الثالث : الإيثار الدلالي على المستوى التركيبي (النحوي) .	١٢٣–١٨٣
– الدلالة النحوية .	١٢٣–١٢٤
– المبحث الأول : الإيثار الدلالي بين التقديم والتأخير .	١٢٥–١٣٨
– توطئة .	١٢٥–١٢٧
– أولاً : تقديم المفعول على الفعل .	١٢٧
– ثانياً : تقديم شبه الجملة المتعلق بالفعل على الفاعل .	١٢٨–١٢٩
– ثالثاً : تقديم ضمير الفصل على المفعول به .	١٢٩–١٣٠
– رابعاً : تقديم شبه الجملة المتعلق بالفعل على المفعول به .	١٣١–١٣٢
– خامساً : تقديم المفعول الثاني وتأخير الأول .	١٣٢–١٣٣
– سادساً : التقديم والتأخير بين الجار والمجرور مع الحال .	١٣٣–١٣٥
– سابعاً : التقديم والتأخير بين الجار والمجرور مع الصفة .	١٣٥–١٣٧
– ثامناً : تقديم جواب (لولا) عليها .	١٣٧–١٣٨
المبحث الثاني : الإيثار الدلالي بين التذكير والتأنيث .	١٣٩– ١٤٧
– توطئة .	١٣٩–١٤٠
١. الإيثار في الفعل ونائب الفاعل .	١٤٠–١٤٢
٢. الإيثار بين المذكر والمؤنث في المبتدأ والخبر .	١٤٢–١٤٤
٤. الإيثار بين التذكير والتأنيث في الصفة والموصوف .	١٤٥
٣. الإيثار بين التذكير والتأنيث في الضمائر .	١٤٦–١٤٧

– المبحث الثالث : الإيثار الدلالي بين الحذف والذكر .	١٤٨–١٥٤
– توطئة .	١٤٨–١٤٩
– أولاً : حذف الحرف وذكره .	١٥٠–١٥١
– ثانياً : حذف الكلمة المفردة .	١٥٢–١٥٣

– ثالثاً : حذف التركيب .	١٥٣–١٥٤
– المبحث الرابع : الإيثار الدلالي بين الأساليب النحوية .	١٥٥–١٦٢
١. أن يأتي (الخبر) ويراد به معنى (الشرط) .	١٥٥–١٥٦
٢. أن يأتي (الأمر) ويراد به معنى (الشرط والجزاء) .	١٥٦–١٥٧
٣. أن يأتي (الخبر) ويراد به معنى (الأمر) .	١٥٨–١٥٩
٤. أن يأتي (الأمر) ويراد به معنى (التعجب) .	١٥٩–١٦٠
٥. أن يأتي (الخبر) ويراد به معنى (الاستفهام) .	١٦١–١٦٢
– المحبث الخامس : الإيثار الدلالي وأثره في التضمين والإنابة .	١٦٣–١٨٣
– أولاً : التضمين .	١٦٣–١٧٥
– ثانياً : النيابة في الحروف :	١٧٥–١٨٣
١. إيثار التعبير بحرف الجر (في) بدلاً من حرف الجر (على) .	١٧٦–١٧٧
٢. إيثار التعبير بحرف الجر (عن) بدلاً من حرف الجر (من) .	١٧٨–١٧٩
٣. إيثار التعبير بحرف الجر (من) بدلاً من حرف الجر (عن) .	١٨٠–١٨١
٤. إيثار التعبير بحرف الجر (الباء) بدلاً من حرف الجر (من) .	١٨١–١٨٢
٥. إيثار التعبير بحرف الجر (على) بدلاً من حرف الجر (اللام) .	١٨٢–١٨٣
الخاتمة	١٨٤–١٨٦
المصادر والمراجع	١٨٧–٢١٨

التمهيد

مفهوم الإيثارالدلالي

أولاً : مفهوم الإيثار :

(١) **الإيثارلغةً** :

الإيثارمصدر الفعل (آثر) وهو ثلاثي مزيد على زنة (أَفْعَلَ) ، وهو من ((الأثارة ، والمأثرةُ : المكْرُمة ... ومآثِرُ كلِّ قوم : مساعي آبائهم ، والأثير : الكريمُ ، تُؤثِرُهُ بفضلك على غيرهِ ، والمصدر: الإثرة ، تقول : له عندنا إثرةٌ . واْستأثَرَ اللهُ بفلانٍ ، إذا مات ، وهو ممّن يُرْجَى لَهُ الجَنّة ، واستأثرتُ على فلان بكذا وكذا ، أي : آثرتُ بهِ نفسي عليه دونه))[١] .

وجاء في الصحاح :((استأثَرَ فلانٌ بالشيء ، أي استبدَّ بهِ ، والأسم الأَثَرَةُ بالتحريك ، واستأثَرَ الله بفلان ، إذا ماتَ وَرُجيَ له الغفران ... وأثَرْتُ فلاناً على نفسي ، من الإيثار))[٢] .

وفي اللسان : ((آثره عليهِ : فضّلَهُ ، وفي التنزيل : ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾[٣] ، وأَثِرَ أَنْ يفعل كذا أثراً وأَثَرَ وآثرَ، كلّهُ : فَضَّلَ وَقَدّمَ. وآثرتُ فلاناً على نفسي : من الإيثار ... آثرتك إيثاراً أي فَضّلتُكَ))[٤] .

---

(١) العين ، الخليل بن أحمد الفراهيدي ، (أثر) : ٥٦/١ .

(٢) الصحاح ، اسماعيل بن حمّاد الجوهري ، (أثر) : ٥٧٤/٢-٥٧٥ .

(٣) يوسف / ٩١ .

(٤) لسان العرب ، ابن منظور ، (أثر) : ٥/٤-٦ .

(٢) **الإيثاراصطلاحاً** :

إنّ كلَّ نَصّ مهما بلغت فصاحته ، وارتقت بلاغتهُ ، وعلت مناقبه ، يؤخذ عليه ويُردّ ، إلاّ النصّ القرآني الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[١] ، فهو أعلى نصّ في الوجود ، حوى أعذب الألفاظ ، وضمَّ أدق العبارات ، فضلاً عن الإيجاز في الألفاظ مع كثرة المعاني ، وفي هذا يقول الجاحظ(ت٢٥٥هـ) : ((والذي يدلّل على أنّ الله عزّ وجلّ قد خَصّهُ بالإيجاز وقلّة عدد اللفظ مع كثرة المعاني قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) (نُصِرْتُ بالصّبَا ، وأعطِيْتُ جوامِعَ الكلم)[٢]))[٣] .

فهو المعجز في كلّ شيء ، الحاوي لكلِّ شيء ، يصلح لكلّ زمانٍ ومكان ، ولا تنقضي عجائبه ، وقد ((بلغ مع ترابط أجزائهِ ، وتماسك كلماته وجملهِ وآياتهِ وسوره مبلغاً لا يدانيه فيه أي كلامٍ آخر ، مع طول نفسه ، وتَنوّع مقاصدهِ ، وآفتنانهِ وتلوينه في الموضوع الواحد))[٤] .

فاللفظ القرآني جاء بأبلغ مايمكن أَن يُقَال فيه ، فوضعَ كلّ مفردة الموضع الذي يقتضيه السياق ، واختار لها المكان الملائم الذي يناسبها ، ولاغرابة في ذلك ؛ لأنّه ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[٥] .

ولذلك نجد أنّ السياق القرآني آختار وآثر لفظاً على آخر بحسب مايلائم المقام ، وفي هذا يقول الجاحظ : ((وقد يستخف الناس ألفاظاً ويستعملوها وغيرُها أحقّ بذلك منها ، ألا

---

(١) فصلت / ٤٢ .

(٢) لم نقف على هذا الحديث بهذا اللفظ فيما تيسر لنا من مصادر تخريج الحديث ، إلاّ أنّه يوجد حديثان منفصلان ، ورد أحدهما بلفظ (نصرت بالصّبا وأهلكت عاد بالدبور) ، وهو في صحيح البخاري برقم (٩٧٧) ، وأمّا الحديث الآخر ، فورد بلفظ (بعثت بجوامع الكلم ، ونصرت بالرعب...) وهو في صحيح البخاري برقم (٢٧٥٥) ، وصحيح مسلم برقم (٨١٣)، وسنن النسائي برقم (٣٠٣٧) .

(٣) البيان والتبين .

(٤) مناهل العرفان : ٢/٢١١-٢١٢ .

(٥) الحاقة / ٤٣ .

ترى أَنّ الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلاّ في موضع العقاب ، أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر))[١] .

وجاء عن الجوهري (ت٣٩٣هـ) قوله : ((حكى ابن السكيت : رجلٌ أَثُرٌ على فَعُل بضمّ العين ، إذا كان يستأثر على أصحابهِ ، أي يختار لنفسه أفعالاً وأخلاقاً حسنة ، وآثرت فلاناً على نفسي من الإيثار))[٢] . مشيراً إلى أن الإيثار يعني الأختيار .

وممّا وردَ في التنزيل قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾ [٣] ، وقوله تعالى : ﴿ قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ﴾[٤] ، لذا فإنّ معنى الإيثار عند المفسرين : التفضيل[٥] ، أو الإختيار[٦] .

وذكرَ أبو هلال العسكري (ت بعد ٣٩٥هـ) أنّ ((تخيّر الألفاظ ، وإبدال بعضها من بعض يوجب إلتئام الكلام ، وهو في أحسن نعوتهِ وأزين صفاته ، فإن أمكن مع ذلك منظماً من حروف سهلة المخارج كان أحسن له وأدعى للقلوب إليه ، وإن آتفق له أن يكون موقعه في الإطناب والإيجاز أليق بموقعه ، وأحقّ بالمقام والحال كان جامعاً للحسن ، بارعاً في الفضل ، وإن بلغ مع ذلك أن تكون موارده تنبيك عن مصادره ، وأوله يكشف قناع آخره ، كان قد جمع نهاية الحسن وبلغ أعلى مراتب التمام))[٧] .

---

(١) البيان والتبيين : ١ / ٢٠ .
(٢) الصحاح ، (أثر) : ٢/٥٧٥ .
(٣) يوسف / ٩١ .
(٤) طه / ٧٢ .
(٥) ينظر : تنوير المقباس من تفسير ابن عباس : ١٥٣ ، والكشاف : ٣ / ٥٠٢ ، ومعترك الأقران : : ٢ / ١٥ .
(٦) ينظر : تفسير البيضاوي : ١ / ٤٩٥ .
(٧) كتاب الصناعتين : ١٥٩ .

لذا فإنّ اللفظ القرآني ومنه المفردة القرآنية أتى بها السياق القرآني بأسمى المقامات وأبهى المقالات ، وأعذب الإيقاعات ، وأرق الأصوات ، فلا نشك في أنّ إدراك العرب لبلاغة القرآن وانبهارهم بنظمه ، هو سرّ إحجامهم عن معارضته(١) .

وهناك عدّة مصطلحات تنطوي على مفهوم الإيثار ، بَيْدَ أنَّ فيها فروقاً وآختلافاً يسيراً ، نذكر من :

١. **الأختيار** :

الآختيار : الاصطفاء ، وكذلك التخيّر ، وخيّرته بين الشيئين ، أي فوّضت إليه الخيار(٢) ، وخاره على صاحبهِ خيراً وخِيَرةً وخيّرَهُ : فضّله ، وخار الشيء وٱختاره : انتقاه(٣) .

ومما ورد فيه لفظ (آختار) في الذكر الحكيم ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا ﴾(٤) ، وقوله تعالى ﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴾(٥) ، وغيرها .

فالآختيار بمعنى الاصطفاء في مواضع التنزيل معناه كما يقول الحافظ ابن كثير (٧٧٤هـ) : (وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ) كقوله ﴿ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى ﴾(٦) ، أي على جميع الناس الموجودين في زمانهِ))(٧) .

والآختيار هو عملية انتقاء المفردات من مجموعة من البدائل في رصيد المتكلّم المعجمي التي يمكن أَنْ يتبادل بعضها مع بعض(٨) . فالمنشئ هو الذي يختار المفردة

---

(١) ينظر : حول إعجاز القرآن : ٥ .
(٢) ينظر : الصحاح ، (خَيَر) : ٢ / ٦٥٢ ، ولسان العرب ، (خَيَر) : ٤ / ٢٦٦ .
(٣) ينظر : لسان العرب (خَيَر) : ٤ / ٢٦٥ ، ومعاني القرآن ، الفراء : ١ / ٤٠٢ .
(٤) الأعراف/ ١٥٥ .
(٥) طه / ١٣ .
(٦) الاعراف / ١٤٤ .
(٧) ينظر : تفسير ابن كثير : ٥ / ١٦٢ .
(٨) ينظر : الأسلوبية والأسلوب ، د.عبد السلام المسدي : ٩٦ .

من دون غيرها من البدائل آخذاً بعين الاعتبار ما يقتضيه التركيب والسياق وما فيهما من ملابسات مقالية وحالية [١] .

٢. التفضيل :

المتفضل : الذي يدّعى الفضْل على أقرانهِ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾[٢] ، ((وأفضلت منه شيئاً واستفضلت بمعنى ، وفضلته على غيره تفضيلاً ، إذا حكمت له بذلك ، أي : صيّرته كذلك ، وفاضلته ففضلته ، إذا غلبته بالفضل))[٣] .

ويُقال فَضّلَهُ على غيره : جعله أو عدّه أفضل منه ، وتفاضل القومُ : تنافسوا في الفضل ، وادّعى كلّ فريق الفضل على الآخر ، أو ثبت له الفضل عليه في القدر والمنزلة[٤] .

وممّا جاء في التنزيل قوله تعالى : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾[٥] ، وقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾[٦] .

فالتفضيلُ يكونُ بين شيءٍ وآخر ، فالجنّةُ درجات ، والنارُ دركات ، وهكذا[٧] .

٣. الاصطفاء :

جاء عن الجوهري قوله: ((واصطفيتهُ : اخترته ، واصطفيته بالشيءِ إذا آثرته بهِ))[٨] بهِ))[٨] واصطفاهُ فضّله واختاره .

---

(١) أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية ، د.حسن طبل : ٣٤ .
(٢) المؤمنون : ٢٤ .
(٣) الصحاح (فَضَلَ) : ٤ / ١٧٩١ .
(٤) ينظر : المعجم الوسيط ، (فَضَل) : ٦٩٣ .
(٥) الاسراء : ٢١ .
(٦) النحل : ٧١ .
(٧) ينظر : تفسير ابن كثير : ٥ / ٤٠ .
(٨) الصحاح ، (صفا) : ٦ / ٢٤٠٢ .

وفي التنزيل العزيز ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[١].

والآيات الكريمات كثيرة جمّة ، ومنها :﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[٢] ، وقوله تعالى﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[٣] .

فمعنى اصطفى كما يقول المفسرون ٱختار[٤] ، أو الأختيار والإجتباء والتفضيل[٥] .

٤. الترجيح :

يقال : ((أرجحتُ لفلان ، ورجّحتُ ترجيحاً إذا أعطيته راجحاً ... وترجّحت الأرجوحة بالغلام ، أي مالت ، وراجحته فرجحته ، أي كنتُ أرزنَ منه))[٦] ، ورجّحه أَرْجَحَهُ وفضّله وفضّله وقوّاه[٧] .

وهو مصطلح يغلب على الكتب اللغوية والنحوية ، وما يتعلّق بها كقولهم ، ورجّح فلان ... أو والراجح عندي ... وغيرها[٨].

وكذلك الحال مع المصطلحات الأخرى التي تقرب من معنى الإيثار أو الأختيار ، ومنها : العدول ، والاستغناء ، والاجتباء ، والاستحباب ، والخفة ، وغيرها ، فهي على شاكلة ماذكرنا من اقرانها ، وهي بدورها موضحة لذلك .

---

(١) آل عمران : ٣٣ .

(٢) البقرة : ١٣٠ .

(٣)الاعراف : ١٤٤ .

(٤) ينظر : البحر المحيط : ٢ / ٤٣٤ ، وتفسير ابن كثير : ٢ / ١٩ ، وقطف الأزهار في كشف الأسرار : ١ / ٣٢٧ ، وفي ظلال القرآن : ١ / ٥٧٧ .

(٥) ينظر : جامع البيان للطبري : ٣ / ٢٣٤ ، معترك الأقران : ٣ / ١٠ ، والدر المنثور : ٤ / ٤٩٩ .

(٦) الصحاح (رجح) : ١ / ٣٦٤ .

(٧) المعجم الوسيط ، (رجح) : ٣٢٩ .

(٨) ينظر : على سبيل المثال همع الهوامع : ٢ / ١٦٦ ، ٣ / ٢٠٠ ، ٣٤٤ .

ثانياً : مفهوم الدلالة :

يبحث علم الدلالة في المعنى ، فهو يشكل الموضوع الرئيس لهذا العلم ، وهو الأساس الذي يقوم عليه ، إذ إنّه يبحث في معنى الكلمة والجملة ، فيخضعها للتحليل الدقيق ، على أنّ هذا البحث عن المعنى لم يكن بحثاً عنه بوصفه ((كياناً مستقلاً أو كياناً تمتلكه الكلمات وإنّما هو فهم لماهيّة الكلمات والجمل . أي كيف تكون هذهِ الكلمات والجمل ذوات معنى))[١] .

ولكي لا تكون غاية بحثنا أن نعمد إلى الإحالة والتكرير والقول المعاد ، ارتأينا أن نوضح مفهوم الدلالة في اللغة والاصطلاح مع بيان الدلالة بشكل مقتضب من أجل أن يتسنى لنا الإحاطة بموضوع البحث بعيداً عن التفريعات والجزئيات .

(١) الدلالة لغةً :

الدلالة لغةً:((مصدر الدَليْل – بالفتح والكسر –))[٢]، وهي مأخوذة من مادة(دلّ) ، وتشتمل على أكثر من معنى ، في مقدمتها (البيان والدليل) ، قال ابن فارس (ت٣٩٥هـ):((الدال واللام أصلان، أحدهما:إبانة الشيء بأمارة تتعلمها،والآخر: اضطرابٌ في الشيءِ ، فالأول قولهم: دَلَلتُ فلانا على الطريق،والدليل الإمارة في شيءٍ))[٣] .

وذكر الراغب الأصفهاني (ت٤٢٥هـ) أن ((أصل الدلالة مصدر كالكتابة والإمارة ، والدال مَنْ حصل منه ذلك والدليل في المبالغة كعالم وعليم ، وقادر وقدير ، ثُمَّ سمّيَ الدال والدليل دلالة كتسمية الشيء بمصدره))[٤].

وأصل الدلالة في العربيّة حسّي ، يُرَاد به الاهتداء إلى الطريق ، ثُمَّ استعملت للدلالة على الهداية المعنويّة العامة والشرعيّة[٥] .

---

(١) منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث ، د. علي زوين : ٩١ .

(٢) كتاب العين ، الخليل بن أحمد الفراهيديّ : ٨/٨ (دلّ) .

(٣) معجم مقاييس اللغة ، أحمد بن فارس : ٢٥٩/٢ (دلّ) .

(٤) المفردات في غريب القرآن ، الراغب الأصفهاني : ١٧٣ ، وينظر : لسان العرب ابن منظور : ٦٣/١٣ (دلل) .

(٥) ينظر : الدلالة في البنية العربية بين السياق اللفظي والسياق الحالي ، د.كَاصد الزيدي (بحث) ، ، مجلة آداب الرافدين – كلية الآداب – جامعة الموصل ، العدد (٢٦) ، سنة ١٩٩٥م .

(٢) الدلالة اصطلاحاً :

حدّها الراغب الأصفهاني بأنّها : ((ما يُتَوصَّلُ بهِ إلى معرفة الشيء ، كدلالة الألفاظ على المعنى ، والإشارات ، والرموز الكتابية ، والعقود في الحساب))[١] ، وحدّها السيد الجرجاني (ت٨١٦هـ) : ((يكون الشيء بحالةٍ يلزم من العلم به العلم بشيءٍ آخر ، والشيء الأول هو : الدال ، والثاني هو : المدلول))[٢] .

وفي ضوء ما تقدّم ، فإنَّ الدلالة تعني : ما يدلُّ عليه اللفظ أو التركيب من معنى ، وذلك أنّ ((دلالة أي لفظ هي : ما ينصرف إليه هذا اللفظ في الذهن من معنىً))[٣].

ولعلم الدلالة عدّة أسماء في اللغة العربية ، فبعضهم سمّاه علم الدلالة – بفتح الدال وكسرها – ، وسمّاه بعضهم الآخر علم المعنى ؛ إذ إنّ علم الدلالة هو ((دراسة المعنى أو العلم الذي يدرس المعنى أو ذلك الفرع من علم اللغة الذي يتناول نظرية المعنى أو ذلك الفرع الذي يدرس الشروط الواجب توافرها في الرمز حتى يكون قادراً على حمل المعنى))[٤] .

وما يهمنا هنا هو الدلالة اللغوية التي يبدو أنّ موضوعها الأساسي هو المعنى ، إذ ((لا يمكن أن تكون لغةً من دون معنى))[٥] . فإنَّ أي دراسة في أي فرع من فروع اللغة أو النحو إنّما تهدف إلى فهم المعنى وتحديده ، فالمعنى هو المحصلة النهائية لتحليل الحدث اللغوي على مستويات اللغة كافة : الصوتية ، والصرفية ، والنحوية ، والمعجمية[٦] . لذا صار علم الدلالة أو علم المعنى مركزاً أو محوراً للدراسات اللغوية ،

---

(١) المفردات في غريب القرآن ، الراغب الاصبهاني : ١٧١ (دلَّ) .

(٢) التعريفات : ٦١ ، وينظر : كشاف اصطلاحات الفنون ، محمد علي التهانوي (ت في القرن ١٢هـ) : ٢٨٤/٢ .

(٣) الأضداد في اللغة ، محمد حسين آل ياسين : ٥٥ .

(٤) علم الدلالة ، أحمد مختار عمر : ١١ .

(٥) المصدر نفسه : ٥ .

(٦) ينظر : علم الدلالة عند ابن جني : عبد الكريم مجاهد : ١٦٧ (بحث) ، مجلة الدارة السعودية السعودية ، السنة (٩) ، العدد (١) لسنة ١٩٨٣م .

وهو غاية الدراسات اللغوية وقمتها[١] ، إذ إنّ ((الدلالة هي جوهر الظاهرة اللغوية ، ومن دونها لا يتأتى للألفاظ والتراكيب وظيفة وفاعلية))[٢] .

ولابُدَّ لنا هنا من التفريق بين مصطلحي (الدلالة) و (المعنى) في الدرس اللغوي ((فمصطلح الدلالة يتسم بالأتساع والشمول ، لأنّ دلالة الكلمة مبهمة إلى حَدٍّ كبير ، إذ تشتمل الكلمة أحياناً على معانٍ متعددة ، فالدلالة مجموعة المعاني اللغوية التي تتضمنها الكلمة فتكون المفردة الكلاميّة مكوّنة من مجموعة معانٍ تقترن بها في المعجم ، أمّا مصطلح المعنى فيشير إلى دلالة معينة من ضمن الدلالات التي تقترن بالكلمة))[٣] .

وهذا ما ذكره أحمد مختار عمر ، وحذّر من استعمال مصطلح علم الدلالة أو علم المعاني ؛ لأنَّ الأخير فرعٌ من فروع البلاغة[٤] .

مفهوم الدلالة لدى القدماء والمحدثين :

كانت الدلالة موضع عناية العلماء العرب من مناطقة ومفكرين وأصوليّين ولغويين ونحويّين ونقاد وبلاغيين .

وقد كشفت الدراسات اللغوية الحديثة كثيراً من الأصول الدلالية في التراث الاسلامي ، والتي جاء بها العلماء العرب القدماء ، مع إشارتها إلى وجود خلاف يسير في فهم ماهيّة المصطلح ، وتغاير في المدخل أو الأسلوب في معالجة اللغة[٥] .

شكلت الدلالة لدى اللغويين والنحويين وسيلة لفهم الألفاظ والتراكيب اللغوية ، معتمدين في ذلك على العلاقة القائمة بين اللفظ ومعناه ، أو الدال ومدلوله ، وعلى الرغم من عدم وجود نظرية واضحة منظرّة للدلالة على المعنى لديهم ، إلاّ أنّه بالأمكان تلمس المفاهيم الخاصة بالمعنى فيما يسمّى بـ (المعاني النحوية) و (الأبواب النحوّية)[٦] ،

---

(١) ينظر : مناهج البحث في اللغة ، تمام حسّان ، ٢٧٤ .
(٢) التركيب اللغوي للأدب ، د.لطفي عبد البديع : ٤٣ .
(٣) الألسنية التوليدية التحويلية (النظرية اللسانية) ، د. ميشال زكريا : ١٤٣ .
(٤) ينظر : علم الدلالة ، احمد مختار عمر : ١١ .
(٥) ينظر : أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ، نايف خرما : ٩٥ .
(٦) ينظر : منهج البحث اللغويّ بين التراث وعلم اللغة الحديث : ١٦٥ .

ويُعَدّ ابن جني (ت٣٩٢هـ) واحداً من أبرز العلماء في مجال دراسة الدلالة ، إذ قسّمها على ثلاثة أقسام هي : لفظيةّ ، وصناعيّة ، ومعنويّة[١] .

وحظيت قضية اللفظ والمعنى بعناية خاصّة من لدن النقاد والبلاغيين ، فقد استعمل الجاحظ(ت٢٥٥هـ) لفظة (البيان) وسيلة من وسائل الوصول إلى الفهم والأفهام منبّهاً على أهمية العلامة والإشارة في توصيل المعاني فضلاً عن دلالة النطق باللفظ ، فالدلالات لديه خمسة أصناف هي : اللفظ ، والإشارة ، والعقد ، والخط ، والنصبة أو الحال[٢] .

وَعُدَّ اللفظ والمعنى أساسين عند حازم القرطاجني (ت٦٨٤هـ) في دراساته النقديّة التحليلية ، فقد عُنيِ بهما عناية كبيرة ، إذ عرّف المعاني فوضع معايير لبيان مفهوم المعنى وإيصالهِ ؛ وهذهِ المعايير هي : (الصورة ، والشيء ، والذهن) مشيراً الى العلاقة الدلاليّة بينهما[٣] .

وبلغت هذه العناية قمّتها لدى البلاغيّين المتأخرين ، مثل عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) الذي وضع نظرية (النظم) التي تقوم على أساس المعنى وربطه بالنحو ، والدلالة عنده نوعان : أحدهما : دلالة ظاهرة ، والأخرى : باطنة غير ظاهرة ، وهي الدلالة البلاغية ، أو ماسمّاه بـ (معنى المعنى)[٤]، وهو ((أَنْ تعقل من اللفظ معنى ، ثم ثم
يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر))[٥] .

وقد شغلت الدلالة حيّزاً كبيراً – أيضاً – من عناية الفقهاء والاصوليين ، وذلك لِمَا لها من اتصال وثيق بفهم نصوص كتاب الله (ﷻ) ، وسنّة نبيّه الكريم (ﷺ) فهماً صحيحاً لغرض استنباط الأحكام الشرعيّة منها ، ومن أجل التوصّل إلى هذه الغاية عني

---

(١) ينظر : الخصائص ، أبن جني ، تحقيق : محمد علي النجار : ١٠٠/٣ .
(٢) ينظر : البيان والتبيين ، الجاحظ : ٧٦/١ .
(٣) ينظر : منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث : ١٤٥-١٥١ .
(٤) ينظر : دلائل الأعجاز ، عبد القاهر الجرجاني : ٢٦٩ – ٢٧٠ .
(٥) المصدر نفسه : ٢٦٩ .

الأصوليون بالدراسات اللغويّة بعامّة ، ودراسة المعنى خاصّة وتطرّقوا لمسائل على مستوى الألفاظ المفردة والتراكيب والسياقات التي لم يسبق إليها غيرهم[١] .

إنّ إدراك الأصوليين لأهمية الجانب اللغوي في معرفة طرائق دلالات النصوص دفعهم الى البحث فيما يعينهم على دراسة المعنى بمستوياته الثلاثة (الحقيقي ، والآستعمالي ، والوظيفي) ، فالحقيقي يتمثل بالمعنى المعجميّ ، والثاني يتمثل باستعمال اللفظ في غير معناه الأصلي ، هو المجازي ، ويتمثل الوظيفيّ بما تؤديه اللفظة من وظيفة نحوية في أثناء تركيبها مع غيرها [٢] .

أمّا المفسرون فقد أولوا المعنى عناية كبيرة ، ولم يكن ذلك مستغرباً ؛ إذ إنّ عملهم التفسيري يستلزم هذهِ العناية ، وهو عمل يقوم على أساس بيان معاني الألفاظ والتراكيب وتحليلها لمعرفة ما يتصل بها من أحكام شرعيّة وفرائض دينيّة ، ولا يتم ذلك إلاّ من خلال الأستعانة بوسائل تدلي إلى ذلك البيان وتوصل إليه ، وخير ما يعين المفسر على تبيين الغامض من النصوص القرآنية ، وتأويل ما أشكل منها ، هو المعرفة باللغة والأحاطة بأسرارها وقواعدها وأصولها ؛ لذا اعتمد المفسّرون العلوم العربية والدلالية من صوت وصرف ونحو وبلاغة ، وسائل في الوصول إلى المبتغى من النصّ الحكيم واستنباط الدلالة ، ولم يكتفِ المفسّرون بإيضاح المعاني الأوليّة للألفاظ المفردة ، وإنّما تعدّوا ذلك إلى محاولة استنباط الدلالات الثانية بالتأويل للكشف عن معانٍ جديدة في النص ، ثُمَّ سعوا إلى بيان الدلالات الثالثة التي غالباً ما تكون فقهيّة أو عقديّة أو فلسفيّة أو تشريعيّة[٣] ، فكانوا أكثر العلماء غوصاً إلى المعاني الثانية ؛ إذ إنّهم ((فطنوا منذ زمن سحيق في القدم إلى الفرق بين ظاهر القرآن وباطنه ، فكان فهمهم لهذا الفرق تفريقاً منهم بين المعنى المقالي والمعنى المقامي))[٤] .

---

(١) ينظر : دراسة المعنى عند الأصوليين ، د. طاهر سليمان حمّودة : ٣ .

(٢) ينظر : البحث النحوي عند الاصوليين ، مصطفى جمال الدين : ٩ .

(٣) ينظر : المدخل إلى دراسة البلاغة العربية ، أحمد خليل : ٦٤-٦٧ .

(٤) مفهوم المعنى بين الأدب والبلاغة ، د.محمد بركات : ١١٣ ، وينظر : الفكر البلاغي عند النحويين العرب ، د. عزّام الشجراوي : ١٠٠ .

أمّا مفهوم الدلالة لدى المحدثين فَيُعَدّ الأساس في الدراسات اللغوية الحديثة لاسيما الغربية ، فقد ظهر مصطلح (الدلالة) أول مرّة ((في نهاية القرن التاسع عشر على يد الفرنسي (ميشال بريال –Michel Breal–) ، وذلك سنة ١٨٨٣م ، قاصداً به علم المعنى))[١] . وعليه فالدلالة لدى المحدثين ((عبارة عن العلاقة التي تربط الدال بالمدلول داخل العلامة اللسانية ، ومن خواص هذهِ العلاقة أن يكون بين الدال والمدلول كمال الاتصال ، وأنّ أحدهما يقتضي الآخر ويؤذن بهِ ، فتصوّر كلّ منهما مرهون بصاحبهِ ، فلا يكون الدال دالاً حتى يكون له مدلول ، ولا يتسنى الكلام على المدلول حتى يكون له دال))[٢] .

وما دُمْنَا بصدد الحديث عن الإيثار الدلالي في القرآن الكريم فلا بُدّ لنا من الإشارة إلى القرائن الدلالية وأنواعها ؛ إذ تؤدي هذهِ القرائن دوراً مهماً في تحديد دلالات الألفاظ والتراكيب التي ترد داخل السياق ، فكثيرٌ من الألفاظ ولاسيما المشتركة والمتضادة ، لا يمكن معرفة المراد منها إلاّ بقرينه قد تكون لفظية : سياقية او غير سياقية ، او تكون حالية ، أو عقلية[٣] .

مفهوم القرينة الدلالية وأنواعها :

(أ) مفهوم القرينة الدلالية :

(القَرِينَة) : اسمٌ على وزن (فَعِيلة) ، وهي مشتقة من قَرَنَ الشيء الى الشيء[٤] ، إذا جَعَل له صِلة ، قال الرازي (ت٦٦٦هـ) : (((قَرَنَ) بين الحَجِّ والعُمْرَة يقُرن – بالضم والكسرة – قِرانًا) ، أي : جمع بينهما . و(قَرَنَ) الشيء بالشيء : وَصلهُ به ، وبابه : ضَرَبَ وَنَصَرَ))[٥] . وقد قالوا : (اقترنَ) الشيء بغيره ، ويقال : ((قارنتُهُ قِرَانًا :

---

(١) علم الدلالة ، كلودجرمان – ريمون لوبلان ، ترجمة : نور الهدى لوشن : ٥ .

(٢) علم الدلالة دراسة وتطبيقاً ، د.نور الهدى لوشن : ٢٧ .

(٣) ينظر: الدلالة في البنية العربية بين السياق اللفظي والسياق الحالي، د.كَاصد الزيدي : ٣٨–٣٩ .

(٤) مقاييس اللغة : ٧٦/٥ (قرن) .

(٥) مختار الصحاح ، محمد أبو بكر بن عبد القادر الرازي : ٥٣٢ (قرن) .

صاحبته ... و(القران) : أن تَقُرن بين تمرتين تأكُلُهمُا ... و(القرِين) : الصّاحِب))[١] ، يُقال : ((فُلاَنٌ قرينُ فلانٍ : إذا كانَ لا يُفارقُهُ))[٢] .

ولاستكمال بيان أهميتها بصورة أوضح ، لابُدَّ من بيان أقسام تلك القرينة .

(ب) أنواعها :

١. القرينة اللفظية :

هي أظهر القرائن الدلالية التي تحدد المعنى بوجهٍ أو اكثر ، فمن هذهِ القرائن مايتعلق بموضوع (الإضافة) ؛ إذ تكون إليه قرينة لتحديد دلالة المضاف بدقة ، حين يكون لفظاً مشتركاً ، يحتمل أكثر من معنى ، كما هي الحال في كلمة (ربّ) في قوله تعالى : ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[٣] ، إذ يتبيّن أنّ المُراد من هذه اللفظة (الله) سبحانه وتعالى ، وقد تحدّد ذلك في ضوء القرينة اللفظيّة المضاف إليها وهي كلمة (العالمين)[٤] . ومن الأساليب التي تقع فيها القرائن اللفظية : العطف والنعت وغيرهما .

وتقسم القرينة اللفظيّة على قسمين هما :

أ. القرينة السياقية :

وهي من أهم القرائن الدلالية وأدلّها في فهم النصوص ، لأنّها ((تُرشد إلى تبيين المُجْمَل والقطع بعدم احتمال غير المُرَاد ، وتخصيص العام ، وتقييد المُطلق ، وتنوّع الدلالة ، وهي من أعظم القرائن الدالة على مُراد المتكلّم))[٥] ، ولهذا قال الزركشي (ت٧٩٤هـ) في بيان أهمية السياق : ((فمن أهمله غلط في نظيره ، وغالط في مناظراتِهِ))[٦] .

---

(١) مختار الصحاح ، محمد أبو بكر بن عبد القادر الرازي : ٥٣٣ (قرن) .

(٢) جمهرة اللغة : ٤٠٨/٢ (قرن) .

(٣) الفاتحة /١ .

(٤) ينظر : فقه اللغة العربية ، د.كَاصد الزيدي : ١٤٤ .

(٥) البرهان في علوم القرآن ، بدر الدين الزركشي : ٢٠٠/٢ .

(٦) المصدر نفسه : ٢٠٠/٢ .

فالقرينة السياقية لها ((الأولوية في الفهم والتحديد ، لأنّها تؤلف مع اللفظ وحدة واحدة من العلاقات الدلالية))[١] ؛ إذ ترتبط ((الكلمات في السياق بعلاقاتها بما قبلها وما بعدها))[٢] .

فالسياق اللفظي يعني : مجرى الكلام ونَسَقه ، فهو الذي يحدد معاني المفردات والتراكيب ، الذي من دونهِ لا يتم تحديد تلك المعاني[٣] . وهو الذي يعيّن قيمة اللفظة على الرغم من المعاني المنوّعة التي في وسعها أن تدلّ عليها ، وقد تخلصها من الدلالات الماضية ويخلق لها قيمة حضورية[٤] . وهو على أقسام : مُتقدِّم ، ومُتأخّر ، ومُكتنِف[٥] ؛ إذ ((يصحب اللفظ ممّا يُسَاعد على توضيح المعنى))[٦] .

فالسِّياق اللفظي يكون في كثير من الأحيان المحُدِّد لدلالة اللفظة ، والمُخلِّص لها من دلالتها الماضية التي تستدعيها الذاكرة ، خالقاً لها قيمة جديدة ، ولهذا قال جون لاينز : ((أعطني السِّياق الذي فيه الكلمة أُعطِكَ معناها))[٧] .

ب. القرينة غير السياقية :

وهي على خلاف القرينة السياقية ، إذ إنّها لا ترد في مجرى الكلام ، بل ترد في موضع آخر قريب أو بعيد نوعاً ما ، فمن البعيد ما يُلحظ بين (الحاقة) و (القارعة) ، فإذا قرأنا سورة الحاقة وجدنا مطلعها :﴿ ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٣ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ﴾[٨] ، فمن سياق هذه الآيات الكريمة نلمح إيماءةً سياقية إلى أنَّ (الحاقة) هي (القارعة) ، إلاّ أننا لا نستطيعُ ان نتبيّن دلالة (القارعة) ، إلاّ بعد الرجوع إلى السُّورة التي سُمِّيت بأسمها ، إذ فَسَّرت الثانية الأولى بيوم القيامة ، وبينهما أكثر من

---

(١) الدلالة في البنية العربية بين السياق اللفظي والسياق الحالي ، د.كَاصد الزيدي : ٣٨-٣٩ .
(٢) مناهج البحث في اللغة ، د،تمام حسان : ٢٣٣ .
(٣) ينظر : أضواء عل الدراسات اللغوية المعاصرة ، د.نايف خرما : ١٢٣ .
(٤) ينظر : اللغة ، فندريس : ٢٣١ .
(٥) ينظر : الدلالة في البنية العربية بين السياق اللفظي والسياق الحالي : ٣٨-٣٩ .
(٦) المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث ، د.محمد أحمد أبو الفرج : ١١٦ .
(٧) علم الدلالة ، ترجمة : مجيد الماشطة : ٢٣ .
(٨) الحاقة / ١-٤ .

ثلاثين سورة قصيرة ، فنجد السِّياق فيها قد فَسَّر هذهِ اللفظة بوضوح ، بدلالته على أنّ (القارعة) هي : يوم القيامة[١] .

٢. القرينة الحالية :

وتُسمّى (الحال) ، أو (الظرف) ، أو (الموقف) ، او (المقام) ، وسمّاها المفسرون (سبب النزول) ، وأطلق عليها الغربيون اسم (Context of satuation) وهي تقع خارج النص ، لا داخله ، فهي إذن قرينة خارجيّة ، تتعلّق بالأحداث والأحوال المصاحبة للكلام عند صدوره من المُرْسِل إلى المُتَلَقّي ، ويدخل فيها الجوّ المحيط بالمتكلّم ، والوقت ، وشخص المُخاطب ، وحالته النفسية في أثناء الألقاء ، ونحو ذلك[٢] ، وتُعَدُّ (أسباب النزول) المتعلّقة بفهم القرآن قرائن حالية ، لتعلّقها بالحدث والزمن الذي نزلت فيه الآية ، فهذهِ كلّها عوامل لها صلة بدلالة الألفاظ والتراكيب[٣] .

وقد عرّف اللغويون العرب القدماء (القرينة الحالية) ، فسمّاها الجاحظ (النِّصبة) ، وذلك بقوله : (النّصبة : هي الحال الدالة))[٤] وبّين انّها تقوم مقام القرائن الدلالية الأخرى التي سمّاها : اللفظ ، والأشارة ، والعقد ، والخط ، بقوله : ((ولاتقصُرُ عن تلك الدلالات))[٥] . وكان ابن قتيبة ((يعوّل عليها في أحيان كثيرة في تأويله النص القرآني ، ، والحديث الشريف))[٦] .

---

(١) ينظر : الدلالة في البنية العربية بين السياق اللفظي والسياق الحالي د.كَاصد الزيدي ، (بحث منشور) .

(٢) ينظر : البحث السابق نفسه : ١٢٦ .

(٣) ينظر : الدلالة القرآنية عند الشريف المرتضى (دراسة لغوية) ، الدكتور : حامد كاظم عباس : ١٧١ .

(٤) البيان والتبيان للجاحظ : ٧٦/١ .

(٥) المصدر نفسه : ٧٦/١ .

(٦) التأويل عند ابن قتيبة في كتابيه (تأويل مشكل القرآن) و (تأويل مشكل الحديث) ، رسالة ماجستير ، زينب عبد الحسين ، كلية التربية للبنات ، جامعة بغداد : ٥٨ .

٣. القرينة العقلية :

وهي القرينة التي عرفها المسلمون دون غيرهم من الأمم ؛ لأنّ العقل حجّة ودليل من داخل الإنسان ، وهي قرينة خارجيّة للنص ، فبالعقل تؤول جميع الآيات المتعلّقة بأسماء الصفات الآلهية المعروفة بأسم (الآيات المتشابهات في أسماء الصفات) ، (كاليد) إذا نُسِبَتْ إلى الله ﷻ ، كما هي الحال في قوله تعالى في بيان صفة المؤمنين الذين يُبَايعون رسول الله (ﷺ) : ﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ ﴾[١] ، فقد قيل : إنَّ المراد (باليد) هنا : (((عقد اللهَ في هذه البيعة فوق عقدهم) ، وقيل معناها : (قوّة الله في نُصْرَةِ نبيّهَ – ﷺ – فوق نصرتهم إيّاه) ، وقيل : (نعمة الله عليهم نبيّه (ﷺ)) ، وقيل : (يَدُ الله بالثواب وما وعدهم من الجزاء)))[٢] .

فتأويل (اليد) هنا بالقوّة والقدرة أقرب إلى الصواب ، بإرجاع ذلك إلى العقل ، إذ القوّة تظهر بكمالها في اليد[٣] .

وفي ضوء ماتقدّم من تعريف لمصطلحي الإيثار ، والدلالة ، يمكننا أن نعرف الايثار الدلالي في القرآن الكريم بأنه :

ٱختيار أو إنتقاء اللفظ أو التركيب على وفق مايدلّ عليه من معنى ، يمكن أن يتناسب والسياق الذي وُضع فيه ، إذ وردت في القرآن الكريم ألفاظ آثر القرآن اختيارها دون غيرها لأن السياق تطلب توجيه معناها بخلاف الظاهر السابق إلى الفهم ، فالقرآن يحمل بين ألفاظه وجوهاً دلالية كثيرة يظهرها التأويل والٱستنباط .

---

(١) الفتح /١٠ .

(٢) التبيان في تفسير القرآن ، الطوسي : ٣١٩/٢٦ . وينظر : مجمع البيان في تفسير القرآن ، الطبرسي : ٥٦/٢٦-٥٧ .

(٣) ينظر : الكليات : ١٨٨/٢ .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمدُ للهِ الذي أنزلَ على عبدهِ الكتاب ولم يجعل له عِوجاً ، والصلاة والسلام على النبيّ الأمين الذي نُزِّلَ على قلبهِ القرآن الكريم بلسانٍ عربيّ مبين ، وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحبه المنتجبين .

وبعد :

فإنّ قرآناً قال الله تعالى فيه ﴿ صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ﴾[1] ، لهو الكتابُ الأسمى والمعجزة الخالدة ، التي بهرت ببلاغتها وفصاحتها كلّ ناظر ، وإنّ خير البحث ماكان في ظلال كتاب الله تعالى فهو كتاب معجز لايَخْلق بكثرة التفسير ، ولايزال بحراً زاخراً ، ومعينا ثرّاً ، يغدق بعطاياه على العالم والمتَعلم ، وقد حار الفكر البشري بدقة تعابيره ، وروعة أسلوبه ، ولإيزال الدارسون يفتشون في آياتهِ ، ويبحثون عن أسراره منذ قرون ، إذ هو غضٌّ طريٌّ له في كلِّ عصرٍ إعجاز يذهل الألباب ، وتذعِن له العقول .

ولغة هذا الكتاب العظيم إحدى جوانب إعجازه البارز ، فكلامه لايشابهه كلام ، ولايرقى إليه حديث ، كيف لا وهو كلام الله تعالى ، وفضل كلام الخالق على كلام المخلوق كفضل الخالق على المخلوق .

وقد كنتُ آمل ان تكون دراستي في هذا الكتاب العظيم ، فكانَ أَنْ مَنّ الله عليَّ بأختيار موضوع **(الإيثار الدلالي في القرآن الكريم)** ليكون مدار بحثي على مدى أكثر من عاميين ، وقد دفعني لهذه الدراسة أسباب ، منها :

١. ارتباط الموضوع المباشر والوثيق بالقرآن الكريم ، وهذا أهم سبب قادني الى الكتابة في هذا الموضوع .
٢. أنّ الموضوع ذو نظرةٍ واسعة وأفق شامل ، إذ انه يدور حول الكشف عن مسألة مهمة ، وهي كيف أنّ القرآن يختار أو يؤثر دلالة على أخرى بما يتناسب مع سياق او موضوع الآيات الكريمة في السورة الواحدة ، وهذا ما أشار إليه علماء التفسير ، ومن كتبوا في إعجاز القرآن الكريم ، وهو مما يعطي الباحث دراية

---

(١) ص / ١ .

وعلماً ويقيناً بكلّ مايكتب فضلاً عن إعطاء المطلع على المكتبة الاسلامية تأملاً وحافزاً لتدبر كلام الله تعالى .

٣. أنّ القرآن الكريم كتابٌ لاتنقضي عجائبه ، وهذا الموضوع محرّكٌ للفكر ، ومعطاءٌ للمعاني ، وفيّاض في إعطاء متأملهِ العلم النافع بعد أن يخلص نيته للهِ عزوجل .

وقد قمتُ – بفضل الله تعالى – بتقسيم الموضوع على ثلاثة فصول يسبقها تمهيد وتتلوها خاتمة ، وثبت بأهم المصادر والمراجع .

أمّا التمهيد ، فتناولت فيه (مفهوم الإيثار الدلالي) في اللغة والاصطلاح .

وأمّا الفصل الأول ، فقد وُسِمَ بـ(الإيثار الدلالي في المستوى الصوتي ، تناولت فيه مدخلاً بينت فيه (معنى الدلالة الصوتية) ، ثم شرعت بعد ذلك بتقسيم الفصل على ثلاثة مباحث ، فكان المبحث الأول بعنوان (الإيثار الدلالي في الصوامت والصوائت) ، والثاني بعنوان (الإيثار الدلالي في الفاصلة القرآنية) ، والثالث بعنوان (الإيثار الدلالي في التكرار الصوتي) .

وأمّا الفصل الثاني ، فقد كان موسوماً بـ(الإيثار الدلالي في المستوى الصرفي) وقد بدأ بمدخلٍ بينت فيه معنى (الدلالة الصرفية) ، بعدها قسمت هذا الفصل على أربعة مباحث ، هي كالآتي: المبحث الأول عنوانه(الإيثار الدلالي بين الإفراد والتثنية والجمع) ، والثاني بعنوان (الإيثار الدلالي بين المبني للمعلوم والمبني للمجهول) ، والثالث بعنوان(الإيثار الدلالي بين مصادر الأفعال) ، والرابع بعنوان(الإيثار الدلالي بين صيغ المشتقات) .

وأمّا الفصل الثالث ، فقد وُسِمَ بـ(الإيثار الدلالي في المستوى التركيبي (النحوي)) ، بدأ أيضاً كالفصلين السابقين بمدخلٍ بينت فيه(معنى الدلالة النحوية) ، ثم قسمت الفصل على (خمسة) مباحث ، كان الأول بعنوان(الإيثار الدلالي بين التقديم والتأخير) ، والثاني بعنوان(الإيثار الدلالي بين التذكير والتأنيث) ، والثالث بعنوان(الإيثار الدلالي بين الحذف والذكر) ، والرابع بعنوان(الإيثار الدلالي بين الأساليب النحوية) ، والخامس بعنوان(الإيثار الدلالي وأثره في التضمين والنيابة) .

وقد بحثت في كلّ عنوان من هذهِ العنوانات ، كُلٌّ في موضعه وفصله الخاص به ، وقد أقمت أطروحتي على مصادر ومراجع كثيرة ومهمّة ، كان لها الأثر البالغ والفاعل في

إخراج الموضوع بهذا المخرج ، فضلاً عن كونها الدرع المنيع والمفيد لدراسة موضوع (الإيثار في القرآن الكريم) ، وقد تنوعت تلك المصادر مابين كتب التفسير ، وكتب معاني القرآن ، وكتب علوم القرآن ، وكتب متشابه القرآن ، وكتب اللغة ، وكتب النحو، وكتب المعجمات العربية ، والإعجاز القرآني ، فضلاً عن المراجع الحديثة .

وهذا التنوع في مصادر البحث ومراجعه إنما جاء تبعاً لتنوع موضوعاتهِ وعنواناتهِ .

أمّا المنهج العلمي الذي اتبعته في دراستي فهو منهج وصفي تفسيري ، تبعاً لما قام عليه البحث من تنظير وتفسير .

ومن الواجب عليَّ أنّ أتوجه بالشكر إلى كلّ من ساعد في إنجاز هذا البحث وإخراجه بالصورة التي هو عليها . وبعد هذا كله أقول : هذا ما مكنني الله عليه ، ولست أزعم أني قلت الكلمة الفصل في هذا البحث ، فإن أصبت فمن الله ، وإنّ جانبت الصواب ، فكلّ ابن آدم خطاء ، والكمال والتمام لايليقان إلاّ بالله عزوجل ، ولكنها محاولة ، وحسبي أني حاولت ، راجيةً من الله تعالى قبول عملي هذا ، وأن يجعله خالصاً لوجههِ الكريم .

وآخر دعوانا أَنِ الحمدُ للهِ ربّ العالمين

الدلالة الصوتية

وهي مايستمد من طبيعة الصوت اللغوي ، اعتماداً على أجزائهِ ، ونغمهِ ، وجرسهِ[١] .

وقد مَنَّ الله العلّي القدير على الإنسان بنعمة القدرة على إنتاج وحدات صوتية دالة وموحية ، يُعبّر بها عن أغراضهِ وحاجاتهِ ، فسمَا بهذهِ القدرة على مخلوقات الكون كافة ، فاللغة الإنسانية هي : ((أصواتٌ يُعبّر بها كلُّ قومٍ عن أغراضهم))[٢] ، ولكنها ليست أصواتاً مفردة بل هي أصواتٌ مُركّبة دالة[٣] .

وقد شغلت قضية اللغة وكيفية إئتلاف الأصوات لتكوين الجُمل أذهان علماء الغرب والعرب منذ عهد قديم ، وبدأت على يد مناطقة اليونان الأوائل الذين سُحِروا بالنظام الصوتي العجيب الذي يتحدّث به الإنسان ، ورَبطوا بين الدلالة بين أصوات اللفظ ومعناه بنشأة اللغة ، ودخلوا في افتراضات لم تعضدها الأدلة العلمية ولا الواقع اللغوي ، لذلك فهم يفترضون أنّ هذهِ الصلة كانت واضحة في بدء نشأة اللغة ، ولكن تطوّر الألفاظ وتغيّر دلالتها أدّى إلى صعوبة إيجاد مثل هذهِ الصلة على نحو دائم بين الألفاظ ومعانيها[٤] .

ووجد هذا الرأي صدًى لدى علمائنا العرب الأوائل ، فلم يَغِبْ عن أذهانهم وجود صلة بين الألفاظ ومعانيها أو بين الدال والمدلول ، وأقدمهم في ذلك الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ) ، الذي صَرّح بهذهِ الصلة في شرحه لطائفة من الألفاظ العربيّة ، ومن ذلك قوله في لفظة الصوقرير ، بأنها : ((حكاية صوت طائر يُصَوْقِر في صياحهِ ، تسمعُ نحو هذهِ النغمة في صوتهِ))[٥] . وقال في لفظي صّرَّ وصَرصَر : ((صَرَّ الجندب صَرَيراً ، وصَرصَر الأخطب صَرصَرةَ ، وصَرّ الباب يصِرُّ ، وكلّ صوت شبه ذلك فهو

---

(١) ينظر : دلالة الالفاظ ، إبراهيم أنيس : ٤٦-٤٧ ، وجرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب ، د.ماهر مهدي هلال : ٢٨٨-٢٩٣ .

(٢) الخصائص ، ابن جني : ٣٣/١ .

(٣) ينظر : دلالة الألفاظ : ٦٣ .

(٤) ينظر : المرجع نفسه : ٦٢ .

(٥) العين ، الخليل بن أحمد الفراهيدي ، (صوقر) : ٦٠/٥ .

صرير إذا امتد ، فإذا كان فيه تخفيف وترجيع في إعادة الصوت ضوعِفَ كقولك : صَرصَر الأخطب صَرصَرة))[١] .

وقد تبنى ابن جني (ت٣٩٢هـ) هذا المفهوم في بدايات كتابه (الخصائص) عند كلامه على نشأة اللغة ، ثم توسّعَ في الكشف عن هذهِ الدلالة وعقدَ أكثر من فصل لبيان الصلة الطبيعيّة بين الألفاظ وَمَا تدلّ عليه[٢] ، ولم يقتصر على التناسب الطبيعي ، وإنّما تعدّاه إلى ما هو أشمل من ذلك ، إلى الكشف عن التوافق بين جرس الألفاظ ودلالتها في ما لاصلة له بالمناسبة الطبيعية التي في الكون ، فقال : ((فإنَّ كثيراً من هذه اللغة وجدته مضاهياً بأجراس حروفهِ أصوات الأفعال التي عبّر عنها))[٣]. وضرب لذلك مثالاً فقال: ((ألا تراهم قالوا : قضَمَ في اليابس ، وخضَمَ في الرطب ، وذلك لقوّة القاف وضعف الخاء ، فجعلوا الصوت الأقوى للفعل الأقوى والصوت الأضعف للفعل الأضعف))[٤] .

وتنقسم القيمة الدلالية للتركيب الصوتي للكلمة من حيث اختلافها على قسمين[٥]: (الأول) حكاية الأصوات : إذ تتسم طائفة من الألفاظ بطابع إيحائي في تركيبها الصوتي ، وهي كمّا عبّرَ عنها الخليل من باب (الحكاية)[٦] ، مثل خرير الماء ، وحفيف الشجر ، وصهيل الخيل ، أي أنك تسمع صوتاً فتحاول ان تجد ما يحاكيه ممّا ينطق به الأنسان ، فليس الصوت دلّ بطبعه على معناه ، وإنّما الأنسان هو الذي عَبّرَ عن مثل هذهِ المسموعات بأصواتها ، فالمعاني أوحت بأسمائها من أصواتها .

(والثاني) المناسبة بين الصوت والمعنى : التي قالها كثيرٌ من علماء العربية الذين سبق ذكرهم ، وهي أمرٌ لايُدْرَك إلاّ بعد أن يوضع اللفظ للدلالة على معنى معيّن ، إذ جاء

---

(١) العين ، (صرّ) : ٧ / ٨١-٨٢ .

(٢) ينظر : باب (إمساس الألفاظ أشباه المعاني) : ٢/١٥٤-١٧٠ ، وباب (تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني) : ٢/ ١٤٧-١٥٤ .

(٣) الخصائص : ١/٦٥ .

(٤) المصدر نفسه : ١/٦٥ .

(٥) ينظر : المباحث اللغوية والنحوية عند ابن تيمية ، هادي الشجيري : ٥٧ .

(٦) العين : ١/٥٤-٥٥ ، وينظر : التفكير الصوتي عند الخليل ، خليل إبراهيم العطية : ٩٥ .

الدارسون ونظروا في هذهِ الألفاظ وتدبّروها ، فبحثوا في اسباب تركيبها من تلك الأصوات التي جاءت عليها ، وهذهِ المناسبة سمّاها المحدثون محاكاة الأصوات (onomatopoeia)[١] ، أو التوليد الصوتي[٢] .

أمّا أقسام الدلالة الصوتية في المفهوم الحديث[٣] ، فهي :

١.الدلالة الصوتية المطّردة : وتضم نوعين :

أ. الدلالة المعتمدة على تغير الفونيمات التركيبية للكلمة ، أي استعمال المقابلات الاستبدالية بين الألفاظ التي تؤدي إلى إحداث تغيير في المعاني مثل : طابَ وشابَ وعابَ وخابَ ، ومثل : الذُلّ والذِلّ ، والعِوَج والعَوج .

ب. الدلالة المعتمدة على تغير الفونيمات فوق التركيبية للكلمة ، وهي الملامح الصوتيّة المرافقة للكلام والمُسمّاة (الظواهر التطريزية) وتشمل النبر والتنغيم .

٢.الدلالة الصوتية غير المطّردة : وهي دلالة لاتخضع لقوانين ثابتة أو نظام مطّرد ، وإنما هي دلالة يشوبها شيء من الغموض ؛ لأنّها تقوم على التصوّر والافتراض بأنّ لكلّ صوت دلالة طبيعية على معنىً معيّن ، وهي التي قال بها ابن جني في طائفة من الألفاظ ، وتابعه في ذلك بعض المحدثين[٤] .

ويعتمد التغيّر الفونيمي التركيبي – وهو من أقسام الدلالة الصوتية المطردة – على مفاهيم صوتية حديثة ، يُعَدَّ الاستبدال (Commutation) من أهمها ، وهو : ((عملية تقتضي وضع صوت او مقطع لغوي مكان صوت او مقطع لغوي آخر في كلمة واحدة ، بما يؤدي إلى تغيّر في دلالتها ، وتقع هذهِ العملية في الصوامت والصوائت معاً ، وتقوم على فكرة المغايرة والمخالفة ، إذ تستقلّ كلّ وحدة صوتية بكيانها الخاص وصورتها المستقلة ، وهي من الوسائل التي تعين اللغة على تنويع مفرداتها والتفريق بينها لتكون أداة

(١) بحوث ومقالات في اللغة ، رمضان عبد التوّاب : ١٧ .
(٢) دور الكلمة في اللغة ، ستيفن أولمان ، ترجمة : د.كمال محمد بشر : ٨٣ .
(٣) ينظر : الدلالة اللغوية عند العرب ، د.عبدالكريم مجاهد : ١٦٦-١٨٢ .
(٤) ينظر : الفلسفة اللغوية ، جرجي زيدان : ٩٩ ، ١٠١ .

تفاهم وتعبير صالحة بإجراء الإيثار بين أصواتها بان تغيّر صور الكلمات فتتغيّر معانيها ، ويكون لكلّ صوت منها قيمته اللغوية))[١] .

ولابُدّ من التأكيد على مسألة مهمة في هذا السياق ، هي أنّ الدلالة الصوتية ، ليست وحدة ذات معنى مستقلّة بنفسها ، فهي ليست دلالة مؤسسة للمعنى ، وإنما هي مؤكدة له ضمن عناصر السياق[٢] ، وفي القرآن الكريم هناك أمثلة كثيرة أوحت فيها الأصوات بدلالتها ، ومن ذلك الأيحاء الصوتي في لفظة (متشاكسون) في قولهِ تعالى : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[٣] ، فقد دَلتّ هذه اللفظة على المخاصمة والجدلّ[٤] . ويبدو أنّ اختيارها منظورٌ فيه إلى تشكيلها الصوتي ، فقد ((جُمِعَت في الكلمة حروف الأسنان والشفة ... التاء والشين والسين تعاقباً ، تتخللها الكاف ، فأعطت هذهِ الحروف مجتمعة نغماً موسيقياً خاصاً حمّلها أكثر من معنى الخصومة والجدل والنقاش بما أكسبها من أزيز في الأذن يبلغ السامع إلى انّ الخصام قد بلغ درجة الفورة والعنف من جهة ، كما أحاطه بجرس مهموس خاص يؤثر في الحس والوجدان من جهة أخرى))[٥] ؛ ليوحي بالدلالة على الحزن والأسى على هؤلاء ، وهذا الأيحاء الصوتي مراد هنا، إذ ((كان البيان القرآني قد اهتم بموسيقى العبارة ، وحرص أشدّ الحرص على تحقيقها))[٦] .

---

(١) علم الأصوات العام ، بسام بركة : ١٦٩ .

(٢) ينظر : التناسب الدلالي في سورة الضحى – دراسة في الأعجاز القرآني ، (بحث) ، محمد جعفر ، مجلة القادسية ، العدد(٢) ، ١٩٩٩ : ص١٠٤ ، ١٠٩ .

(٣) الزمر / ٢٩ .

(٤) ينظر : معجم مفردات ألفاظ القرآن ، الراغب الأصفهاني ، (شكس) : ٢٧٣ .

(٥) الصور الفنية في المثل القرآني ، د. محمد حسين على الصغير : ٢٣٩ .

(٦) النقد اللغوي عند العرب ، د.نعمة رحيم العزاوي : ٢٩٣ .

ومنه قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۗ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴾ (النور/ ٣٥) ، فإنّ للفظة (تمسسه) ((أزيزها الحالم وصوتها المهموس ، ونغمها الرقيق نتيجة لالتقاء حرفي السين متجاورين بما لاتحققه كلمة أخرى تؤدي نفس المعنى))[١] ، فلهذهِ اللفظة السينية وحيٌ بالإنطفاءِ والخفوت ما يتناسب مع المعنى .

فالصوتُ –إذن– اعطى دفقًا دلالياً مضافاً ، يُحَسّ في عناصر التشكيل وبنائها ، ((ولما كان منبعثاً من عناصره فليس إحساسه مقصوراً على شخص معيّن ، إنّما هو مادة دلالية يبصرها الجميع ، فكانت لذلك الدلالة الصوتية))[٢] .

---

(١) الصورة الفنية في المثل القرآني : ٢٤٠ .

(٢) الدلالة النفسية في القرآن الكريم ، (أطروحة دكتوراه) ، محمد جعفر محيسن العارضي ، كلية الآداب ، جامعة القادسية ، ٢٠٠٢م–١٤٢٣هـ : ص ١٦–١٧ .

المبحث الأول

الإيثار الدلالي في الصوامت والصوائت

توطئة :

ميّز علماء الأصوات في اللغة بين نوعين منها ، وهي الأصوات الصامتة ، والأصوات الصائتة .

والصوت الصامت : مصطلح وضع ليقابل المصطلح الإنكليزي (Consonant) .

وحدّه السعران بانّه : ((الصوت المجهور او المهموس الذي يحدث في نقطة أن يعترض مجرى الهواء اعتراضاً كاملاً (كما في حالة الباء) ، أو اعتراضاً جزئياً من شأنه أن يمنع الهواء من أن ينطلق من الفم دون احتكاك مسموع (كما في حالة الثاء والفاء مثلاً)))[١] . وعليه فإنّ كلّ الأصوات سواء أكانت مجهورة أم مهموسة هي صوامت .

أمّا الصوت الصائت : فهو مصطلح يقابل المصطلح الانكليزي (Vowels) ، وهو ((كلّ صوت مجهور يحدث في تكوينه أن يندفع الهواء في مجرى مستمر خلال الحلق والفم ، وخلال الانف معهما أحياناً دون أن يكون ثمة عائق يعترض مجرى الهواء إعتراضاً تاماً ، أو تضييق لمجرى الهواء من شأنه ان يحدث احتكاكاً مسموعاً))[٢] .

وتشمل الصوائت : الفتحة والضمة والكسرة وما يقابلها من حروف المد وهي الألف والواو والياء .

وقد عقد ابن جني باباً في الخصائص سمّاه (في مطل الحروف) ، قال فيه : ((والحروف الممطولة هي الحروف الثلاثة اللينة ، المصوتة ، وهي الألف والياء والواو))[٣] . وميّز بين الحركات القصيرة ، والحركات الطويلة ، إذ قال في الباب الذي سمّاه (في مضارعة الحروف للحركات ، والحركات للحروف) : ((وسبب ذلك حرف صغير ، ألا ترى أنّ متقدمي القوم ، مَنْ كان يسمّي الضمة الواو الصغيرة ، والكسرة الياء

---

(١) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي ، محمود السعران : ١٢٤ .

(٢) المرجع نفسه : ١٢٤ .

(٣) الخصائص : ٣/ ١٢٤ .

الصغيرة ، والفتحة الألف الصغيرة ، ويؤكد ذلك عندك انّك متى أشبعت ومطلت الحركة أنشأت بعدها حرفاً من جنسها))[١] .

والحركات في العربية تقوم بوظيفتين[٢] : الأولى : عامة ترجع إلى كون الصوامت أصواتاً لايمكن النطق بها من غير أن تكتنفها الحركات ، فلا كلام بلا حركات ، وحياة الحرف بحركته ، وموتهِ بفقدها ، وقد كان سيبويه مصيباً حين سَمّى الحرف الساكن مَيِّتاً والحرف المتحرك حيّاً[٣] .

والثانية : خاصّة ترجع إلى ما تؤديه الحركة في نظام العربية من تغيّر في معاني الجذر الواحد ، أي أنّها تفرّق بين الدلالات وتميّز بين الصيغ ، إذ تتقابل الحركات في مباني الألفاظ فتحدث تغيّراً واضحاً في معانيها . وَغالباً ما يحصل تغيّر البناء في العربية من طريق المغايرة بين الصوائت القصيرة (الحركات) على وفق تبادل مُنسّق يخضع لنظام العربية وأسلوبها في تركيب أصوات الكلمة .

ويُسمّي بعض المحدثين هذهِ الظاهرة نظام تعاقب المُصّوتات او التحوّل الداخلي ، ويعدّه المنبع السهل الذي تستعين به اللغة لتستحدث من اصولها الثلاثية ثروة هائلة من المفردات[٤] .

وقد وقف علماء العربية عند هذهِ الفوارق الصوتية القائمة على اختلاف الحركة ، فبيّنوا أنّ العربية تتخذ من الحركة وسيلة للتفريق بين معانٍ متقاربة ، وسعوا إلى الكشف عن هذهِ المعاني[٥] .

---

(١) الخصائص : ٣/٣١٥ .

(٢) ينظر : الفروق في اللغة ، أبو هلال العسكري : ٢٠٣ .

(٣) ينظر : الكتاب : ٢/١٦٤ ، ٢٢٢ ، ٣٦٧ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ . ودراسات في اللغة والنحو ، عدنان محمد سلمان : ٣٥ .

(٤) ينظر : العربية الفصحى ، دراسة في البناء اللغوي ، هنري فليش : ٥٨ .

(٥) ينظر : إصلاح المنطق ، ابن السكيت : ٣٧ ، وتأويل مشكل القرآن ، ابن قتيبة : ٤٨٣ ، وتفسير غريب القرآن ، ابن قتيبة : ٤٨ ، ٥٤ ، ١٢٢ .

وأقوى الحركات هي الضمة ، وتليها الكسرة ، وأخفهنَّ الفتحة ، وقد أدرك القدماء أن صفتي القوّة والضعف تتصلان بالمعنى ، وأشاروا إلى ذلك ، ومنهم سيبويه[١] ، والمبرد[٢](ت٢٨٥هـ) ، وابن جني[٣] ، والرضي الاستراباذي[٤](ت٦٨٦هـ) ، وغيرهم .

وأشار المحدثون إلى وجود الإنسجام الصوتي في القرآن الكريم ، وانّ السرّ في ذلك يرجع إلى ((مناسبة التركيب في أحرف الكلمة الواحدة ، ثُمّ ملاءمتها للكلمة التي بإزائها ثم إتساقٍ الكلام كلّه على هذا الوجه حتى يكون كالنظم الذي يصبّ في الأذن صبّاً ، فيجري أضعفه في النسق مجرى أقواه ، لأنّ جملته مفرّعة على تناسب واحد))[٥] .

وأنّ ألفاظه ((كيفما أدرتها وكيفما تأملتها لاتصيب لها في نفسك ما دون اللذة الحاضرة والإنسجام العذب ، وانّ طريقة نظم القرآن تجري على استواء واحد ، في تركيب الحروف باعتبار من أصواتها ومخارجها))[٦] .

وهذا الانسجام ارتبط إرتباطاً وثيقاً بصفات هذهِ الأصوات ومخارجها ، وآلية النطق بها ، فضلاً عن حسن المجاروة بين هذهِ الصوامت ، مما لايحدث خللاً في السياق الصوتي للنص القرآني ، وقد اخترنا عدداً من النماذج للإيثار بين الصوامت والصوائت في القرآن الكريم ، على النحو الآتي :

أولاً : الإيثار الدلالي في الصوامت :

١. إيثار صوت الغين على صوت العين في (شَغَفَ وشَعَفَ) :

في قولهِ تعالى على لسان نسوة المدينة التي عاش فيها يوسف (عليه السلام) ، يصفن حُبَّ زوجة العزيز ليوسف (عليه السلام) إذ يقول عز وجل : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (يوسف / ٣٠) .

---

(١) ينظر : الكتاب : ٢٥٨/٢ ، ٢٩٧ .

(٢) ينظر : المقتضب ، المبرد : ١٨٩/٢ .

(٣) ينظر : الخصائص : ١/ ٦٩ ، والمحتسب : ١٨/٢-١٩ ، ١٧/٣ .

(٤) ينظر : شرح الكافية ، الرضي الاستراباذي : ١/ ٢٠ .

(٥) تاريخ آداب العرب ، مصطفى صادق الرافعي : ٢/ ٢٣ .

(٦) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، مصطفى صادق الرافعي : ٢٤٠-٢٤١ .

فقد اختلف المفسرون في تفسير هذهِ الآية ، من غير أن يخرجوا عن القول بدلالتها على شدّة حبّ زوجة العزيز ليوسف (عليه السلام) ، فالطبري (ت٣١٠هـ) يرى أنّ (الشغافُ) جلدةٌ على القلب ، يقال لها : لسان القلب ، وهذا يعني أنّ حبّ امرأة العزيز ليوسف (عليه السلام) دخل الجلد حتى أصاب القلب . أمّا على قراءة (شَعَفَها)[١] ، بالعين فهو يعني أنّه ذهب بها كلّ مذهب ، وهو مأخوذ من شعف الجبال ، أي : رؤوسها ، وأنّ الشغفَ والشعف مختلفان ، فالشعفُ في البغض ، والشغفُ في الحب[٢] .

وقال النحاس (ت٣٣٨هـ) في (الشعف) : ((معناه عند أكثر أهل اللغة : قد ذهب بها كلّ مذهب ، لأنّ شَعَفَاتِ الجبال أعاليها ، وقد شُعفَ بذلك شَعْفَاً بإسكان العين ، أي أولع به ، إلاّ أنّ أبا عبيد أنشد بيت ٱمرئ القيس :

أَيَقْتُلُنِي وَقَدْ شَعَفْتُ فُؤَادَهَا كَمَا شَعَفَ المَهَنُوءَةَ الرجُلُ الطّالي[٣]

قال : فَشُبِّهت لوعةُ الحبّ وَجَواهُ بذلك . وروي عن الشعبي أنّه قال : الشغفُ : حبٌّ ، والشَّعَفُ : جنونٌ))[٤] .

وذكر أبو الفرج بنُ الجوزي (ت٥٩٧هـ) ، أربعة أقوال في الشغاف[٥] :

أحدهما : أنّه جلدة بين القلب والفؤاد .

والثاني : أنّه غلاف القلب .

والثالث : أنّه حَبّة القلب وسويداؤه .

والرابع : أنّه داءٌ يكون في الشراسيف وهي مقاطّ رؤوس الأضلاع .

---

(١) وهي قراءة الحسن البصري وابن محيصن ، وغيرهما ، على حين هي لدى الجمهور (شغفها) بالغين ، وعدها ابن جني من القراءات الشاذة ، ينظر : المحتسب في شواذ القراءات ، ابن جني : ١/ ٣٣٩ ، وإتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر ، أحمد عبد الغني الدمياطي : ٢٦٤ .

(٢) ينظر : جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، الطبري : ١٣ / ١١٩ -١٢١ .

(٣) ديوان أمرئ القيس : ٢٣٣ .

(٤) معاني القرآن الكريم ، النحاس : ٣/ ٤١٩ – ٤٢٠ .

(٥) ينظر : زاد المسير في علم التفسير ، ابو الفرج الجوزي : ٤/ ٢١٤ .

ولذلك أنشدوا :

وَقَدْ حَالَ هَمٌّ دُوْنَ ذلكَ دَاخلٌ دُخولَ الشغافِ تَبْتَغِيهِ الأصابعُ[١]

ولم يزد الرازي (ت٦٠٦هـ) على ذلك شيئاً ، وقد تحدّث عن قراءة (شَعَفَها) بالعين ، إذ قال : ((يقال : شعفه الهوى إذا بلغ إلى حَدّ الإحتراق ، وشعف الهناء البعير إذا بلغ منه الألم إلى حدّ الإحتراق ، وكشف أبو عبيدة عن هذا المعنى فقال : الشعف بالعين إحراق الحبّ القلب مع لذةٍ يجدها ، كما أنّ البعير إذا هنىء بالقطران يبلغ منه مثل ذلك ثم يستروح إليه ، وقال ابن الأنباري : الشعف رؤوس الجبال ، ومعنى شعف بفلان إذا ارتفع حبّه إلى أعلى المواضيع في قلبه))[٢] .

وقال القرطبي(ت٦٧١هـ) :((الشغاف حجاب القلب ، والشّعاف سويداء القلب ، فلو وصل الحبُّ إلى الشَّعاف لماتت . وقال الحسن : ويقال : إنّ الشّغاف الجلدة اللاصقة بالقلب التي لاترى ، وهي الجلدة البيضاء ، فلصق حبُّه بقلبها كلُصُوق الجلدة بالقلب))[٣] .

و(الشغاف) لغةُ : هو غلافٌ يحيط بالقلب فهو دونه كالحجاب[٤] ، وشغفه شغفاً بمعنى وصل إلى شغاف قلبه ، أمّا (الشعف) فهو أعالي كلّ شيء ورأسه ، فشعف الجبل : رأسه وأعاليه ، وشعفُ القلب : هو رأسه المُعَلّق عند النياط ، وشعفه الحبّ : ((أي وصل إلى رأس قلبه))[٥] ، وقيل شغفه الحبّ : أحرق قلبه[٦] .

فـ(شَعَفَ) في العربية بمعنى أحْرَق ، وهو متناسب مع دلالة النص الذي يصف شدّة حبّ زوجة العزيز ليوسف (عليه السلام) ، ولاسيّما أنه لفظ معروف في كلام العرب

---

(١) البيت للنابغة الذبياني ، ينظر : ديوانه : ٧٩ .

(٢) مفاتيح الغيب : ١٨ / ١٢٩ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي : ١١/ ٣٢٨ .

(٤) ينظر : (شغف) في : الصحاح ، الجوهري : ١٣٨٢/٤ ، ومقاييس اللغة ، أحمد بن فارس : ٣/ ١٩٥ ، وتفسير مفردات ألفاظ القرآن ، سميح عاطف الزين : ٤٧٠ .

(٥) مقاييس اللغة : ٣/ ١٩٥ .

(٦) ينظر : الصحاح : ١٣٨٢/٤ .

لوصف شدة الوَلَع ، وحُرقَه الفؤاد ، وهذا يثبت حدوث تغيّر دلالي سببه التغيّر الفونيمي ، وهو أمرٌ ثابت لغةً وقد أتفق عليه أغلب علماء العربية ، كما مرّ آنفاً .

ولو أجرينا موازنة صوتية بين (شَغَفَ) و (شَعَفَ) لوجدنا كُلّاً منهما مُتناسباً بأصواته مع معناه الذي يدلّ عليه ، فـ(الشَغف) يمسّ القلب برقة وعذوبة يذوقها الوَلهان أوّل حُبّهِ ، واوحى بذلك صَوت الغين الرخو المجهور[١] ، الذي يوحي دائماً بشيءٍ من الخفاء والغموض ، في نحو غَمُضَ وغَفَى وغارَ وغاصَ وغطىّ وغشىّ ، فكأنّ الحُبَّ مُتَخَفٍّ بين جنبات القلب . و امّا (الشغف) فهو إحراقٌ للقلب ولَوْعة وإتّقاد مع لذةٍ يجدها ، وكانّه يحُصُلُ بعد بلوغ الحُبّ أمداً طويلاً ، وأوحى بذلك صوت العين المتوسط المجهور[٢] ، الذي يوصف بأنّه أطلق الأصوات وأفخمها جرساً ، وأنصعها سمعاً[٣] ، فهو يوحي دوماً بالوضوح والعلانية في نحو : شَعَّ ، وشَعَرَ ، وعَلَنَ، وعَرَفَ ، وعَلِمَ ، فضلاً عن أنّ تجاور الصوتين يبيح الإيثار بينهما ، إذ العين حلقية ، والغين طبقية[٤] .

٢. إيثار صوت الخاء على صوت الحاء في (نَضَخَ ونَضَحَ) :

ورد هذان اللفظان في تفسير قولهِ تعالى في وصف الجنّة التي وعد بها المتقون :

﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ الرحمن: ٦٦ .

وذكر المفسرون ثلاثة تأويلات في هذهِ الآية الكريمة[٥] :

احدها : أنهما ممتلئتان لاتنقطعتان .

والثاني : أنهما جاريتان .

---

(١) ينظر : الكتاب ، سيبويه : ٤/٤٣٣-٤٣٤ .

(٢) ينظر : المصدر نفسه : ٤/٤٣٣-٤٣٤ .

(٣) ينظر : العين ، الخليل بن أحمد الفراهيدي : ١/ ٥٣ .

(٤) ينظر : المحيط في أصوات العربية ، محمد الأنطاكي : ١٨ – ١٩ .

(٥) ينظر : النكت والعيون ، تفسير الماوردي (ت٤٥٠هـ) : ٥/٤٤١ ، والدر المنثور في التفسير بالمأثور ، السيوطي : ١٤/١٥٤-١٥٥ ، وروح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني ، أبو الثناء الآلوسي : ٢٧/ ١٢٢ .

والثالث : أنهما فوّارتان ، وذكر في الجنتين الأوليين عينين تجريان ، في حين ذكر الأخريين عينين نضاختين ، والجري أكثر من النضخ ، كما ذكروا في النضخ أربعة اوجه :

احدها : أنّها تتضخ بالماء .

والثاني : بالمسك والعنبر .

والثالث : بالخير والبركة .

والرابع : بأنواع الفواكه .

وقال ابن عطيّة (ت٥٤٦هـ) : ((والنضّاخة الفوّارة التي يهيج ماؤها))[١] . وذهب البقاعي (ت٨٨٥هـ) إلى أنّهما ((تفوران بشدة توجب لهما رشاش الماء بحيث لاينقطع ذلك ، ولم يذكر جريهما فكأنهما بحيث يرويان جنتهما ولايبلغان الجري ، والنضخ دون الجري وفوق النضح ... وكانهما كمن تغرغر عيناه بالدمع فتمتلئان من غير جري))[٢] .

ويرى الشوكاني (ت١٢٥٠هـ) أنّ النضخ ((فوران الماء من العين ، والمعنى : أنّ في الجنتين المذكورتين عينين فوارتين ... قال الحسن ومجاهد : تنضخ على أولياء الله بالمسك والعنبر والكافور في دور أهل الجنة كما ينضخ رش المطر))[٣] .

امّا عند أهل اللغة ، فـ(النَضْحُ) : يدلّ على شيءٍ يُندِّي ، وماء يُرَشّ ، ويُقال لكلِّ ما رَقَّ : نضح ؛ لأنّ الرشّ رقيق ، فيقال : نضحْتُ البيت بالماء ، ونضحَ جلده بالعَرق . أمّا (النَضْخُ) فهو قريب من النَضْح ، إلاّ أنّه أكثر منه ، فهو دفق الماء ، ولذا قيل : غيثٌ نَضّاخ أي كثير الهطول ، وعَينٌ نَضّاخة كثيرة الماء فوّارة[٤] .

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، ابن عطية الأندلسي : ٢٣٥/٥ .

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، البقاعي : ١٩ / ١٨٨ .

(٣) فتح القدير ، الشوكاني : ١٨٨/٥ – ١٨٩ .

(٤) ينظر : (نضح ونضخ) في مقاييس اللغة : ٤٣٨/٥ ، ولسان العرب (نضح ونضخ) ، وتفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم : ٨٦٥ .

ويتفق أهل اللغة والتفسير على أنّ الآية قُرئت بالحاء والخاء ، وأنّ في هذا الاستبدال الفونيمي تغيّراً دلالياً[١] ، ولكنهم اختلفوا في تحديد ما تنضخ به العينان كما مَرّ آنفاً ، والراجح أنّه الماء ؛ لأنّه المعروف في العيون ، إذ كانتا عيني ماء[٢] .

ولو تأملنا الفارق الدلالي المترتب على الفارق الصوتي ، لوجدناه ماثلاً في الصوتين المبدلين ، فالخاء والحاء كلاهما رِخو مهموس[٣] ، ولكنَّ الخاء الطبقية أكثر احتكاكاً ؛ إذ يقترب جدار الحلق من الطبق فيضيق مجرى الهواء فَيُسمَع له عند مُروره صوت مفخّم[٤] ، قياساً للحاء الحلقي الذي يتسع فيه مَجرى الهواء فيُمرّ فيه مُحدثاً حفيفاً خافت الصوت يكاد يقترب من الهاء[٥] ، فحاكت شدّة إحتكاك الخاء قوّة دفق الماء من العين الفوّارة ، كما حاكت رِقّة إحتكاك الحاء غير المعجمة للماء السخيف يِخفّ أثره ، وقالوا : ((النضخ بالخاء لما يَقوى أثره قبيل الثوب ونحوه بللاً ظاهراً ؛ وذلك لأنّ الخاء أوفى صوتاً من الحاء ، ألا ترى إلى غِلَظ الخاء ورقّة الحاء))[٦] .

فالعين النضاخة لها مزيّة تميّزها من غيرها من العيون المتدفقة ، وهي أنَّ الماء فيها يتفجّر (صُعُداً) أي يتدفق بأتجاه العلوّ لقوّتهِ وشدّة إندفاعِهِ ، وفي هذا إشارة إلى الخير الوافر ، والنعم المُمتعة والمنظر الحسن الذي يفيض على أهل الجنّة ، فجعل صعود الماء إلى أعلى شرطاً في الوصف بالنضخ ، وليس قوّة الماء فحسب[٧] . والله أعلم .

---

(١) ينظر : الخصائص : ٢/ ١٦٠ .

(٢) ينظر : جامع البيان ، الطبري : ٢٧ / ١٥٦ – ١٥٧ ، والجامع لأحكام القرآن : ١٧ / ١٨٥ .

(٣) ينظر : الكتاب : ٤/٤٣٣-٤٣٤ .

(٤) ينظر : المدخل إلى علم أصوات العربية : ١٩٢ ، والوجيز في فقه اللغة العربية : ١٩٥ ، وخصائص الحروف العربية ومعانيها : ١٧٤ ، وعلم اللغة ، السعران ١٥٤ .

(٥) ينظر : الوجيز في فقه اللغة : ١٩٨ .

(٦) المحتسب في شواذ القراءات : ٢/ ١٩ ، وينظر : الخصائص : ٢/ ١٦ .

(٧) ينظر : التفسير الكبير ، الفخر الرازي : ٢٩ / ٣٧٩ .

ثانيا : الإيثار الدلالي في الصوائت :

١. الإيثار بين الضمّة والكسرة ، ومنه :

أ. إيثار الكسرة على الضمة في (الإربة والأُربة) :

في قوله تعالى : ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ النور: ٣١

قال الطبري (٣١٠هـ) : ((و(الإربة) الفِعْلَةُ من الأرب ؛ مثل الجِلْسَةِ من الجلوس ، والمِشية من المشي ، وهي الحاجة ، يقال : لا أرَبَ لي فيك : لاحاجة لي فيك . وكذا : أرِبْتُ لكذا وكذا . إذا أحتجت إليه ، فأنا آرَبُ له أَرَبًا . فأمّا (الأُرْبَةُ) بضمِّ الألفِ ، فالعُقْدَةُ))[١] .

وفسرها الطوسي (٤٦٠هـ) بقولهِ : ((الإربة بالكسر الحاجة ، والأُربةُ بالضمّ العُقدة ؛ كالعُقْدَة حتى تنحل لسدّ الخلّة ؛ ولأنّ العقدة التي تمنع من المنفعة يُحتاج إلى حلّها ؛ لأنّ العُقْدَة عمدة الحاجة))[٢] . ففرّق بينهما في الدلالة ، منبهاً أيضاً على مابينهما من معنى .

و(الأربة) عند الزمخشري (ت٥٣٨هـ) ، هي الحاجة أيضاً و(أولو الأربة) ((هم الذين يتبعونكم ليصيبوا من فضل طعامكم ، ولاحاجة لهم إلى النساء ، لأنهم بله لايعرفون شيئاً من أمرهن ، أو شيوخ صلحاء ، إذا كانوا معهنّ غضّوا أبصارهم ، أو بهم عنانة))[٣] .

---

(١) جامع البيان ، الطبري : ١٧ / ٢٧١ .

(٢) التبيان في تفسير القرآن ، الطوسي : ٣٤٠/٧ .

(٣) الكشاف ، الزمخشري : ٣/ ٢٢٦ ، وينظر : مجمع البيان ، الطبرسي : ٢٤٢/٧ .

وذكر ابن عاشور في تفسيره لهذه الآية أنّ (ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ) هم : ((صنفٌ من الرجال الأحرار تشترك أفراده في الوصفين وهما التبعية وعدم الأربة ، فأمّا التبعيّة فهي كونهم من أتباع بيت المرأة وليسوا ملك يمينها ولكنهم يترددون على بيتها لأخذ الصدقة أو للخدمة .

والإربة : الحاجة ، والمراد بها الحاجة إلى قربان النساء ، وإنتفاء هذهِ الحاجة تظهر في المجبوب والعنين والشيخ الهرم فرخص الله في إبداء الزينة لنظر هؤلاء لرفع المشقة عن النساء مع السلامة الغالبة من تطرّق الشهوة وآثارها من الجانبين))[١] .

أمّا عند أهل اللغة ، فـ(الإربة) : من أرب ، وهي الحاجة ، وقيل : هي الدهاء والبصر بالأمور ، وهو من العقل[٢] ، وهي أيضاً فرط الحاجة المقتضي للاحتيال في دفعهِ[٣] .

والتعليل الصوتي لهذا الإيثار ، هو انّ العُقدة أشدّ عُسراً من الحاجة ، فيقال أرب الرجل : إذا تشدّدَ وتحكّرَ ، وتأرّبَ عليهم : إذا التوى وتَعَسّرَ[٤] ، ولذا جاءَ اللفظ بضمّ الهمزة ، إذ يتناسب الضمّ الثقيل مع العقدة المُجهِدة والشاقة ، كما يتناسب الكسر الأقل ثقلاً مع الحاجة الأقل كلفة من العقدة . والله تعالى أعلم .

ب. إيثار الضمة على الكسرة في (جُذَاذ وجِذَاذ) :

قال تعالى : ﴿ فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ﴾ الأنبياء: ٥٨

قال الكسائي (ت١٨٩هـ) : ((ويقال لحجارة الذهب جُذاذاً لأنّها تكسر))[٥] .

وفَسّرَ ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) قوله تعالى (فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا) قال : ((أي فتاتاً ، وكلّ شيءٍ كسرته : فقد جذذته ، ومنه قيل للسويق : جذيذ))[٦] .

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ٢١١/١٨ .

(٢) ينظر : (أرب) في العين ، الفراهيدي : ٢٨٩/٨-٢٩٠ ، ومقاييس اللغة : ٨٩/١-٩٠ ، ولسان العرب : ٢٠٨/١-٢٠٩ .

(٣) ينظر : تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم : ٧٣ .

(٤) ينظر : مقاييس اللغة : ٩٠/١-٩١ .

(٥) معاني القرآن ، الكسائي : ١٩٦ .

(٦) تفسير غريب القرآن ، ابن قتيبة : ٢٨٦ .

وقال أبو حيّان (ت٧٤٥هـ) : (((جذاذاً) بالضم جمع جذاذة كزجاج وزجاجة ، وقيل : بالكسر جمع جذيذ ككريم وكرام))[١] .

وذهبَ البقاعي (ت٨٨٥هـ) إلى أنّ (جذاذاً) ((قطعاً مهشمة مكسرة مفتتة من الجذ وهو القطع))[٢] .

وعلى هذا فإنّ (جُذاذاً) بالضمّ جمع جذيذة ، وهي القطعة الواحدة المكسورة ، و(جِذاذاً) بالكسر جمع جذيذة ، وهو الشيء المتُكسر إلى قطع ، ومن ثمَّ فإنّ (جِذاذاً) بالكسر جمع للأصل ، و(جُذاذاً) بالضم جمع للفرع ؛ ولأنّ القِطع المتكسرة نتجت عن عملية التكسير والتقطيع التي تحتاج إلى جهد ، لذلك فهي تحتاج إلى صوت يُحاكي هذا الجهد ، فكانت تلك الضمّة التي تفوق الكسرة ثقلاً ، والله أعلم .

٢. الإيثار بين الضمة والفتحة ، ومنه :

أ- إيثار الفتحة على الضمة في (القُرْح والقَرْح) :

وقد وردت في قوله تعالى :

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (آل عمران / ١٤٠) .

ذكر المفسرون في (القرح) قراءتين ، إذ قرأها أهل الكوفة إلاّ حفصاً بضم القاف من (قُرح) وقرأها الباقون بفتحها[٣] ، ثم فرّقوا بين القراءتين دلالياً ، قال الفراء : ((القُرْح : الم الجراحات ، وكأنَّ القَرْح : الجراح بأعيانها))[٤] . وإليه ذهب ابن خالويه (ت٣٧٠هـ)[٥] .

---

(١) البحر المحيط ، أبو حيّان : ٦ / ٣٠١ . وينظر : مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، النسفي : ٧١٠/٢ .

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، البقاعي : ١٢ / ٤٣٨ ، وينظر : الجواهر الحسان في تفسير القرآن ، الثعالبي : ٨٩/٤-٩٠ ، وروح المعاني الآلوسي : ١٧ / ٦١-٦٢ .

(٣) ينظر : إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر : ١٧٩ .

(٤) معاني القرآن : ٢٣٤/١ ، وينظر : جامع البيان ، الطبري : ١٠٣/٤ -١٠٤ .

(٥) ينظر : إعراب القراءات السبع وعللها وحججها ، ابن خالويه : ١٧٩/١ .

وذكر الماورديّ أنّ ((القَرْح بالفتح : الجراح ، وبالضم ألم الجراح ، وهو قول الأكثرين))[١] . والمعنى : ((إِنْ يَمْسَسْكُمْ يومَ أُحد قَرْحٌ فقد مَسَّ القومَ يومَ بدرٍ قَرْحٌ مثله))[٢] أي : ((إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتم منهم يوم بدر ، ثم لم يضعف ذلك قلوبهم ولم يثبطهم عن معاودتكم بالقتال ، فأنتم أولى ان لاتضعفوا))[٣] .

والقرح لغةً : من قَرحَ يقرُح قرحاً بمعنى جُرِحَ ، وهو ((عضّ السلاح ممّا يجَرح الجسد))[٤] ، والقُرح مايخرج به من قروح ، فالقريح : الجريح ، والقَرحُ : الذي خرجت منه القُروح[٥] ، وقيل : ((القَرْح بالفتح أثر الجرح من شيءٍ يصيب الجسد من الجارح ، والقُرْحُ والقُرْحُ أثره من الداخل ، أو هو ألم الجُرْح))[٦] .

فألم الجرح فيه أذىً ، وهو أمرٌ حسيّ ملموس ؛ وقد يستمر بعد الجرح مدة ، لذلك أوثِرَ آختيار الضمة له ، وجعلت الفتحة الخفيفة للجرح نفسه ، والله أعلم .

٣. الإيثار بين الكسرة والفتحة ، ومنه :

أ. إيثار الكسرة على الفتحة في (العِوَج والعَوَج) :

في قوله تعالى : ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴾ الكهف: ١ .

قال الطبري (ت٣١٠هـ) : ((كُسِرَت العين من قوله (عِوَجَا) ؛ لأنّ العربَ كذلك تقول في كُلّ إعوجاج كان في دينٍ ، أو فيما لايُرَى شخصه قائماً ، فيُدْرَكَ عِياناً منتصباً كالعِوَج في الدين ، ولذلك كُسِرت العين في هذا الموضع ، وكذلك العِوَجُ في الطريق ؛ لأنّه ليس بالشخص المنتصب ، فأمّا ما كان من عوج في الأشخاص المنتصبة قياماً ، فإنّ عينها تُفْتَحُ ، كالعوج في القناة والخشبة ونحوها))[٧] .

---

(١) النكت والعيون ، الماوردي : ١/ ٤٢٦ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي : ٣٣٥/٥ .
(٣) الكشاف ، الزمخشري : ١ / ٤١٠ .
(٤) لسان العرب : مادة (قرح) : ٢/ ٥٥٧ .
(٥) ينظر : مقاييس اللغة : مادة (قرح) : ٥ / ٨٢ .
(٦) تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم : ٦٩٦ .
(٧) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، الطبري : ١٥ / ١٤٢ .

يُفهم من هذا الكلام أنّ العرب قد فرّقوا بين مايُرَى وما لايُرى ، فوضعوا الحركة الأخف والأسهل للمعنى الذي يسهل إدراكه ، وهو المعنى المادي المحسوس ، ووضعوا الحركة الأثقل للمعنى الذي لايسهل إدراكه ، وهو المعنوي الذي يحتاج إلى إعمال فكر وتأمل ليوصل إليه ، فلا يدرك إلاّ بالعقل ، وقد أشار ابن جني إلى ذلك حين بيّن أنهم يختارون الحرف الأقوى للمعنى الأقوى ، والحرف الأضعف للمعنى الأضعف ومثل لذلك بقضَمَ وخضَمَ[١] .

وذكر ابن عطية (ت٥٤٦هـ) أنّ (((العوج) فقد الاستقامة ، وهو بكسر العين في الأمور والطرق وما لايحس منتصباً شخصاً ، و(العوج) بفتح العين في الأشخاص كالعصا والحائط ونحوه))[٢] .

و(العِوَج) لغةً : من عَوِجَ يعوَجُ عِوَجاَ وعَوَجاً: وهو الانعطاف فيما كان قائماً فمال ، كالرُمح والحائط[٣] ، فيقول : عُجتُ البعير بزمامه ، وفلان مايُعوجُ عن شيءٍ يَهمُّ به ، أي أي مايرجعُ ، والعَوَجُ بالفتح فيما يُدرك بالبصر ، والعِوَجُ بالكسر فيما يُدرَك بالبصيرة[٤] .

---

(١) ينظر : الخصائص : ٢ / ١٥٨ .

(٢) المحرر الوجيز ، ابن عطية : ٣ / ٤٩٤ – ٤٩٥ ، وينظر : مجمع البيان ، الطبرسي : ٦ / ٣٠٨ .

(٣) ينظر : لسان العرب ، مادة (عوج) : ٢ / ٣٣١ – ٣٣٢ .

(٤) ينظر : إصلاح المنطق ، ابن السكيت : ١٦٤ .

المبحث الثاني

الفاصلة القرآنية :

الفواصل القرآنية ظاهرة صوتية أسلوبية جمالية ، وهي من أبرز عناصر الأيقاع الموسيقي وأبلغها إعجازاً في القرآن الكريم ، ولبنة أساسية في بناء هيكل السور القرآنية ، تطلق على أواخر الآي في كتاب الله ، وتقع عند الأستراحة في الخطاب لتحسين الكلام بها ، وهي الطريقة التي يتباين بها القرآن عن سائر الكلام[١] .

ولاتقتصر قيمتها التعبيرية على الجانب الصوتي والموسيقي ، ولاعلى جانب المعنى فحسب ، وإنما ترد الفاصلة ((وهي تحمل شحنتين في آنٍ واحد : شحنة من الوقع الموسيقيّ ، وشحنة من المعنى المتمم للآية))[٢] .

الفاصلة لغةً :

أصلها من (فصل يفصل فصلاً) ، و((الفصل : بونٌ مابين الشيئين))[٣] ، وهي ((كلمة صحيحة تدلُّ على تميّز الشيء من الشيء وإبانتهِ عنه ، يقال : (فصلت الشيء فصلاً)))[٤] .

وهي أيضاً : الخرزة التي تفصل بين الخرزتين في النظام ، وقد فصّل النَظم ، أي : جعل بين كلّ لؤلؤتين خرزة[٥] .

الفاصلة أصطلاحاً :

اختلف العلماء قديماً وحديثاً في تحديد معنىً معيّنٍ لها ، إذ عرّفها الرّماني (ت٣٨٦هـ) بأنّها : ((حروف متشاكلة في المقاطع ، توجب حسن إفهام المعنى))[٦] ، ولمّا كانت البلاغة أنّ الألفاظ تتبع المعاني وبها يَتمّ المعنى لذا كانت ((فواصل القرآن كلّها بلاغة وحكمة ؛ لأنّها طريق إلى إفهام المعاني التي يحتاج إليها في أحسن صورة يدلّ بها

---

(١) ينظر : البرهان في علوم القرآن ، الزركشي : ١ / ٥٢ .
(٢) التعبير الفني في القرآن ، د. بكري شيخ أمين : ٢٠١ .
(٣) كتاب العين ، الفراهيدي : ١٣٩٩/٣ (مادة فصل) .
(٤) معجم مقاييس اللغة ، ابن فارس ، (فصل) .
(٥) ينظر : لسان العرب ، ابن منظور ، (فصل) .
(٦) النكت في إعجاز القرآن ، الرّماني : ٩٧ .

عليها))[١] ، وقريبٌ من هذا التعريف ، تعريف الباقلاني (ت٤٠٣هـ)[٢] ، إذ جعل الفواصل أداة لإفهام المعاني القرآنية كونها جزءاً متمماً للكلام من حيث وظيفتها الدلالية في الفصل بين آية وأخرى ؛ لوجود مدّة زمنية أو استراحة بالخطاب ترتبط بهذا الفصل[٣] . فالفواصل –إذن– تكون تابعة للمعاني كما وردت في القرآن ، وليست المعاني تابعة لها ؛ لأنّ ذلك سيكون وضعاً لها في غير موضعها[٤] .

وحدّها ابن منظور (ت٧١١هـ) بقولهِ : ((وأواخر الآيات في كتاب الله فواصل بمنزلة قوافي الشعر ، جلّ كتاب الله عزّ وجَلّ ، واحدتها فاصلة ، وقوله عزّ وجلَّ : كتاب فصّلناه ، له معنيان : أحدهما : تفصيل آياتهِ بالفواصل ، والمعنى الثاني في فصّلناه بيّناه ، وقولهِ عز وجل : آيات مفصلات ، بين كلّ آيتين فصل تمضي هذهِ وتأتي هذهِ بين كلّ آيتين مهلة))[٥] .

غير أنّ الزركشي (ت٧٩٤هـ) في كتابه البرهان ، ذكر أنّه لايجوز تسمية الفاصلة القرآنية قافية ؛ ((لأنّ الشرع لمّا سلب عنه اسم الشعر وجب سلب القافية عنه ، لأنّها منه وخاصة به في الأصطلاح ، وكما يمتنع استعمال القافية في القرآن ، لاتطلق الفاصلة في الشعر ، لأنّها صفة لكتاب الله فلا تتعداه))[٦] .

كذلك لايجوز تسمية الفاصلة سجعاً ؛ لأن السجع أصله من سجع الطير ، فشّرف القرآن الكريم أن يستعار لشيءٍ فيه لفظ هو أصل في صوت الطائر ، ولأجل تشريفه عن مشاركة غيره من الكلام الحادث في اسم السجع الواقع في كلام آحاد الناس ، ولأنّ القرآن من صفات الله عزّ وجلّ فلايجوز وصفه بصفة لم يرد الأذن بها وإن صَحّ المعنى[٧] ،

---

(١) النكت في إعجاز القرآن ، الرّماني : ٩٠ .

(٢) ينظر : إعجاز القرآن ، الباقلاني : ٢٧٠ .

(٣) ينظر : من صور الإعجاز الصوتي في القرآن ، (بحث) للدكتور محمد السيد سليمان العبد ، المجلة العربية للعلوم الانسانية ، العدد(٣٦) / المجلد (٩) ، ١٩٨٩ ، الكويت : ١٠٢ .

(٤) ينظر : إعجاز القرآن : ٢٧١ .

(٥) لسان العرب ، ابن منظور : (فصل) ، والقاموس المحيط ، الفيروزآبادي : (فصل) .

(٦) البرهان في علوم القرآن ، الزركشي : ١/ ٥٨–٥٩ .

(٧) ينظر : المصدر نفسه : ٥٤/١ .

وهذا –أيضاً– ماذكره ابن سنان الخفاجي (ت٤٦٦هـ) بقولهِ : ((وأظنُّ أنّ الذي دعا أصحابنا إلى تسمية كلّ ما في القرآن فواصل ، ولم يسمّوا ما تماثلت حروفه سجعاً رغبة في تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيرهِ من الكلام والمروي عن الكهنة وغيرهم وهذا غرض في التسمية قريب))[١] .

ونقل السيوطي (٩١١هـ) قولاً للدانيّ ، فرّق فيه بين الفواصل ورؤوس الآي ، إذ يقول : ((الفاصلة هي الكلام المنفصل عمّا بعده ، والكلام المنفصل قد يكون رأس آية وغير رأس ، وكذلك الفواصل يكنّ رؤوس آية وغيرها ، وكلّ رأس آية فاصلة ، وليس كلّ فاصلة رأس آية))[٢] .

ولم يختلف المحدثون عن القدماء في تحديد معناها ، قال بعضهم : ((هي توافق أواخر الآي في حروف الروي او في الوزن ممّا يقتضيه المعنى وتستريح إليه النفس))[٣]، وقال الدكتور فضل حسن عباس في تعريفها ، هي : ((ذلك اللفظ الذي ختمت به الآية ، فكما سموا ما ختم به بيت الشعر قافية ، أطلقوا على ما ختمت به الآية الكريمة فاصلة))[٤] .

وإنْ كان هؤلاء قد ألمحوا إلى وجود علاقة بين الفواصل القرآنية والشعر ، فإن إبراهيم أنيس قد صرّح بهذهِ العلاقة ودافع عنها بقوله : ((فليس يعيب القرآن ان نحكم على أنّ في ألفاظهِ موسيقى كموسيقى الشعر ، وقوافي كقوافي الشعر أو السجع ، بل تلك ناحية من نواحي الجمال فيه))[٥] . كما أنّه حاول الربط بين الأوزان الشعرية وبعض الآيات القرآنية[٦] .

---

(١) سر الفصاحة ، ابن سنان الخفاجي : ١٧٤ .
(٢) الإتقان في علوم القرآن ، السيوطي : ٣ / ٢٩٠ .
(٣) الفاصلة في القرآن ، محمد الحسناوي : ٢٩ .
(٤) إعجاز القرآن الكريم ، د. فضل حسن عباس : ٢٢١ .
(٥) موسيقى الشعر : ٣٦٣ .
(٦) المرجع نفسه : ٣٦٤ – ٣٦٧ .

الإيثار في إيقاع الفاصلة :

أشار القدماء والمحدثون إلى القيمة التعبيرية للفاصلة ، ((إذ يتعلّق معناها بمعنى الآية تعلّقاً تاماً ، ومن ثُمّ فهي تجسد معنى السورة من جهة ، ومن جهة أخرى لايمكن ان ننكر أثرها الكبير في الإنسجام الصوتي والموسيقيّ بين الآيات))[١] ، وماله من أثر في نفس القارىء وهو ما سمّوه (إيقاع المناسبة)[٢] .

إنّ الصوت الإيقاعي في القرآن الكريم يهدف إلى إيصال المعنى بوساطة الإيقاع المؤثر ، فلا يمكن الفصل بين إيقاع الصوت والنفس البشرية ؛ لأنّ ((موسيقى القرآن تعبر عن حالات النفس وترتبط بحركة شعورها ... أجل صوت الموسيقى في القرآن هو صوت النفس البشرية ، صوت حالاتها المتباينة ، صوت فرحها وحزنها ، أملها ويأسها ، غضبها وسعادتها ، لقد لامس أعصابها ووقع على اوتارها ، وصوّر حركة إحساسها ، وكان صدى مشاعرها وآنفعالاتها ، وبلغ في ذلك الغاية وأربى على الغاية تعبيراً وتأثيراً))[٣] .

وربط بعض المحدثين بين الذبذبات الصوتية والأثر النفسي للصوت ، ((وقد ثبت علمّياً أنّ للصوت اهتزازات محسوسة في موجات الهواء ، تنطلق من جهة الصوت ، وتذبذب من مصانعه المصدرة له ، فتسبح في الفضاء حتى تتلاشى يستقرّ الجزء الأكبر منها في السمع بحسب درجة تذبذبها ، فتوحي بدلائلها ، فرحاً أو حزناً ، نهياً أو أمراً ، خبراً أو إنشاءً ، صدىً أو موسيقى ، أو شيئاً عادياً ممّا يفسّره التشابك العصبي في الدماغ ، أو يترجمه الحس المتوافر في أجهزة المخ بكلّ دقائقها))[٤] . ولا نسعى هنا إلى إلى ربط الإيقاع الصوتي بالإنتاج الفسيولوجي أو الإنتقال الفيزيائي للصوت ، وإنما نهدف إلى الإشارة إلى أنّ الأثر النفسي للصوت يتصل بالذبذبات الصوتية .

---

(١) بُنى البديع في القرآن الكريم (دراسة فنية) ، د.أميرة جاسم خلف العتابي : ٦١ .

(٢) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ٦٠/١ .

(٣) عودة إلى موسيقى الشعر ، نعيم اليافي ، (بحث) منشور في مجلة التراث العربي ، العدد (٢٥ ، ٢٦) ، لسنة ١٩٨٦ : ١٢ .

(٤) الصوت اللغوي في القرآن ، محمّد حسين الصغير : ١٤ .

وقد أكّدَ حسن عباس على تحقق العلاقة بين الصوت والمعنى بقولهِ : ((فإذا كانت معاني الألفاظ تتردد بداهة بين ما يدلّ على ملموسات وذوقيات وشميّات وبصريات وسمعيات ومشاعر إنسانية ، فإنّه لابُدَّ لأصوات الحروف أن توحي إذن بمختلف الأحاسيس الحسيّة والمشاعر الإنسانية))[١] .

ويرى محمد المبارك أنّ العلاقة بين الصوت والمعنى لاتحتاج إلى دليل ، إذ ((نستطيع أن نقول في غير تردد أنّ للحرف في اللغة العربية إيحاءً خاصاً فهو إن لم يكن يدلّ دلالة قاطعة على المعنى ، يدلّ دلالة إتجاه وإيحاء ، ويثير في النفس جواً يهيئ لقبول المعنى ويوجّه إليه ويوحي به))[٢] .

ودلالة الصوت على المعنى ليست مجردة من دلالة النفسية ، إذ يأتي المعنى مشحوناً بدلالات نفسيّة مختلفة وذلك إنطلاقاً من التناغم بين البنية الدلالية والبنية النفسية ، ((وليس يخفى أنّ مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي ، وأنّ هذا الإنفعال بطبيعتهِ إنما هو سبب في تنويع الصوت بما يخرجه فيه مدّاً أو غنّة أو ليناً أو شدّة ، وبما يهيىء له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما في النفس من أصولها))[٣] .

وسبق أن ذكرنا بأنّ هناك علاقة تجمع بين الوظيفة الإيقاعية والوظيفة الدلالية للفاصلة ، فالفاصلة ترد وهي تحمل شحنتين في آن واحد : ((شحنة من الوقع الموسيقي ، وشحنة من المعنى المتمم للآية))[٤] .

وقد شكلّت بعض المواضع في رؤوس الآي عدولاً عن الأصل أو القياس مراعاة لإيقاع الفاصلة ، وعبّرَ الزركشيّ عن هذا العدول أو الخروج ، بقولهِ : ((الخروج عن نسق الكلام لأجل الفاصلة))[٥] . كما ذكر السيوطي أنّ المناسبة بين الفواصل تحتاج إلى

---

(١) خصائص الحروف العربية ومعانيها ، حسن عباس : ٢٩ .

(٢) فقه اللغة وخصائص العربية ، محمد المبارك : ٢٦١ .

(٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، مصطفى صادق الرافعي : ١٨٣ – ١٨٤ .

(٤) التعبير الفني في القرآن : ٢٠٩ .

(٥) البرهان في علوم القرآن : ١ / ٦٠ .

مخالفة الأصول أحياناً[١] ، وللدكتور عمر عبدالهادي عتيق رأيٌ فيما قاله الزركشي والسيوطي ، إذ يقول : ((ولانرى في هذهِ الظاهرة الإيقاعيّة خروجاً عن نسق الكلام كما نصّ الزركشي ولامخالفة للأصول كما نقل السيوطي ؛ لأنّ في الخروج والمخالفة معانيَ لاتليق بجلال القرآن ، ولكننا نرى أنّها أسلوب قرآني فريد ، ولانقول في وصفهِ سوى أنّه نسيج وحده ، يصح في القرآن الكريم تحقيقاً لغاياتٍ إعجازية وإنْ لم يصح في غيره))[٢] .

ولموسيقى الفواصل خصائص[٣] ، أهمها :

١. أنّ أكثر ماتختم به الفواصل أصوات المدّ واللين ، وإلحاق النون والميم ، وسببه كما ذكر سيبويه (ت١٨٠هـ) الترنم ، إذ يقول : ((أمّا إذا ترنموا فإنَّهُم يلحقون الألف والياء والواو ماينّون ولاينّون لأنّهم أرادوا مدَّ الصوت))[٤] ، فكلّ ما في هذهِ الحروف من لحن إيقاعي لايتوافر في غيرها ؛ وذلك لتمكّنها من التطريب فقد يستعمل ثلاثة منها للمدود ، وحرفا (النون والميم) بما فيها من مزية صوتية ظاهرة في الغنّة ، يشيعان جوّاً من الهدوء والوقار يناسب الموقف ، وذلك أنّ حرف (النون) ((حرف نواح ، يتضمن شحنة قويّة من النغم المشع كيفما استعملته ، ومن العجيب أنَّ مادة الرنين قد أكتسبت صفتها من هذا الحرف نفسه))[٥] .

٢. أنّ مبنى الفواصل على الوقف[٦] ؛ بسبب النظم الموسيقي للفاصلة ، الذي يتطلّب يتطلّب الوقوف على رؤوس الآيات بالسكون ، فشعورنا بموسيقى هذهِ الفواصل لايتغيّر حتى وإن اختلفت حركة روي الفاصلة ، كما في عدّة فواصل من سورة

---

(١) ينظر : الإتقان في علوم القرآن : ٣ / ٢٣٦ .

(٢) ظواهر أسلوبية في القرآن الكريم (التركيب والرسم والإيقاع) ، د.عمر عبدالهادي عتيق : ٣٢٨ – ٣٢٩ .

(٣) ينظر : بنى البديع في القرآن الكريم (دراسة فنية) : ٦١ .

(٤) كتاب سيبويه : ٤ / ٢٠٤ .

(٥) صور البديع في الأسجاع (بلاغة – نقد – أدب) ، علي الجندي : ١٨٤/٢ .

(٦) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ٦٩/١ ، والفاصلة في القرآن : ١٣٥ ، وإعجاز القرآن والبلاغة والبلاغة النبوية : ٢٤٦ – ٢٤٧ .

الرعد : (لشديد العقاب ، بمقدار ، الكبير المتعال ، بالنهار ، من والٍ ، السّحاب الثقال)[١] ، هذا فضلاً عن أنّ الوقف على الفواصل هو ((احد المرتكزات التي تحافظ على ذلك الإيقاع ، ومن ثم جاء المرفوع مع المنصوب والمجرور مع المجزوم))[٢] .

٣. كون الفواصل متماثلة أو متقاربة[٣] ، إذ تنقسم الفواصل على : فواصل تماثلت حروف رويّها ، وفواصل تقاربت حروف رويّها كتقارب حرفي الميم والنون في فواصل الفاتحة ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ ، فلهذهِ الحروف التي تنبض بالتطريب والغنة ، برعاية التماثل والتقارب أثرها الكبير في استكمال الإيقاع والموسيقى من غير توّقع .

فالفاصلة –إذن– هي الطريق إلى إفهام المعنى وتأتي في أحسن صورة ، وفي أجمل صوت يعبّر عن تلك الصورة ، إذ إنّ ((الفاصلة تكمّل معنى الآية ويتم بها النغم الموسيقي ... وتأتي الفاصلة في القرآن الكريم مستقرة في قرارها مطمئنة في موقعها ، غير نافرة ولاقلقلة ، يتعلّق معناها بمعنى الآية كلّها تعلقاً بحيث لو طَرقتْ لاختلَّ المعنى واضطرب الفهم ، فهي تؤدي في مكانها جزءً من معنى الآية ينقص ويختلّ بنقصانها))[٤] .

إنّ التزاوج في الفاصلة القرآنية بين النغم الموسيقي وإفهام المعنى في الآية القرآنية ، أكسبها خاصية التفاعل مع السياق العام وإخراجها من كونها مجرد لفظ ، بل أنّ لها ((مهمّة لفظيّة معنوية بوقت واحد ، وأنّها مهمّة فنيّة خالصة ، فلا تفريط في الألفاظ على سبيل المعاني أو اشتطاط بالمعاني من أجل الألفاظ))[٥] ، أي أنّ وظيفة الفاصلة

---

(١) ينظر : الآيات / ٦–١٢ .

(٢) خواتيم الآيات القرآنية ، إنتصار خلف سلمان الشرع ، أطروحة دكتوراه ، الجامعة المستنصرية ، كلية التربية ، ٢٠٠١ : ١٥ .

(٣) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ١ / ٧٢–٧٤ ، وفكرة النظم بين وجوه الأعجاز في القرآن الكريم ، د.فتحي أحمد عامر : ٢١٦–٢١٧ .

(٤) البناء الصوتي في البيان القرآني ، د.محمد حسن شرشر : ٦٩ – ٧٠ .

(٥) الصوت اللغوي في القرآن : ١٤٧ .

لاتكون في إظهار المعنى أو الدلالة عليه من دون السياق المنظم لها مسبقاً ، بل انّ وظيفتها تكون أبعد من ذلك ، ((من خلال ماتضيفه من أجواء موسيقية وإيقاع يزخر بكلّ تلك المعاني ومعبّر عن المضامين بشجن إلهي مناسب يتوءام مع ما تحمله الفاصلة والنظم القرآني المساوق لها))[١] .

والبعد الصوتي الموسيقي لايمكن أن ينفصل عن الأبعاد الأخرى في السورة فهو ينسجم معها تماماً ليؤدي كلّ الأغراض في آن واحد وبلا تأخير ، وقد تتغيّر الفاصلة في السورة الواحدة بما ينسجم مع المعنى والجو العام الذي يسيطر على الآية بنغم معبّر وإيقاع مؤثر لذا فأنّ ((الفاصلة تقصر غالباً في السور القصار وأنّها تتوسط أو تطول في السور المتوسطة والطويلة))[٢] ، تبعاً لنوع الموسيقى المساوقة للنص القرآني .

ومن السور التي أوْثِرَ فيها اختلاف إيقاع الفاصلة بحسب مضمون آياتها ، على وفق المشاهد والمواقف التي تضمنتها ، سورة (الحاقة) ، فكانت فواصلها على النحو الآتي :

أولاً : بدأت السورة بإيقاع مشبع بالمد والتشديد والسكت ، قال تعالى : ﴿ ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴾ الحاقة: ١ – ٤ ، فصوت القاف المشدد في (الحاقة) ، صوتٌ مهموس انفجاري شديد[٣] ، عَبّرَ أحسن تعبير عن ذلك اليوم المهول (يوم القيامة) ، ولاسيما أنّ الآيات قد بدأت بالحديث عن الساعة التي أحقت لكلّ قوم أعمالهم في ذلك اليوم الذي عظّمه الله وحذر منه عباده ، وما قوله (وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ) إلاّ زيادة في تعظيم ذلك اليوم من خلال الاستفهام الأنكاري ، وهو على عظمتهِ وتقريعه لقلوب العباد ، كذبت به قوم عاد وثمود ، وسوف يرون كيف تقرعُ الساعة قلوبهم

---

(١) الظواهر اللغوية في كتب إعجاز القرآن حتى نهاية القرن الخامس الهجري ، عادل عباس هويدي ، رسالة ماجستير ، جامعة الكوفة ، كلية الاداب ، ٢٠٠٦ : ٣٦ .

(٢) التصوير الفني في القرآن ، سيد قطب : ٩١ .

(٣) ينظر : سر صناعة الأعراب ، ابن جني : ١/ ٦١ ، وعلم الأصوات العام ، بسام بركة : ١١٧ ، وفقه اللغة وخصائص العربية ، محمد المبارك : ١٠٤ ، وعلم اللغة ، السعران : ١٥٦ .

بهجومها عليهم[١] . وقد حقق صوت (العين) المجهور[٢] ، في قوله (القارعة) المعنى المطلوب من تقريع وتهديد وتوعد لمن كذّب بالساعة وأهوالها ، والله أعلم .

ثانيا : تحوّل الإيقاع إلى رنّة مدويّة في الياء والهاء الساكنة بعدها ، سواء كانت تاء مربوطة يوقف عليها بالسكون ، أو هاء سكت مزيدة لتنسيق الإيقاع ، طوال مشاهد التدمير في الدنيا والآخرة ، قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴾ الحاقة: ٥ – ٨ .

وذكر أبو حيّان (ت٧٤٥هـ) أنّ معنى (بِٱلطَّاغِيَةِ) : بالصيحة التي خرجت عن حدّ كلّ صيحة ، بسبب الفعلة الطاغية التي فعلوها وهي قتل الناقة ، والهاء في (الطاغية) ، – ويقصد بها (هاء السكت)_ جاءت للمبالغة ، أي : أنّ الله سبحانه أهلك القوم كلّهم لرضاهم بفعل عاقر الناقة . وأمّا قوم عاد فقد سخر الله عليهم الريح الصرصر العاتية ، وأقامها عليهم (سبع ليال) من دون انقطاع ، وفي اليوم الثامن كان أمرهم محسوماً بالهلاك ، فقد تركتهم كأعجاز النخل الخاوية ، إذ كانت تدخل من أفواههم وتخرج من أدبارهم ، حتى خلت أبدانهم من أرواحهم ، ولم يبقِ منهم أحداً[٣] .

لقد انسجم صوت (الياء) الأنتقالي الثقيل الذي يضيق مجرى الهواء في أثناء خروجه[٤] ، مع مشاهد العذاب والدمار ، وما أحس به الكفار من ضيق وثقل في تلك الأيام والليالي التي استمرَّ فيها العذاب حتى انتهت بهلاكهم جميعاً ، والله اعلم .

ثالثاً : استمر الإيقاع نفسه في مشاهد الفرح أيضاً ، في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ

---

(١) ينظر : جامع البيان ، الطبري : ٢٣ / ٢٠٥ – ٢٠٦ .
(٢) ينظر : الوجيز في فقه اللغة ، محمد الأنطاكي : ١٩٧ .
(٣) ينظر : البحر المحيط ، أبو حيّان الاندلسي : ٨ / ٣١٥ – ٣١٦ .
(٤) ينظر : الأصوات اللغوية ، إبراهيم أنيس : ٤٤ ، وعلم الأصوات العام ، بسام بركة : ١٣٨– ١٣٩ ، ودراسة الصوت اللغوي ، أحمد مختار عمر : ٢٨٣ .

حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ الحاقة: ١٨ - ٢٣ ، وفي مشاهد الحسرة كذلك ، في قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴾ الحاقة: ٢٥ ــ ٢٩ .

رابعاً : تغيّر إيقاع الفاصلة عند إصدار الحكم على العاصين لأمر ربّهم إلى رنّة رهيبة جليلة ، حققها صوتا الواو والهاء في نهاية فواصل الآيات (٣٠ –٣٢) في قوله تعالى : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾الحاقة: ٣٠ ــ ٣٢، فاجتماع صوت (الواو) ، الذي تنضم الشفتان في أثناء النطق بهِ مع إنفراج قليل لخروج النفس[١] ، ليدلّ على ضيق الموقف ، مع صوت (الهاء) المهموس الرخو[٢] ، الذي يتسم باهتزازاته الرخوة المضطربة[٣] ، ليعبّر عن النفسية المضطربة الخائفة وهي تساق إلى الجحيم في مشهد مروّع ، حين تلوى السلسلة على جسد الكافر حتى تلتف عليه ، ((وهو فيما بينها مرهق مضيق عليه لايقدر على حركة ؛ وجعلها سبعين ذراعاً إرادة الوصف بالطول ، كما قال : إن تستغفر لهم سبعين مرّة ، يريد : مرّات كثيرة ، لأنّها إذا طالت كان الإرهاق أشد))[٤] ، والتضييق عليه أعظم ، والله تعالى أعلم .

خامساً : وتغيّر إيقاع الفاصلة مرّة أخرى عند تقدير أسباب الحكم وتقدير جديّة الأمر ، إلى رنّةٍ جادة حاسمة ثقيلة مستقرة على الميم ، ثم النون ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ الحاقة: ٣٣ ــ ٣٤ . فصوت (الميم) يمتلك سمة إنضمام الشفتين ((الموحي بالاجتماع ، وسمة إنفراجهما الموحي بالإتساع والامتداد))[٥] ، يحاكي إتساع عظمة الخالق عزّوجلّ ، ثم إنّ حيادية اللسان في اثناء النطق بالميم[٦] ، أي

---

(١) ينظر : أصوات العربية بين التحوّل والثبات ، حسام سعيد النعيمي : ٢٢ ، والأصوات اللغوية ، د.محمد علي الخولي : ٩٨ ، وعلم اللغة ، محمود السعران : ١٨٠ .

(٢) ينظر : فقه اللغة وخصائص العربية ، محمد المبارك : ٥٠ – ٥١ .

(٣) ينظر : خصائص الحروف العربية ومعانيها : ١٩٣ .

(٤) الكشاف : ٤ / ٥٩٢ .

(٥) خصائص الحروف العربية ومعانيها : ٧٢ .

(٦) ينظر : علم اللغة ، محمود السعران : ١٦٩ .

استقامتهِ وعدم ميله وإتجاهه لا إلى اليمين ، ولا إلى اليسار ، يحاكي عدالته سبحانه في إصدار أحكامه على الخلق بحسب أعمالهم .

وأمّا صوت (النون) المتسم بوضوحه السمعي العالي والحامل ((قيمة الاستقرار والتمكين والصميمية))[١] ، فهو يشير إلى استقرارهم وثباتهم على منع إطعام المسكين ، كما أن مايتسم به هذا الصوت من سمة الغنة[٢] ، مما يولد الرنين والأهتزاز ليدلّ على أنّ ما سيرونه من العذاب يوم القيامة نتيجة فعلتهم تلك إنّما يهزّ كيانهم ويسحق تعنتهم ، والله أعلم .

ويرى سيد قطب أنّ ((التغير في حرف الفاصلة ، وفي نوع المدّ قبلها وفي الإيقاع كلّه ، ظاهرة ملحوظة تتبع تغيّر السياق والمشاهد والجو ، وتتناسق مع الموضوع والصور والظلال تمام التناسق ، وتشارك في إحياء المشاهد ، وتقوية وقعها على الحسّ))[٣] . وقد نّوه إلى أنّ الكشف عن المسوغات الدلالية لتغيّر الفاصلة في القرآن كله أمرٌ ليس باليسير ، فقد تتجلّى لنا أسباب التغير في موضع وتخفى علينا في مواضع أخرى ؛ لأنّ أسرار القرآن لايمكن الإحاطة بها ، ويقول في هذا السياق : ((وقد تبيّن لنا في بعض المواضع سّر هذا التغيّر ، وخفيَ علينا السرّ في مواضع أخرى ، فلم نرد أن نتمحل له لنثبت أنّه ظاهرة عامة))[٤] .

– ومن السور التي أُثر في إيقاع فواصلها الإقتصار على صوتين فقط هما (الهاء والألف) ، سورة الشمس .

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَىٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقۡبَىٰهَا ﴾ الشمس: ١ – ١٥ .

فصوت الألف هنا جاء منساباً بلا تكلّف بفعل مافيه من الإنفتاح واللين ، تشير إلى السهولة في إخراج الصوت بلا احتباس أو تضيق من نحو مانلحظه في الأصوات

---

(١) خصائص الحروف العربية ومعانيها : ١٦٠ ، ١٦٩ .

(٢) ينظر : المقتضب : ١ / ١٩٤ ، والمدخل إلى علم أصوات العربية : ١٢٨ .

(٣) في ظلال القرآن : ٦ / ٣٦٧٦ – ٣٦٧٧ .

(٤) التصوير الفني في القرآن الكريم : ٨٩ .

الأخرى[١] . ولكنه أجتمع مع صوت الهاء الذي تحتاج آلية النطق بها مايرافقها إلى الإنقباض والتوتر في أغشية الحنجرة وأنسجتها ممّا يدلّ على التوتر الوجداني ومشاعر الخوف والألم ، إذ ((إن الإنسان المنفعل الذي يدخل في حالة يأس أو بؤس أو حزن أو ضياع ولو لعارض مفاجئ لابُدَّ أن تنتقض منها نفسه ، فينعكس ذلك على جملته العصبية ، وتبعاً لذلك لابُدّ أن ينقبض لها بدنه بما في ذلك جوف الصدر))[٢] .

ومما يعزز دلالة صوت الهاء على الإضطرابات النفسية وعلى خفايا النفس ومشاعرها كثرة الألفاظ التي اشتملت على صوت الهاء والدالة على الأسى والحزن والحيرة ، وذلك نحو : تره : وقع في الباطيل ، ودله : ذهب فؤاده من الهم ، وتاه : ضلّ الطريق ، وكمه ، عمي ، ومته : ضلّ وغوى ، وره : حمق ، وأهّ : توجع وتأوه ، وآه أوهأ : للتوجع والخوف ، والعمه : الحيرة والتردد ، تاه تيهاً ، تكبر ، وفره : بطر وأشر[٣] .

وقد توافقت مجمل هذه الدلالات مع حالات النفس كما وردت في سورة الشمس ، فلو تأملنا الآيات التي صورت النفس لتبين لنا عدد من المشاعر والأحاسيس وطبائع النفس الإنسانية تتفق بمجملها مع الدلالات المعجمية المتقدمة ، وذلك على النحو الآتي :

١. طبائع النفس البشرية (ثنائية الخير والشر) : ممثلة بقوله تعالى : (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾) ، قال أبو حيان : ((ومعنى إلهام الفجور والتقوى إفهامها وإعقالها ، وأنّ أحدهما حسن والآخر قبيح ، وتمكنه من آختيار ماشاء منهما ، بدليل قوله (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا)))[٤] . فالإنسان مخلوق مزدوج الطبيعة ، مزود باستعدادات متساوية للخير والشر ، والهدى والضلال[٥] .

٢. الشعور بالخيبة : ممثلاً بقوله تعالى: (وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا) ، أي : خاب وخسرَ من أضلّ نفسه وأغواها بالكفر والمعاصي ، وأوردها موارد الهلكة ، لأنّ من طاوع

---

(١) ينظر : في الأصوات اللغوية : ٧٨ .
(٢) خصائص الحروف : ١٩٢ .
(٣) ينظر : المرجع نفسه : ٢٠٠ .
(٤) البحر المحيط : ٤٧٥/٨ .
(٥) ينظر : في ظلال القرآن : ٣٩١٧/٦ .

هواه ، وعصى أمر ربه ، فقد خرج من عداد العقلاء ، والتحقق بالجهلة الأغبياء[١].

٣. الشقاء : ممثلاً بقوله تعالى:(إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ﴿١٢﴾) ، والشقي هنا من عقر الناقة ، وعلى الرغم من أنّ الشقاء منسوبٌ إلى فرد واحد ، إلاّ أن ذكر الشقي الذي عقر الناقة ، في سياق الحديث عن النفس الإنسانية ، يُعَدّ إشارة إلى شقاء نفوس الذين عتوا عن أمر ربّهم[٢] .

أمّا الآيات الستة الأولى التي تحدثت عن العناصر الكونية الرئيسة وهي الشمس والقمر ، والنهار والليل ، والسماء والأرض ، فهي تستدعي مزيداً من التأمل والاستغراق فيها ، إذ إنّ شواهد الكون وظواهره تربط بينها وبين روح القلب لغة سريّة ، متعارف عليها في صميم الفطرة واغوار المشاعر ، وبينها وبين روح الإنسان تجاوب ومناجاة بغير نبرة ولاصوت ، ولذلك يكثر في القرآن الكريم توجيه القلب إلى مشاهد الكون بشتى الأساليب كما أنّ (الشمس) حينما تضحى وترتفع تكون في أروق أوقاتها وأصفاها وهذا الوضوح والصفاء واحد من تجليات النفس الإنسانية ، و(القمر) حينما يتلو الشمس يتخلق نوراً لطيفاً شفافاً رائعاً صافياً ، وبين القمر والقلب البشري ودّ قديم موغل في السرائر والأعماق ، وله همسات وإيحاءات للقلب ، وفي غمرة هذه الأجواء ينبعث التأمل من مرقده والتأمل من تجليات النفس ، و(النهار) يجلو البسيطة ويكشفها ، والجلاء والكشف من حالات الإنسانية ، و(الليل) فيه خفاء وظلام كما هو الحال في أعماق النفس وما تنطوي عليه من الشعور واللاشعور ، وفي ذكر بناء (السماء) استنهاض للعقل والتفكير بثباتها وتماسكها ، وما أحوج النفس للثبات والتمسك ، وفي معجزة بناء السماء دعوة للخشوع والتسليم ، وحينما يؤثر سبحانه وتعالى طحو (الأرض) فإنما يُذكر بقدرة الله على طحوها ، وفي هذا التذكير لمسة للقلب البشري للتدبر والذكرى))[٣] .

فهناك –اذن– علاقة لطيفة بين عناصر الكون ومشاعر النفس وطبائعها جسدتها هذه الآيات المباركات أروع تجسيد .

---

(١) ينظر : الجامع لأحكام القرآن : ٣١٤/٢٢ ، وصفوة التفاسير : ٥٦٦/٣ .

(٢) ينظر : تفسير التحرير والتنوير : ٣٧٣/٣٠ .

(٣) ينظر : في ظلال القرآن : ٣٩١٧/٦ .

المبحث الثالث

التكرار الصوتي :

توطئة :

التكرار في اللغة : مأخوذ من (كرَّر) إذا ردَّدَ وأعادَ ، يقال : كرَّرَ الشيء تكريراً ، وتكراراً ، أعاده مرّةً بعد أخرى ، وهو في الكلام : ترداده[١] .

أمّا في الاصطلاح : فهو ((دلالة اللفظ على المعنى مردداً))[٢] ، أو ((الأتيان بشيءٍ مرّة بعد أخرى))[٣] ، وقد ورد التكرار في القرآن الكريم ، وقال عنه السيوطي (ت٩١١هـ) : ((هو أبلغ من التأكيد ، وهو من محاسن الفصاحة))[٤] ، وأشار إلى فوائده والدلالات التي يخرج إليها ، ومنها : التقرير ، وزيادة التنبيه ، ولتطرية السامع ، والتعظيم ، والتهويل ، وغيرها من الأغراض[٥] .

ويُعَدّ التكرار خصيصة أسلوبية ذات أثر وظيفي وتفاعلي في بناء الحدث وترسيم الصورة لما يمنحه من قيمة أدائية وتعبيرية في معاودة الأصوات في الخطاب القرآني ، وعليه فإنّ ((القيم الصوتية لجرس الحروف أو الكلمات عند التكرار لاتفارق القيمة الفكرية والشعوريّة المعبّر عنها))[٦] .

ولمّا كان الخطاب القرآني مدعاةً لترسيخ العقيدة الأسلامية الموحدة ، فإنّ فائدة التكرار إنما هي للتأكيد والتقرير والإقتناع وقد قيل : ((إنّ الكلام إذا تكرر تقرّر))[٧] ، فضلاً عن أنّه واحد من سبل الأعجاز النفسي التي سلكها الخطاب القرآني لأنّه : ((كلّما تشابهت البنية اللغوية فأنّها تمثل بنية نفسية متشابهة منسجمة تهدف إلى تبليغ الرسالة

---

(١) ينظر : لسان العرب : مادة (كرر) ، والقاموس المحيط : مادة (كرّ) .
(٢) المثل السائر ، ابن الأثير : ١٥٧/٢ .
(٣) كتاب التعريفات ، السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني : ٥٢ .
(٤) الاتقان في علوم القرآن ، السيوطي : ٢ / ٦٦ .
(٥) ينظر : المصدر نفسه : ٢ / ٦٦ .
(٦) التكرير بين المثير والتأثير ، عزالدين علي السيد : ٨٤ .
(٧) البرهان في علوم القرآن ، الزركشي : ٤ / ١٠ .

عن طريق التكرار والإعادة))[١] . فضلاً عن ذلك فإنّ التكرار يتحفنا بشيءٍ من التلوين اللفظي والمعنوي الصوتي ، وهذا يؤكد صراحة على الوظيفة النغمية التي تؤديها إعادة الكلمة أو اللفظة أو العبارة ، فهو واحد من أهم الصور التي تحفظ للإيقاع توازنه ، كما أنّه يؤثر في نفس المتلقي بإعطائهِ شحنة تأثيرية ومقدرة على فهم المعنى وتقبل النغم ، ولما كانت القوة التعبيرية للكلمة المنفردة لاتتأتى من معناها وحده بل من طبيعة شكلها الصوتي أيضاً ، فإنّ شكلها الصوتي يأخذ صورة إيقاعية متعددة تنسجم مع إنعكاساتها الدلالية الظاهرة منها والكامنة ، فإيقاع التكرار مرتبط دائماً بالمعنى والمحتوى ، إذ إنّه بشتى أنواعه ، يحدث نوعاً خاصاً من الإيقاع تستلزمه العبارة ، ممّا يمدها قوة من الجرس والإيحاء ، فالإيقاع الصوتي للألفاظ ((بإعتبارها صوراً ذهنية سمعية ، تعدّ من المنبهات الهامة في إثارة الأنفعال المناسب في نفس المتلقي ، وهي بالأضافة إلى دلالتها المعنوية الخاصة بكلّ لفظة ، ذات دلالة إيحائية تشيع في النفس مناخاً تخييلياً خاصاً يتمشى وحركة النفس وذبذبتها الشعورية ، وينسجم مع إيقاعات موسيقاها الداخلية وأنغامها))[٢] .

والتكرار بإيقاعه يمثل صورة جمالية للنص ، ذلك لأنّ ((في كلّ عبارة طبيعية يوجد نوع من التوازن الدقيق الخفي ، فإنّ للعبارة الموزونة كياناً ومركز ثقل ، وهي تخضع لنوع من الهندسة اللفظية الدقيقة))[٣] ، وبذلك يعمل التكرار متلازماً مع التغيير والنظام والتساوي والتوازن والتوازي لإنتاج مايسمّى بالإيقاع الذي هو بطبيعة الحال عنصر من عناصر الجمال المحض[٤] .

ولذا كان التكرار ، بما يحدثه من وظائف وسيلة من وسائل الخطاب القرآني ، والذي يهمنا في هذا المبحث أهمية الإيثار وأثره في التكرار الصوتي .

---

(١) التكرار اللفظي أنواعه ودلالاته قديماً وحديثاً ، صميم كريم الياس ، رسالة ماجستير ، جامعة بغداد – كلية التربية (ابن رشد) ، ١٤٠٩هـ – ١٩٨٨م : ٣٢ .

(٢) دلالة الألفاظ ، إبراهيم أنيس : ٥٧ .

(٣) قضايا الشعر المعاصر ، نازك الملائكة : ٢٤٣ – ٢٤٤ .

(٤) ينظر : الأسس الجمالية في النقد العربي ، عز الدين أسماعيل : ١٢٠ – ١٢١ .

ينقسم التكرار على قسمين : تكرار الألفاظ ، وتكرار المعاني ، والذي يعنينا في دراستنا القسم الأول ؛ لآرتباطه بالجانب الصوتي ، إذ يتعلق بمفهوم الإيقاع ويؤدي أثره في خلق دلالات تجد طريقها إلى ذهن المتلقي بيسر .

وظاهرة التكرار في القرآن الكريم ظاهرة أسلوبية لها خصائصها الفنية ، إذ يظهر فيه الأعجاز واضحاً جليّاً ، لما للتكرار من وظيفة مزدوجة ، فهو يعمل على إغناء الجانبين الصوتي والدلالي للنص ، ولايبرز ذلك بشكلٍ واضح إلاّ من طريق السياقات التي يحتويها ، ولهذا يقوم ((التكرار الصوتي والتوتر الإيقاعي بمهمة الكشف عن القوّة الخفيّة في الكلمة))[١] .

وقبل التفصيل في التكرار الصوتي ، ينبغي القول : إنّ التكرار في الأسلوب القرآني يأتي على مستويات ، فهو يأتي على مستوى الصوت المفرد ، وعلى مستوى الصوتين المؤتلفين ، وعلى مستوى الصوتين المختلفين ، ولكلٍّ منها أثره في التناسق الصوتي للنص القرآني ؛ لتماسه مع الدلالة ، إذ يضفي دلالات بارزة الأثر على السياق ، ممّا يجلي معنى النص ويكشفه للمتلقي ، وبعبارة أخرى : إنّ ((القرآن الكريم قد اعتنى بهندسة الصوت ليوصل مضامينه في تراكيب يشعر السامع بأنّ لها حلاوة ، وأنّ عليها لطلاوة ، لأنّ ذلك التشكيل قد اعطى آي الذكر الحكيم موسيقيّة لايمكنها الأستقلال عن أنساق النحو والدلالة ، ممّا يجعل التغيير الصوتي ليس مخلّاً بموسيقيّة التركيب وحدها ، وإنما بأنظمة البناء جميعها))[٢] .

وعلى هذا فإنّ البناء الصوتي للنص القرآني يمتاز بنظام خاص به لايماثله أيّ نظام ، بل له خصوصيته التي تميّزه عن النصوص الأخرى .

---

(١) الأفكار والأسلوب (دراسة في الفن الروائي ولغته) ، أ. ف تشيتشرين ، ترجمة : الدكتورة حياة شرارة : ٥٠ .

(٢) دلالة الأنساق البنائية في التركيب القرآني ، عامر عبد محسن السعد ، أطروحة دكتوراه ، جامعة البصرة – كلية الآداب ، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م : ٢٩ .

أولاً : تكرار الصوت المفرد :

ويراد به تكرار صوت واحد داخل سياق النص القرآني ، فيضفي عليه جرساً موسيقياً متنوعاً يختلف بأختلاف السياق ، أي : يكون هناك إنسجام بين الصوت المتكرر والمعنى المراد التعبير عنه ، وهو تكرار صوت واحد صامت او مصوت طويل .

ومنه قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ الناس: ١ – ٦ .

فقد جاء تكرار صوت (السين) ، في هذهِ السورة الكريمة ، في نسقٍ ذي ميزة صوتيّة ودلاليّة ، إذ تكرر تسع مرّات في سورة عدد كلماتها لايتجاوز العشرين ، من دون أن يحدث أيّ ثقل على السّمع ، بل على العكس ، فقد انتظم وتتابع في بناءات مقطعيّة متقاربة في المسافة الزمنية ، فكان منتصف السورة بؤرة لصوت السين لتتكاثف عنده الدلالة ، التي لفتت إليها الإنتباه ، بالأستعاذة بالرب والملك والإله ؛ ((إذ كان قصر الزمن الذي نستغرقه في نطق هذهِ المقاطع ، لنقف وقفة مريحة هادئة عند (السين) ، يساوي سرعة مايلقيه الشيطان في صدر الأنسان من وسوسة ليزيّن له إرتكاب المعاصي ، وهذا يفسر لنا التتابع المقطعي لهذا الصوت الذي شكّلَ نسقاً صوتياً شدَّ إنتباه القارىء إلى إيقاعه الذي فاق التراكيب الأُخر))[١] .

أمّا سبب إيثار هذا الصوت (السّين) بصفة خاصة ، وتكررّه على مسافات متقاربة ؛ فلأنّه أدى ((وظيفتهُ الإيحائية كاملة من جرّاء تردّده على مسافات متقاربة ، فتسمع له وسوسة وهمساً كافيين لأن نتعايش مع الحدث الكلامي دلاليّاً وموسيقياً))[٢] ، ولاعجب في ذلك ، فهو صوت رخو مهموس ، لايمكن للإنسان أن ينطق به وهو مفتوح الفم ، بل يتميّز السين عند نطق الكثيرين به باقتراب الأسنان العليا من السفلى ، فلا يكون بينهما إلاّ منفذ ضيّق جداً[٣] ، وبذلك صوّر بجرسهِ الصوتي الهامس حالة الوسوسة ، وهي

---

(١) بنى البديع في القرآن الكريم ، الدكتورة أميرة جاسم العتابي : ٩٨ .

(٢) دلالة الأنساق البنائية في التركيب القرآني : ٤٩ – ٥٠ .

(٣) ينظر : الأصوات اللغوية : ٥٧ .

((الطريقة التي يدخل الشيطان فيها إلى الإنسان باثاً في روعة الاقبال والتشجيع على المنكرات بأسلوب خافت مهموس))[١] .

وقد تآزرت معه عدّة أصوات أعانته على الإستقرار والحريّة في النطق بكلّ صفاتها ، فقد جاءت السين في أكثر مواقعها بعد النون والألف ، وممّا تمتاز به النون ، قوّة وضوحها السّمعي ، فضلاً عن الغنّة التي يراد بها إطالة صوت النون ، ممّا ينتج عنه تردّد موسيقيّ محبّب[٢] . أمّا الألف فهو من أصوات المدّ التي تُعَدّ في اللغة أصواتاً موسيقية منتظمة ، لاحتوائها على ذبذبات منتظمة[٣] .

وبذلك يكون التوقف عند السين عذباً للقارىء وهو يستعيذ بربّ العزة من وسوسة الشيطان ((فبعد أن يمدّ الصّوت في الألف يشعر بخفة في الهمس بالسين فيكون الوقف مناسباً ، وهنا تتجلّى جمالية البناء (غنّة صافية ومدّ منتظم ووقف مهموس) ، ومن ثمّ ينشد السّامع إلى السين اكثر من غيرها ، أنّ تماثلها يساعده في استحضار المعنى ، فيكون للنسق تشكله الأيقاعي وبنيته الدّلاليّة))[٤] ، فضلاً عن بعض الأصوات التي تتقارب معه مخرجاً وصفة ، فهذا صوت (الصّاد) في كلمة (صدور) يشترك معه في كلّ خصائصهِ الصوتية ويزيد عليه بالأطباق ، ويشترك معهما صوت (الفاء) في صفتي الهمس والأحتكاك[٥] .

لقد جاء الإيقاع بهذا الترتيب ، ولايحسن بغيره ؛ لأنّ الدلالة اقتضت هذا الترتيب ، فقد جاءت هذه الصفات (الرّبّ) و(الملك) و(الإله) مضافة إلى لفظة (النّاس) على هذا الترتيب : (ربّ الناس ، ملك الناس ، إله الناس) فخلق هذا الإيقاع أغراضاً دلاليّة ، إذ ((ذُكِرَ (الربّ) أولاً لأنّه أقرب من الإنسان واخصّ ولايّة ، ثم (الملك) لأنّه أبعد منالاً

---

(١) التنغيم اللغوي في القرآن الكريم ، سمير إبراهيم العزاوي : ١٠٢ .
(٢) ينظر : علم اللغة العام (الأصوات) ، كمال محمد بشر : ١٣١ ، والأصوات اللغوية : ٧٠ .
(٣) ينظر : دراسة الصوت اللغوي ، احمد مختار عمر : ١٩ .
(٤) دلالة الأنساق البنائية في التركيب القرآني : ٤٨ .
(٥) ينظر : المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي ، رمضان عبدالتواب : ٦١ ، والمدخل إلى علم أصوات العربية : ١٩٢ .

وأعمّ ولاية ، يقصده مَنْ لا وليَّ له ، يخصّه ويكفيه ، ثم (الأله) لأنّه وليّ يقصده الأنسان عن إخلاصه لا عن طبعه المادي))[١] .

فتكرار صوت (السين) –إذن– كان له هنا خصوصيةّ صوتية ودلاليّة ، فقد منح السياق طاقة إيحائية كبيرة ساهمت في خدمة المعنى .

ثانياً : تكرار الصوتين المؤتلفين :

وهو تكرار صوتين صامتين يتلازمان أو يفترقان ، وقد يتسع إلى أكثر من ذلك[٢] .

ومنه تكرار (الكاف والتّاء) في قولهِ تعالى : ﴿ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ الزمر: ٥٩

فقد تكرّر صوتا (الكاف) و(التاء) في الآية الكريمة بنسق منتظم ، إذ وردا متلازمين ، ثم افترقا ، ثم تلازما ، ثم افترقا ، فولدا إيقاعاً صوتيّاً ينطق بحال هؤلاء المستكبرين في الحياة الدنيا ، ردّاً على ما كانَ منهم يوم الحساب ، من ((التّحسّر على التفريط في الطاعة ، ثم التعلل بفقد الهداية ، ثم تمني الرّجعة))[٣] .

فصوت الكاف الطبقي[٤] ، يوحي بإطباق خيام الكفر والجحود والتكبر على قلب الكافر ، كما أنّه بصفته الإنفجارية ، التي ينغلق فيها مجرى الهواء إنغلاقاً آنيّاً بسبب إلتصاق أقصى اللسان بأقصى الحنك وحبسهِ للهواء الخارج من الرئتين[٥] ، يحاكي معاداة الكافر لدين الله وستره وكتمانه للحق وسدّه منافذ الهداية من أَنْ يتسرب الإيمان إليه .

في حين أنّ صوت (التاء) الهامس الخافت ، المتصف بالإنفتاح[٦] ، ووقوع المصوت القصير (الفتحة القصيرة) بعدها ، زاد من رقعة إنفتاحيتهِ وإتساع مداه ، ليحاكي إتساع الكافر في تماديه على الخالق ، واستمراره في تعنته وتكذيبه للرسل والأنبياء ، كذلك يبدو

---

(١) الميزان في تفسير القرآن ، الطباطبائي : ٢٠ / ٤٥٩ .
(٢) ينظر : الصوت اللغوي في القرآن الكريم ، محمد حسين علي الصغير : ٧ –٢٠ .
(٣) الكشاف ، الزمخشري : ١٣٣/٤ .
(٤) ينظر : المدخل إلى علم أصوات العربية : ٨٦ .
(٥) ينظر : الأصوات اللغوية : ٨١ .
(٦) ينظر : معجم الصوتيات ، د.رشيدعبدالرحمن العبيدي : ٥٦ .

أنّ تكرار صوتي (الكاف) و(التاء) الشديدين ينسجم مع ضيق حال هؤلاء الكفار المستكبرين واضطرابهم والشدّة التي هم فيها يوم الحساب . والله أعلم .

ثالثا : تكرار الصوتين المختلفين :

وهو تكرار صامت ومصوت طويل يتلازمان أو يفترقان[١] ، ومن أمثلة هذا التكرار قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾ القارعة: ٤ – ٥ .

فقد جاء تكرار صوت المد الطويل (الواو) ليحاكي بوضوحهِ السمعي العالي ، والقوة والجهد والمشقة التي يتطلبها نطقه إثر تقلص عضلات الفم وتدوير الشفتين ، وآمتدادهما إلى الأمام[٢] ، حالة التفشي والأنتشار والكثرة والضعف والذلة إذ الخشية من عظمة الله (سبحانه) وأهوال يوم القيامة ، يعضده في ذلك صوتا (الثاء) و(الشين) اللذان حاكيا بجرسهما الصوتي حالة الفزع والذهول والحيرة ، فضلاً عن حالة الأنتشار والتفشي التي يكون عليها الناس إذا خرجوا من قبورهم ، نتيجة الإنقلاب الكوني عند البعث ، فلا يعرفون إلى أين يتوجهون ، فيموج بعضهم يومئذٍ في بعض ، كذلك شبّه تلاشي الجبال على أختلاف ألوانها عند البعث بنشر الصوف ذي الألوان المختلفة ، قال الزمخشري : ((وشبه الجبال بالعهن وهو الصوف المصبغ ألواناً ؛ لأنّها ألوان ، وبالمنفوش منه ؛ لتفرّق أجزائها))[٣] .

وقد اضفت لفظة (منفوش) بجرسها الصوتي قيمة تعبيرية على الحدث ، فصوت (الفاء) فيها صوت مهموس رخو منفتح[٤] ، تحاكي رخاوته وهمسه وبعثرة النفس بشكل واسع في أثناء خروجه ، ذلك الانقلاب والتبعثر ، حيث الضخامة تنهار وتتلاشى ،

---

(١) ينظر : الصوت اللغوي في القرآن الكريم : ٧ –٢٠ .

(٢) ينظر : علم الأصوات العام : ١٣١ .

(٣) الكشاف : ٤ / ٧٨٢ .

(٤) ينظر : الوجيز في فقه اللغة : ١٨٣ .

والعمالقة تصبح هباءً في الفضاء ، وهذهِ الجبال الراسيّة الراسخة الهائلة المهولة تصبح شعيرات تنتشر مع الريح[١] .

وهكذا نجد أنّ تكرار الأصوات لم يكن غاية بذاتهِ ، وإنّما هو وسيلة صوتية تضفي إيقاعاً مميّزاً على النص القرآني ، لتحقيق غاية إيحائية ومعنويّة بالجرس والموسيقى والنغم ، فالقيمة الصوتية لجرس الأصوات في التكرار لاتبتعد عن القيمة المعنوية المعبر عنها .

(١) ينظر : مجمع البيان في تفسير القرآن : ١٠ / ٣٣٠ .

الدلالة الصرفية :

الدلالة أنواع ووجوه منها الدلالة الصرفية التي نعني بها (دلالة الأبنية) ، وهي عبارة عن المعاني المختلفة المتعلقة بجهة الهيئات ، والصيغ الواردة على المفردات(١). ونستطيع أن نسميها بـ((الدلالة الصرفية))(٢). ومعرفة الصيغ مما تكفّل به علم الصرف ففيه تعرف الأبنية ، ويفرّق بين وزن وآخر، ومعرفة تصريف الكلمة وإرجاعها إلى أصلها يعين في بيان المعنى الراجح من الأقوال الواردة فيها(٣). ومن هنا جاءت عناية العرب بصيغ الألفاظ وما تدلّ عليه كلّ صيغة(٤). ونعني بالصيغة هنا ورود الكلمة على حالةٍ معينة من بين الصيغ التي تجدها في تصريف الكلمة(٥)، والتي تكون ضمن قالب صرفي توضع فيه هذهِ المادة اللغوية(٦) .

وهذهِ الصيغة لها أثر في إضفاء الدلالات المختلفة على التعبير فقد تهيمن الصيغة على البناء العام للنص سواء على مستوى الجملة أو النص بأكمله وتحدث التأثير المطلوب(٧) ، وقد أنتجت الكلمة من بين الوحدات الدلالية لتمثل المرتبة الأولى ، لِمَا فيها من مكونات دلالية أولاً ، وارتباطها بالسياق التركيبي ثانياً ، فنحن نعيش عصر الكلمة منطوقة كانت أم مكتوبة(٨) ، ففي اختيار الكلمة الخاصة بالمعنى خلق وإبداع(٩) .

---

(١) ينظر : البرهان في علوم القرآن ، الزركشي : ٢/ ١٩٠ .
(٢) دلالة الألفاظ ، إبراهيم أنيس : ٤٧ .
(٣) ينظر : قواعد التفسير : ٢٣٧/١ .
(٤) ينظر : الصاحبي ، أحمد بن فارس : ٢٢٠-٢٢٥ ، ومعاني الأبنية : ٥ ، والتعبير القرآني : ٢٤
(٥) ينظر : جماليات المفردة القرآنية : ٢٤١ .
(٦) ينظر : أقسام الكلم في الجملة العربية : ٩١ .
(٧) ينظر : مستويات النظم في التركيب القرآني ، عبد الواحد زيارة أسكندر المنصوري ، أطروحة دكتوراه ، مقدمة إلى كلية الآداب ، جامعة البصرة ، ١٩٩٨م : ٤١ .
(٨) ينظر : علم الدلالة ، لاينز : ١٣-١٤ ، وعلم الدلالة ، بالمر : ٤٠ .
(٩) ينظر : دفاع عن البلاغة : ٨٢ .

والدلالة الصرفية – إذن– تدور في دائرة النظام الصرفي ، بوصفه الحدّ الوسط بين النظام الصوتي والنظام التركيبي[١] ، وعليه فإنّه يرفد بنية الخطاب اللغوي بعنصر الديمومة والقدرة على تكوين ضروب مختلفة من الدلالة وأداء المحتوى .

ومن الواضح أنّ اللغة مرتبطة بالمعاني التي يحسُّ بها الإنسان ويدركها ، وهذه المعاني إنما تقع بادئ ذي بدء مفردة ، وبعد أن تستقر في الذهن يطرأ عليها التركيب ، ومن لم يدرك معاني الكلمات المفردة لم يستطع أن يدرك فحوى الكلام ومدلولهِ . كما يعين السياق على معرفة معاني الكلمات المفردة[٢] .

ويُعَدّ السياق الصرفي وهو جزء من السياق اللغوي لتراكيب الآيات والسور الكريمة قوام بنائها وتشكيلها ، وأنّ للقضايا الصرفية دوراً مهماً في إظهار الإعجاز اللغوي لتلك الآيات الكريمة ، ويتجلّى ذلك من خلال الانتقاء الدقيق والتنسيق الأمثل ممّا يميّز النظم القرآني المعجز من غيره .

وقد أشار اللغويون في جملة مباحثهم إلى اختلاف معاني الصيغ في العربية ولاسيما في مباحثهم الخاصة بالكلام على خصائص العربية ، ومنها طاقتها التعبيرية الكامنة في مباني صيغها الصرفية وإمكانية دلالتها على معانٍ متعددة تختلف باختلاف السياق الذي ترد فيه ، فضلاً عن إمكانية تبادلها من سياق إلى آخر على حسب إرادة المتكلّم لمعناه المقصود وغرضه المطلوب ، وعلى هذا الأساس حصل الإيثار بين صيغ المشتقات في العربية ولاسيما في مستوى اللغة الصرفي ، فيما يخصّ تحديداً صيغ المصادر ، واسم الفاعل ، والصفة المشبهة ، واسم المفعول ، وصيغ المبالغة ؛ لإمكانية تبادلها من سياق إلى آخر على وفق التقارب المعنوي فيما بينها ، فضلاً عن التشابه اللفظي بين بعض من صيغها .

---

(١) ينظر : دلالة الألفاظ ، إبراهيم أنيس : ٤٧ ، ومصطلحات الدلالة العربية – دراسة في ضوء علم علم اللغة الحديث ، د.جاسم محمد عبد المعبود : ١٠٩ ، وعلم الصرف الصوتي ، د.عبد القادر عبد الجليل : ١٥٢ .

(٢) ينظر : حقيقة اللغة ومفرداتها (بحث منشور) للدكتور عدنان محمد سلمان ، المجمع العلمي العراقي ،ج(٤) : ٣٢١ .

وقد تأتي البدائل اللغوية منسجمة مع البنية الصرفية التي يقتضيها السياق ، إذ لا ينحصر اختلاف الدلالة في الألفاظ المتقاربة في المعنى ، وإنما يمتدّ إلى اختلاف الصيغ الصرفية ، ومن المألوف أنّ زيادة المبنى تؤدي إلى زيادة المعنى ، إذ ((لايجوز أن يكون فعل وأفعل بمعنى واحد ، كما لا يكونان على بناءٍ واحد ، إلاّ أن يجيء ذلك في لغتين ، فأمّا في لغة واحدة ، فمحال أن يختلف اللفظان والمعنى واحد))[١] ، فالقيمة الدلالية للكلمة تكمن في معناها ، وإنّ أي تغيير في الصيغة هو تغيير في المعنى[٢] .

وفي القرآن الكريم يمكن أن تؤثر صيغة على صيغة أخرى على حسب مايقتضيه السياق .

وسنعرض لهذا الإيثار بين الصيغ الصرفية في مباحث هذا الفصل ، وعلى النحو الأتي :

---

(١) الفروق في اللغة ، أبو هلال العسكري : ١٥ .

(٢) ينظر : علم الدلالة ، جيرو : ١٦ .

المبحث الأول

توطئة :

الإيثار بين الإفراد والتثنية والجمع :

أشار أوائل النحاة إلى هذا النوع من الإيثار بين الصيغ ، إذ قال سيبويه : ((وليس بمستنكر في كلامهم أن يكون اللفظ واحداً ، والمعنى جميع حتى قال بعضهم في الشعر من ذلك ما لايستعمل في الكلام))[١] ، نحو قوله[٢] :

كُلُوا في بَعْضِ بَطنِكُمُ تَعُفُّوا فَإِنَّ زَمَانَكُمْ زَمَنٌ خَمِيْصُ

إذ أضيف اللفظ مفرداً إلى الضمير الدال على المجموع ، فقال (بطنكم) ، وكان القياس أن يقول (بطونكم) .

وقد يرد اللفظ مفرداً ويُرَاد به الجمع ، لأنَّ ((من سنن العرب ذِكْرُ الواحد والمراد الجميع))[٣] . والأسم المفرد هو ((ما دلَّ على واحدٍ او واحدة))[٤] . ولعلَّ أهم دلالة تحققها صيغة الإفراد هي الوحدة والقوّة بناءً على أنّ الواحد لايخالط بعضه[٥] .

أمّا التثنية ، فهي ((صيغة مبنيّة للدلالة على الاثنين))[٦] . أو هي ((ضَمُّ مفردٍ إلى مثلِهِ في اللفظ ، غيرِهِ في المعنى))[٧] .

وأمّا الجمع ، فهو ((صيغة مبنيّة من الواحد للدلالة على العدد الزائد على الاثنين))[٨] . ويكون على ضربين : جمع سالم ، وجمع تكسير[٩] .

---

(١) الكتاب : ٢٠٩/١ .
(٢) ورد هذا البيت غير منسوب إلى قائل في : الكتاب :١٠٨/١ ، والمقتضب : ١٧٢/٢ .
(٣) الصاحبي في فقه اللغة : ٢١١ .
(٤) الصرف والنظام اللغوي : ٩٦ .
(٥) ينظر : المحتسب : ٣٦١/٢ .
(٦) أسرار العربية : ٢١ .
(٧) شرح الرضي على الكافية : ١٥/١ .
(٨) تاج العروس : ٣٠٤/٥ .
(٩) ينظر : الكتاب : ٤٩٠/٣ ، واللمع في العربية : ٢٠/١ ، والعدد في العربية : ٢٣/١ .

وقد يؤثر القرآن صيغة على أخرى ، وللسياق القرآني أثره الواضح في توجيه تلك الدلالة . فإذا ما وقع اللفظ بصيغة الإفراد مع دلالته على الجميع ، فقد يدل على هذا المعنى ، وكأنّ الجميع صاروا واحداً في معتقدهم وقوتهم(١) .

ومثل هذا الإيثار عندما يأتي في القرآن الكريم فإنّه يكون على وفق المعنى ، إذ لايأتي لفظ في القرآن مكان لفظ مراعاةً للشكل فقط ، من دون مراعاة المعنى أو المضمون . وهو ماسيظهر لنا – في هذا المبحث – من خلال الآيات التي ورد فيها هذا النوع من الإيثار الدلالي .

أولاً : الإفراد :

أ. إيثار الخطاب بصيغة المثنى على الخطاب بصيغة المفرد :

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ ق : ٢٣ – ٢٤ .

جاء قوله تعالى (أَلۡقِيَا) بلفظ المثنى ، وذكر المفسرون فيه أَنّ الخطاب للمفرد لكنه كرّر الفعل تأكيداً . فكأنَّه قال : ألقِ ألقِ . وقيل : إنّ الخطاب لخزنة النار والزبانية . فهو على هذا الأمر إنتقال من المثنى إلى الجمع . وقيل : هو على بابِه في التثنية ؛ إذ المقصود خطاب المَلَكين السابقين في قوله تعالى : ﴿ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ﴾ ق : ٢١ ، وقيل : بل هو خطاب للواحد نُزِّل منزلة الاثنين وهو عادة العرب في ذلك لأنّهم يخاطبون المفرد بالمثنى كما يقولون : ياصاحبيَّ وخليليَّ ، وهو واحد ، وسنعرض لهذه الأقوال وغيرها فيما سيأتي بيانه :

قال الطبري : ((فأخرج الأمر للقرين وهو بلفظ واحد مخرج خطاب الاثنين ، وفي ذلك وجهان من التأويل : أحدهما : أن يكون القرين بمعنى الاثنين كالرسول والاسمُ الذي يكون بلفظ الواحد في الواحد والتثنية والجمع فردَّ قوله (أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ) إلى المعنى . والثاني : أن تكون كما كان بعض أهل العربية يقول : إنّ العرب تأمر الواحد والجماعة بما تأمر به الاثنين ، فتقول للرجل : ويلك أرحلاها وأزجراها ، وذكر أنّه سمعها من العرب ، قال وأنشدني بعضهم :

فقلت لصاحبيَّ لاتَحْبِسانا بنزعِ أُصولهِ وآجتزّ شَيْحَاً

---

(١) ينظر : المحتسب : ٣٦١/٢ .

وقال : وأنشدني أبو ثروان :

فإنْ تَزْجُرِاني يابنَ عَفّانَ أنزجِر وإنْ تَدَعَاني إهِمُّ عِرْضًا مُمَنّعا

قال : فيروي أنّ ذلك منهم أنّ الرجل أدنى أعوانهِ في إبلهِ وغنمهِ اثنان ، وكذلك الرفقة أدنى ما تكون ثلاثة فجرى كلام الواحد على صاحبيهِ ...))[١] .

وذهب الزمخشري إلى أنّ الخطاب للملكين السابقين : السائق والشهيد ، إذ قال : (((أَلْقِيَا) خطاب من الله تعالى للملكين السابقين السائق والشهيد ، ويجوز أن يكون خطاباً للواحد على وجهين : أحدهما : قول المبرِّد : إنَّ تثنية الفاعل نزلت منزلة تثنية الفعل لاتحادهما كأنّه قيل : ألقِ ألقِ للتأكيد . والثاني : إنّ العرب أكثر مايرافق الرجل منهم اثنان فكثر على ألسنتهم أن يقولوا : خليليّ وصاحبيَّ وقِفا وآسعدا ، حتى خاطبوا الواحد خطاب الاثنين))[٢] .

أمّا الرازي فقد اختصرَ مافصّله الزمخشري وذكر أَنّ الأمر كانَ مُوَجَّهاً إمّا للسائق أو الشهيد ، فيكون أمراً لواحدٍ منهما[٣] .

ورَجَحّ ابن كثير أن الخطاب للملكين ، إذ قال : ((والظاهر أنّها مخاطبة مع السائق والشهيد ، ، فالسائق أحضره إلى عرصة الحساب ، فلّما أدّى الشهيد عليه أمرهما الله تعالى بإلقائهِ في نار جهنّمَ وبئس المصير))[٤] .

وذهبَ الزركشي إلى أنّ الآية خطاب للواحد والمراد به مالك خازن النار[٥] .

---

(١) جامع البيان : ١٦٥/٢ ، وينظر : مشكل إعراب القرآن : ٦٨٤/٢ ، وزاد المسير : ١٠٩/٨ ، ومعالم التنزيل : ٢٢٣/٤ .

(٢) الكشاف : ٧/٤ .

(٣) ينظر : مفاتيح الغيب : ١٣٥/٢٨ .

(٤) تفسير ابن كثير : ٢٢٧/٤ .

(٥) ينظر : البرهان : ٢٣٩/٢ و ٣/٤ .

ب. إيثار الخطاب بصيغة الجمع على الخطاب بصيغة المفرد :

١. ومن قولهِ تعالى :﴿ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ النساء: ١٣.

فقد جاء قوله تعالى (خَٰلِدِينَ) بلفظ الجمع ، وهو مخالف لما سبقه من الإفراد في قولهِ تعالى (يُطِعِ... يُدۡخِلۡهُ) .

قال الرازي : ((ههنا سؤال ، وهو أن قوله (يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ) إنّما يليق بالواحد ، ثم قوله بعد ذلك (خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ) إنّما يليق بالجمع فكيف التوفيق بينهما ؟ الجواب : إنّ كلمة (مَنْ) في قوله (وَمَن يُطِعِ) مفرد في اللفظ جمع في المعنى فلهذا صَحَّ الوجهان))[١].

وإليه ذهب القرطبي أيضاً ، إذ قال : ((وقال تعالى : وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ) فحملٌ على اللفظ ، ثم قال (خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ) فحملٌ على المعنى ولو راعى اللفظ لقال : خالداً فيها ، وإذا جرى مابعد (مَنْ) على اللفظ فجائز أن يخالف به بعدُ على المعنى كما في هذه الآية ، وإذا جَرَى مابعدها على المعنى لم يجز أن يخالف به بعد على اللفظ ؛ لأنّ الإلباس يدخلُ في الكلام))[٢] .

ويرى البقاعي أنّ جمع الفائزين بدخول الجنّة في قوله (خَٰلِدِينَ فِيهَا) إنّما هو تبشيرٌ بكثرة الواقف عند هذه الحدود ، ولأنَّ منادمة الأخوان من أعلى نعيم الجنان[٣] وَهذا أيضاً من باب الحمل على المعنى ، وإن كان لم يصرّح بهِ البقاعي .

---

(١) مفاتيح الغيب : ٥٢٥/٩ ، وينظر : الكشاف : ٥١١/١ ، ومدارك التنزيل : ٢١٠/١ ، وأنوار التنزيل : ١٥٨/٢ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن : ٤٣٥/١ ، وينظر : البحر المحيط : ٣٥٢/٣ .

(٣) ينظر : نظم الدرر : ٢١٤/٥ .

٢. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ هود: ١٣ – ١٤.

جاء الضمير في قوله (لَكُمْ) بلفظ الجمع ، وكانَ السياق المتوقع أنْ يقال : لك ، ليتوافق مع ماقبله من قولهِ (قُلْ) إلاّ أنّه عدل عن المفرد إلى الجمع لنكتة تنوعت وجوهها ، ذكرها المفسرون على النحو الآتي :

قال الطبرسي : (((فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ) قيل : إنّه خطابٌ للمسلمين ، والمراد فإن لم يجبكم هؤلاء الكفار إلى الإتيان بعشر سور مثله ، معارضة لهذا القرآن (فاعلموا) أيُّها المسلمون (أنّما أُنزل) القرآن (بعلم الله) ، عن مجاهد ، وآختاره الجبائي . وقيل : هو خطاب للكفار ، وتقديره : فإن لم يستجب لكم مَنْ تدعونهم إلى المعاونة ولم يتهيأ لكم المعارضة ، فقد قامت عليكم الحجّة . وقيل : إنّ الخطاب للرسول (ﷺ) أي : فإن لم يجيبوك ، وذكره بلفظ الجمع تفخيماً ، والغرض من التنبيه على إعجاز القرآن ، وأنّه المنزل من عند الله سبحانه على نبيه (ﷺ)))[١] .

وذهبَ الطبري إلى أنّ الخطاب إنما هو للنبي (ﷺ)[٢] .، وخرّجه ابن الجوزي على أنّه خطاب للنبي مع أصحابهِ[٣] .

وذكر الزمخشري فيه أوجهاً ، مبتدئاً بالسؤال ، إذ قال : ((فإنْ قلت : ماوجه جمع الخطاب بعد إفرادهِ وهو قوله : (لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟) بعد قوله (قُلْ) ؟ . قلت : معناه : فإنْ لم يستجيبوا لك وللمؤمنين ، لأنَّ رسول الله (ﷺ) والمؤمنين كانوا يتحدونهم . وقد قال في موضع آخر : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ ﴾ القصص: ٥٠ .

ويجوز أَنْ يكون الجمع لتعظيم رسول الله (ﷺ) ... ووجه آخر : وهو أن يكون الخطاب للمشركين ، والضمير في (لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟) لمن ٱسْتَطَعْتُم ، يعني : فإن لم

---

(١) مجمع البيان : ٢٥١/٥ .

(٢) ينظر : جامع البيان : ١٠/١٢ ، وتفسير مجاهد : ٣٠١/١ .

(٣) ينظر : زاد المسير : ٨٢/٤ .

يستجب لكم مَنْ تدعونه من دون الله إلى المظاهرة على معارضته لعلمهم بالعجز عنه وإنّ طاقتهم أقصر من أن تبلغه (فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ) أي أنزل ملتبساً بما لايعلمه إلاّ الله وحده وأنّ توحيده واجب والإشراك به ظلم عظيم))[١] .

وهذا ما أشار إليه البيضاوي[٢] ، وأبو السعود[٣] ، والشوكاني[٤] –أيضاً– .

ويبدو – والله أعلم – أن جمع الضمير جاء لتعظيم الرسول (ﷺ) .

٣. في قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ المؤمنون: ٩٩ - ١٠٠ .

قال تعالى (ٱرْجِعُونِ) بلفظ الجمع والمتكلّم واحد والمخاطب واحد ، وإنّما وردت بصيغة الجمع للتعظيم على سنن العرب في مخاطبة الواحد بلفظ الجمع ، وقيل : الخطاب في (رَبِّ) للهِ تعالى ، وفي (ٱرْجِعُونِ) للملائكة الذين يقبضون أرواحهم ، فيكون خطاباً للجمع ، ولكن يبقى السياق هو الحكم في ذلك .

وفيما يأتي بيانٌ لِمَا قاله العلماء في هذهِ الآية الكريمة :

١. ذهبَ النحاس إلى أن الخطاب لله تعالى في الموضعين ، على مخاطبة الواحد بلفظ الجمع ، إذ قال : (((قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ) ولم يقل ارجعنِ . فخاطبَ على ما يخبر الله جلَّ وعزّ بهِ عن نفسهِ ، كما قال﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾[٥]وفيه معنى التوكيد والتكرير))[٦] .

وذهب القيسي إلى مثل هذا أيضاً[٧] .

---

(١) الكشاف : ٢٦١/٢ ، وينظر : البحر المحيط : ١١٥/٦ .

(٢) ينظر : أنوار التنزيل : ٢٢٥/٣ .

(٣) ينظر : إرشاد العقل السليم : ١٩٢/٢ .

(٤) ينظر : فتح القدير : ٤٨٦/٢ .

(٥) يس / ١٢ .

(٦) معاني القرآن : ٤/ ٤٨٤ .

(٧) ينظر : مشكل إعراب القرآن : ٥٠٥/٢ .

ب- أمّا الطبري فقد وجّه الآية على أنّ الخطاب فيها للملائكة ، قال : ((وقيل (رَبِّ ٱرۡجِعُونِ) فابتدأ الكلام بخطاب الله تعالى ، ثُمَّ قيل (ٱرۡجِعُونِ) فصار إلى خطاب الجماعة ، والله ذكره واحد ، وإنما فعل ذلك كذلك لأنّ مسألة القوم الرّد إلى الدنيا إنّما كانت منهم للملائكة الذين يقبضون روحهم ، كما ذكر آبن جريح أنّ النبي (ﷺ) قاله ، وإنّما ابتدئ الكلام بخطاب الله جَلَّ ثناؤه ؛ لأنّهم استغاثوا به ثم رجعوا إلى مسألة الملائكة الرجوع والرد إلى الدنيا))[١] .

ج – أشار البغوي إلى أنّ الجمع في (ٱرۡجِعُونِ) جاء على عادة العرب في مخاطبة الواحد بلفظ الجمع للتعظيم ، وقيل : هذا الخطاب مع الملائكة الذين يقبضون الأرواح ، فكان الخطاب ابتداءً لله تعالى لأنّهم استغاثوا به أولاً ، ثم رجعوا إلى مسألة الملائكة الرجوع للدنيا[٢] . وهذا ما عَرَض له الرازي[٣] ، والزركشي[٤] ، ولم يزد ابو السعود[٥] ، والآلوسي[٦] ، والشوكاني[٧] ، وغيرهم[٨] ، شيئاً على ماتقدّم ذكره .

ويبدو من الأولى – والله أعلم – حمل الآية على أن يكون الخطاب لله تعالى وحده ، وقد جاء بصيغة الجمع بدلاً من المفرد لتعظيمهِ تعالى ؛ ذلك أنّ السياق الذي تقدّم هذه الآية فيه تعظيم لله تعالى ، ودلالة على قدرته العظيمة ، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٧٨ وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٧٩ وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ المؤمنون: ٧٨ – ٨٠ ، وقال

---

(١) جامع البيان : ٥١/١٨ .
(٢) ينظر : معالم التنزيل : ٤١٧/٣ ، والوجيز : ٧٥٣/٢ ، والكشاف : ٤٢/٣ ، والجامع لأحكام القرآن : ١٤٩/١٢ .
(٣) ينظر : مفاتيح الغيب : ٢٩٢/٢٣ ، والبحر المحيط : ٥٧٧/٧ ، وأنوار التنزيل : ١٦٧/٤ .
(٤) ينظر : البرهان : ٢٣٥/٢ ، والاتقان : ٩٠/٢ و ١٠٥/٢ .
(٥) ينظر إرشاد العقل السليم : ١٥٠/٦ .
(٦) ينظر : روح المعاني : ١٨ / ٦٣ .
(٧) ينظر : فتح القدير : ٤٩٨/٣ .
(٨) ينظر : مدارك التنزيل : ١٣٠/٣ ، والجواهر الحسان : ١٠٥/٣ .

تعالى –أيضاً– يقررهم بقدرتهِ وعظمتهِ ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴾ المؤمنون: ٨٤ – ٨٩ . فسياق الآيات كلّه دالٌ على التعظيم لله (ﷻ) ، في الوقت الذي خلا السياق من ذكر الملائكة الذين يقبضون الأرواح ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ ﴾ المؤمنون: ٩٨ ، إنّما قصد بهم الشياطين الذين تقَدّم ذكرهم قبلُ ، وعليه فإنّ حمل الآيةِ على مخاطبة الفرد بلفظ الجمع للتعظيم أولى من حملها على أن يكون الخطاب للملائكة . – والله أعلم –

ثانياً : التثنية :

أ. إيثار الخطاب بصيغة المفرد على الخطاب بصيغة المثنى :

ومن أمثلته :

١. قوله تعالى : ﴿ قَالَ كَلَّا ۖ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ الشعراء: ١٥ – ١٧.

فقد قال (إِنَّا رَسُولُ) بلفظ المفرد وكان السياق المتوقع أن يُقَال : إنّا رسولا . بالمثنى ؛ ليتوافق مع ماسبقه من التثنية في (فَاذْهَبَا .... فَأْتِيَا .... فَقُولَا) لكنه آثر إيرادها مفردةً بدلاً من المثنى – على ماذكره المفسرون – لأنّ (الرسول) لفظ مصدر كالرسالة وجاء هكذا للمبالغة ، وقيل : إنّه آكتفى بأحدهما لأنهما على أمر واحد ، وقيل : إنّ موسى (عليه السلام) كان الأصل وهارون تبعاً له ، وقيل : أراد بالرسالة : إنّا ذو رسالة أو ذوا رسالة ، على ماسيأتي تفصيله :

قال الطبرسي : ((لم يقل رسولا ربّ العالمين ؛ لأنّ الرسول قد يكون في معنى الجمع . قال الهذلي :

أَلِكْنِي إِلَيْهِا ، وخيرُ الرسو لِ أَعْلَمُهُم بنواحِي الخبر

أي : غير الرسل . وقيل : إنّ الرسول بمعنى الرسالة ، كما في قوله :

لَقَدْ كَذَبَ الواشونَ مَابُحْتُ عِنْدَهُم بِسرٍّ ، ولا أَرْسَلْتُهُم برسولِ

أي : برسالة . وقال العباس بن مرداس :

أَلاَ مَنْ مبلغٌ عنّي خفافًا رسولاً بَيْتُ أهلك مُنْتَهَاهَا

فأنّثّ الرسول تأنيث الرسالة . وقد يقع المصدر موقع الصفة ،كما تقع الصفة موقع المصدر ، فيكون مجازه : إنّا ذوا رسالة ربّ العالمين))[١] .

وذهبَ الطبري إلى أنّ المراد به المصدر من : أرسلتُ رسالةً ورسولاً[٢].

---

(١) مجمع البيان : ٣٢٤/٧ .

(٢) ينظر : جامع البيان : ٦٥/١٩ ، ومعالم التنزيل : ٣٨٢/٣ .

وأجاز الزمخشري وجهاً آخر بعد أن وافق الطبري فيما ذهب إليه إذ قال : ((فإن قلت : هلاّ ثنى في قوله ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ؟ قلت : الرسول بمعنى المرسَل وبمعنى الرسالة . فجعل ثَمَّ بمعنى المرسل فلم يكن بُدّ من تثنية . وجعل ههنا بمعنى الرسالة فجاز التسوية فيه إذا وصف بين الواحد والتثنية والجمع كما يفعل بالصفة في المصادر نحو : صوم وزور ... ويجوز أن يوحد لأنَّ حكمهما لتساندهما واتفاقهما على شريعة واحدة واتحادهما لذلك وللأخوة كانَ حكماً واحداً فكأنهما رسول واحد . أو أريد أنّ كلّ واحد منا))[١] .

أمّا الرازي فقد ذكر أوجهاً في الآية لم يخلُ الأول منها من المنطق والفلسفة فهو يرى أنّ الرسولَ أسمٌ للماهية من غير بيان أنّ تلك الماهية واحدة أو كثيرة . والألف واللام لايفيدان إلاّ الوحدة لا الاستغراق بدليل أنك تقول : الأنسان هو الضحاك ، ولاتقول : كل إنسان هو الضحاك ، ولا : هذا الأنسان هو الضحاك . وإذا ثبت أنّ لفظ الرسول لايفيد إلاّ الماهية ، وثبت أنّ الماهية محمولة على الواحد وعلى الاثنين ثبت صحة قوله (إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ) .

وذكر في الوجه الثاني ، أنّ الرسول قد يكون بمعنى الرسالة . والثالث : إنهما لاتفاقهما على شريعة واحدة واتحادهما بسبب الأخوة فصارا كأنهما رسول واحد ، والرابع : أَنّ المراد كل واحد منهما رسول ، والوجه الخامس : إنّه قال ذلك لابلفظ التثنية لكونهِ هو الرسول خاصة ، وقوله (إِنَّا) مثل قوله تعالى ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا ﴾ يوسف: ٢ ، وجعل هذا الوجه أضعف الوجوه[٢] .

وذكر العكبري ثلاثة أوجه في هذهِ الآية ، إذ قال : ((في إفراده اوجه ، **أحدها** : هو مصدر كالرسالة أي : ذوا رسول وإنا رسالة على المبالغة ، **والثاني** : إنّه اكتفى بأحدهما إذا كانا على أمرٍ واحد ، **والثالث** : إنّ موسى (عليه السلام) كانَ هو الأصل وهارون تبع ، فذكر الأصل))[٣] .

---

(١) الكشاف : ١٠٧/٣ .

(٢) ينظر : مفاتيح الغيب : ٤٩٥/٢٤ .

(٣) التبيان في إعراب القرآن : ١٦٧/٢ .

وقد وجّه الكرماني التثنية توجيهاً مقبولاً ، إذ قال : ((لأنّ الرسول مصدر يسمى به ، فحيث وحّده حمله على المصدر وحيث ثُنّيَ حُمِلَ على الاسم ، ويجوز أنْ يقال : حيثُ وُحّدِ حُمِلَ على الرسالة لأنهما رُسُلاً لشيءٍ واحد ، وحيث ثُنّيَ حمل على الشخصين))[١].

ولم يزد بقيّة علماء التفسير[٢] ، شيئاً على ما سبق ذكره . والذي يبدو أنّ السياق القرآني في الآية الكريمة أشارَ إلى أنّ الخوف من فرعون صدرَ من موسى وحده ، فناسب ذلك إفراد كلمة الرسول تهدئةً لروعهِ[٣] . ثُمّ أنّ في الآية إخباراً عند نداء موسى لربّه قبل أن يرسل هارون نبيّاً معه ، فناسب الإفراد بالرسالة ؛ لأنّه هو المعني بها وهو المبلّغ الأول لها ، والله أعلم .

٢. قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ طه: ١١٦ – ١١٧.

(فَتَشْقَىٰٓ) جاءت بلفظ المفرد مع أنَّ الخطاب كان بلفظ التثنية في (فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا) ، والسبب في أنّه آثر مجيئها بلفظ المفرد بدلاً من المثنى –كما قيل– أنَّ الرجل إذا شقي فقد شقيت أسرته كما أنّه إذا سُعِدَ سُعِدَت أسرته كذلك ، وقيل : لأنّه أريد بالشقاء التعب في طلب القوت فذاك مقصور على الرجل من دون المرأة ، وهناك من قال : إنّه مراعاة للفاصلة القرآنية ، وغير ذلك ممّا سيأتي بيانه .

فقد ذهب الطبري إلى أنّ الحكم إذا صدر على أحدهما فهو شامل لهما جميعاً ، وإن ذكر بلفظ الإفراد ولم يُذْكَر بلفظ التثنية (فتشقيا) ، لأنّ ابتداء الخطاب من الله كانَ لآدم (عليه السلام) في إعلامه العقوبة على معصيته إيّاه فيما نهاهُ عنه من أكل الشجرة فكان في ذلك كفاية من ذكر المرأة إذ كان معلوماً أنّ الحكم الواقع عليها داخلٌ في حكمه[٤] .

---

(١) أسرار التكرار في القرآن : ١٤٠/١ .

(٢) ينظر : البحر المحيط : ١٣٩/٨ ، وأنوار التنزيل : ٢٣٣/٤ ، والبرهان في علوم القرآن : ٢٤١/٢ ، وإرشاد العقل السليم : ٢٣٧/٦ ، وفتح القدير : ٩٥/٤-٩٦ .

(٣) ينظر : أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية : ١٢٠ .

(٤) ينظر : جامع البيان : ٢٢٢/١٦ .

وعلل الزمخشري وجه الإفراد في هذه الآية بأنّ شقاء الرجل إذا حصلَ تضمَّنَ شقاء المرأة معه ، فهو القيّم على أهلهِ ، كما أنّ سعادتهم تقع ضمن سعادتهِ ، فكان آختصار الكلام بإسناده إلى آدم (عليه السلام) وحده مراعاةً للفاصلة[١] . وهذا ما ذهب إليه العكبري أيضاً ، إذ قال : ((أفردَ بعدَ التثنية لتتوافق رؤوس الآي ، مع أنّ المعنى صحيح ؛ لأنّ آدم (عليه السلام) هو المكتسب وكان أكثر بكاءً على الخطيئة منها))[٢] .

وذكر القرطبي ثلاثة أوجه لاقتصار الشقاء على آدم وحده ، قال :

((أنت وزوجك لأنهما في استواء العِلَّة واحد ، ولم يقل : فتشقيا ، لأنّ المعنى معروف وآدم ((عليه السلام) هو المخاطب وهو المقصود ، وأيضاً لمّا كان الكاد عليها والكاسب لها كانَ بالشقاء أخصّ ، وقيل : الإخراج واقع عليهما والشقاوة على آدم وحده وهو شقاوة البدن ، ألا ترى أنّه عقّبه بقوله : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴾ [٣] أي : في الجنّة ﴿ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ [٤] ، فأعلمه أنّ له في الجنّة هذا كلّه ، الكسوة والطعام والشراب والمسكن ، وأنّكَ إن ضيّعتَ الوصيّة وأطعتَ العدوَّ أخرجكما من الجنّة ، فشقيت تعباً ونصباً ، أي : جعت وعريت وظمئت وأصابتك الشمس ، لأنّكَ ترد الأرض إذا أُخْرِجْتَ من الجنّة ، وإنّما خصّهُ بذكر الشقاء ولم يقل : فتشقيان ، يعلمنا أنّ نفقة الزوجة على الزوج ، فمن يومئذٍ جرت نفقة النساء على الأزواج))[٥] .

ويبدو – والله أعلم – أنّ الآية حوت جميع الأوجه التي ذكرها المفسرون في آقتصار الأمر على آدم وحده ، إذ أسند ترتب الشقاء إلى أدم (عليه السلام) خاصة من دون زوجه إيجازاً ؛ لأنّ في شقاء أحد الزوجين شقاء الآخر لتلازمهما في الكون مع الإيماء إلى أنّ شقاء الذكر أصل شقاء المرأة مع مافي ذلك من رعاية الفاصلة .

---

(١) ينظر : الكشاف : ٥٥٥/٢ .
(٢) التبيان في إعراب القرآن : ١٢٨/٢ .
(٣) طه / ١١٨ .
(٤) طه / ١١٩ .
(٥) الجامع لأحكام القرآن : ٢٥٣/١١ .

ب. إيثار الخطاب بصيغة الجمع على الخطاب بصيغة المثنى :

وهذا الموضوع قريب في علتهِ وفائدتهِ من الموضوع السابق (الإيثارين بين المفرد والجمع) من حيث إنّ المخاطب يكون له اتباع أو يكون القول مؤيداً من آخرين فيكون الخطاب بلفظ الجمع بدلاً من المثنى للعِلّة نفسها . أو يكون الحكم عاماً للجميع فيخاطب به المثنى ثم يَعمُّ مَنْ كان تحت إمرتهما أو حكمهما .

ومن أمثلة ذلك :

١. قوله تعالى : ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴾ الحج: ١٩.

جاءَ الفعل (ٱخْتَصَمُوا۟) بلفظ الجمع ، وكانَ السياق يستدعي أن يقال : اختصما ؛ لأنّهما مثنى ، واختلف المفسرون في المراد بهذين الخصمين على النحو الآتي :

ا. ذهب الطبري إلى أنّ المراد بالخصمين أحد الفريقين : أهل الإيمان ، والفريق الآخر عبدة الأوثان من مشركي قريش الذين بارزوا يوم بدر . أَوْ هُما الخصمان اللذان ذكرهما الله في هذهِ الآية الجنة والنار[١] .

ب. ورأى البغوي أنّ الخصم اسمٌ شبيه بالمصدر ، لذا جاءَ بلفظ الجمع ، قال : ((هذان خصمان اختصموا في ربهم ، أي : جادلوا في دينهِ وأمره ، والخصم اسم شبيه بالمصدر ، فلذلك قال اختصموا بلفظ الجمع))[٢] .

ج. وذهب الزمخشري إلى أنّ الجمع جاء حملاً على المعنى ، والتثنية جاءت حملاً على اللفظ ، فـ ((الخصم صفة وصف بها الفوج أو الفريق ، فكأنّه قيل : هذان فوجان أو فريقان مختصمان ، وقوله (هذان) للفظ ، و(اختصموا) للمعنى))[٣] . وإلى مثل هذا أشار الرازي[٤] ، وأبو حيان[٥] .

---

(١) ينظر : جامع البيان : ١٣١/١٧-١٣٣ .

(٢) معالم التنزيل : ٢٧٩/٣ .

(٣) الكشاف : ٩/٣ ، وينظر : تفسير ابن كثير : ٢١٣/٣ .

(٤) ينظر : مفاتيح الغيب : ٢١٤/٢٣ .

(٥) ينظر : البحر المحيط : ٤٨٢/٧ .

د. ويرى أبو السعود أنّ الخصام المذكور في الآية قد لايكون حقيقياً بل هو في التحاور فيكون من المجاز ، ((وإنّما قيل : اختصموا في ربّهم حملاً على المعنى أي اختصموا في شأنه (ﷻ) وقيل : دينهِ ، وقيل : في ذاتهِ وصفاتهِ ، والكلّ من شؤونه تعالى ، فإنّ آعتقاد كلّ من الفريقين بحقيقة ماهو عليه وبطلان ما عليه صاحبه وبناء أقواله وأفعاله عليه ، خصومة للفريق الآخر ، وإنْ لم يجر بينهما التحاور والخصام ، وقيل : تخاصمت اليهود والمؤمنون فقالت اليهود نحن أحقّ بالله وأقدم منكم كتاباً ، ونبينا قبل نبيكم ، وقال المؤمنون نحن أحق بالله منكم ، آمنا بمحمد وبنبيكم وبما أنزل الله من كتاب ، وأنتم تعرفون كتابنا ونبينا ثم كفرتم به حَسَداً ، فنزلت ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ [١] تفصيلٌ لِمَا أجمل في قوله تعالى ﴿ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾[٢]))[٣] .

والراجح من بين هذه الأقوال – والله أعلم – ماذهبَ اليه الطبري من أنّ الخصمين : جميع الكفار من أي أصناف الكفر كانوا ، وجميع المؤمنين ؛ وذلك لأنّ السياق الذي جاءت ضمنه الآية يَدلُّ على صحته وصوابه من جهة ، ومن جهة أخرى أنّه لاينافي أو يتعارض مع ماتقدّم من الآراء والأقوال ، لأنَّ العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب ، وإنّ الآية قد تنزل بسبب من الأسباب ثُمَّ تكون عامة في كُلّ ماكانَ نظير ذلك السبب .

٢. قال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ١٠ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴾ فصلت: ١٠ – ١١ .

فقد وردت (طَآئِعِينَ) بلفظ الجمع ، بدل التثنية ، وهو المتوقع لأنّه في سياق خطاب المثنى السماء والأرض ، ولورود الكلام بهذهِ الصيغة في (قَالَتَآ) فكان السياق المتوقع أن تكون : أتينا طائعينِ . بصيغة المثنى أيضاً . كذلك يلاحظ أنّ الجمع جاء على صيغة جمع المذكر السالم ، ولم يأتِ بصيغة جمع المؤنث فلم يقل : طائعات .

---

(١) الحج / ١٩ .

(٢) الحج / ١٧ .

(٣) إرشاد العقل السليم : ٦ /١٠١ . وينظر روح المعاني : ١٣٣/١٧ .

واختلفت آراءُ المفسرين في تغير الأسلوب وتحوّله من المثنى إلى الجمع ومن جمع المؤنث إلى جمع المذكر .

قال الطبري : ((يقول جلّ ثناؤه : فقال الله للسماء والأرض جيئا بما خلقتُ فيكما . أمّا انتِ ياسماء فأطلعي ماخلقت فيك من الشمس والقمر والنجوم ، وأمّا أنتِ ياأرض فاخرجي ماخلقت فيك من الأشجار والثمار والنبات وتشققي عن الأنهار . قالتا أتينا طائعين . جئنا بما أحدثت فينا من خلقك مستجيبين لأمرك لانعصي أمرك ... وقيل : أتينا طائعين ولم يقل طائعتين . والسماء والأرض مؤنثتان ، لأنّ النون والألف اللتين هما كناية أسمائهما في قوله (أَتَيْنَا) نظيرة كناية اسماء المخبرين من الرجال : وقد كان بعض أهل العربية يقول : ذهب بهِ إلى السموات والأرض ومَن فيهن ، وقال آخرون منهم : قيل ذلك كذلك لأنهما لمّا تكلمتا اشبهتا الذكور من بني آدم))[١] .

وذهبَ النحاس إلى أنّه لمّا أخبر الله عنها بأفعال مايعقل من الخطاب والكلام أجريت في ذلك منزلة العاقل[٢] . وعرض الزمخشري السؤال بشقيه إذ قال : ((فإن قلت : هلاّ قيل : طائعين على اللفظ ؟ أو طائعات على المعنى لأنّهما سموات وأرضون ؟ قلت : لمّا جُعِلْنَ مخاطبات ومجيبات ووُصِفْنَ بالطوع والكره قيل : طائعين في موضع طائعات))[٣].

وذكر الآلوسي شيئاً قريباً ممّا ذكره الزمخشري ، فهو يرى أنّ (طائعين) جاءت بلفظ جمع المذكر السالم مع اختصاصه بالعقلاء على إعتبار كونهما في معرض الخطابِ والجواب ، ولاوجه للتأنيث عند إخبارهم عن أنفسهم ، فالتأنيث يكون بحسب اللفظ فقط[٤].

---

(١) جامع البيان : ٩٨/٢٤ .

(٢) ينظر : معاني القرآن : ٢٥٠/٦ .

(٣) الكشاف : ٤٤٤/٣ .

(٤) ينظر : روح المعاني : ١٠٣/٢٤ .

٣. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ الحجرات : ٩ .

جاء الفعل (ٱقْتَتَلُوا۟) بلفظ الجمع بعد أنْ كان السياق بلفظ المثنى ، وكان المتوقع أن يقال : اقتتلتا ، لكنه آثر مجيئه بصيغة الجمع بدلاً من المثنى ؛ لأنّ الطائفة وهي مفرد (طَآئِفَتَانِ)– كما ذكر المفسرون– تتناول الواحد والجمع ، وقيل : جُمِعَ حملاً على المعنى أي : كما سبق في قوله تعالى ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ ﴾[١] . وهو ماذكره الزمخشري[٢] ، والقرطبي حين قال : ((والطائفة تتناول الرجل الواحد وإلاّ فهو مما حمل على المعنى دون اللفظ ، لأنّ الطائفتين في معنى القوم والناس))[٣].

وقال البيضاوي : ((اقتتلوا : تقاتلوا ، والجمع باعتبار المعنى ، فإنّ كلّ طائفةٍ جمعٌ))[٤] .

وتوسع الآلوسي في النكتة التي دعت إلى مثل هذا الإيثار والتغاير في الأسلوب ، فكلّ طائفة من الطائفتين جماعة ، لذا روعي في الطائفتين معناهما أولاً ، ثم لفظهما ثانياً على عكس المشهور في الآستعمال ، ((والنكتة في ذلك ماقيل : إنّهم أولاً في حال القتال مختلطون فلذا جمع أولاً ضميرهم ، وفي حال الصلح متميزون متفارقون فلذا ثُنيَّ الضمير ، وقرأ ابن أبي عبلة : اقتتلتا ، بضمير التثنية والتأنيث كما هو ظاهر . وقرأ زيد بن علي وعبيد بن عمير : اقتتلا بالتثنية والتذكير ، بإعتبار أنّ الطائفتين فريقان))[٥] .

---

(١) الحج / ١٩ .

(٢) ينظر : الكشاف : ٥٦٣/٣ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن : ٣١٥/١٦ ، وينظر : معاني القرآن للنحاس : ٤٩٧/٤ .

(٤) أنوار التنزيل : ٢١٥/٥ .

(٥) روح المعاني : ١٤٩/٢٦ ، وينظر : الدر المنثور : ٥٦١/٧ ، وفتح القدير : ٦٣/٥ .

٤. قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ التحريم: ٤ .

فقد وردت كلمة (قُلُوبُكُمَاۖ) بجمع كلمة قلب على قلوب ، والمعروف أنّ لكلِّ إنسان قلباً واحداً ، فإن كانَ هناك شخصان ، قلنا : قلباكما ، لكنه جاء بلفظ الجمع بدلاً من التثنية ؛ لأنّ عادة العرب في الكلام أنهم إذا ذكروا الشيئين من اثنين جمعوهما ، لأنّ ذلك عندهم أمكن وأخف ، وكراهة لاجتماع شيئين وهما في لفظ واحد .

قال الفرّاء : ((وإنّما اختير الجمع على التثنية لأنّ أكثر ماتكون عليه الجوارح اثنين في الأنسان : اليدين والرجلين والعينين . فلما جرى أكثره على هذا ذهبَ بالواحد منه إذا أُضِيف إلى اثنين مذهب التثنية))[١] .

وذكر القرطبي سبباً آخر لمجيء (قلوبكما) بصيغة الجمع بدلاً من التثنية ، قال : ((ولم يقل : قد صغى قلباكما ، ومن شأن العرب إذا ذكروا الشيئين من اثنين جمعوهما لأنّه لايشكل ... وقيل : كلما ثبتت الإضافة فيه مع التثنية فلفظ الجمع أليق بهِ لأنّه أمكن وأخف))[٢].

وآستحسن أبو حيّان إضافته إلى المثنى ، وذكر أنّ الجمع في مثل هذا أكثر استعمالاً من المثنى والتثنية دون الجمع . فالقياس أَنْ يعبر بالمثنى عن المثنى ، ولكن لكراهة اجتماع تثنيتين اسْتُعْمِل الجمع لأنّ التثنيّة جمع في المعنى[٣] .

---

(١) معاني القرآن : ٣٠٧/١ ، وينظر : مفاتيح الغيب : ٥٧٠/٣٠ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن : ١٨٨/١٨ .

(٣) ينظر : البحر المحيط : ٢٠٦/١٠-٢٠٧ ، والبرهان في علوم القرآن : ٢٤١/٢ و ٢٧٣ .

ثالثاً : الجمع :

أ. إيثار الخطاب بصيغة المفرد على الخطاب بصيغة الجمع :

ومن أمثلته في القرآن الكريم :

١. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ البقرة: ٢٥ .

كان السياق في قولهِ تعالى (أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ) يستدعي أن تأتي الصفة تابعة للموصوف فيقال : أزواج مطهرات بصيغة الجمع ، لكنه آثر مجيئها بصيغة المفرد بدلاً من الجمع ؛ لعلّةٍ تنوّعت عند المفسرين على النحو الأتي :

يرى الزمخشري أنّ (مطهرّة ومطهّرات) لغتان فصيحتان ، يقال : النساء فعلن وهن فاعلات وفواعل ، والنساء فعلت وهي فاعلة ... فالمعنى هنا : وجماعة أزواج مطهرة[١] .

وعقّب أبو حيّان على ماذكره الزمخشري إذ قال : ((إنّ اللغة الواحدة أولى من الأخرى ، وذلك أنّ جمع مالايعقل إمّا أن يكون جمع قلّة أو جمع كثرة ، فإنْ كانَ جمع كثرة فمجيء الضمير على حدّ ضمير الواحدة أولى من مجيئهِ على حدّ ضمير الغائبات ، وإن كانَ جمع قلة فالعكس ، نحو : الأجذاع انكسرن ، ويجوز : إنكسرت ، وكذلك إذا كانَ الضمير عائداً على جمع العاقلات))[٢] .

وأصل مطهّرة : متطهرّة ، فقلبت التاء طاءً لتقاربهما في المخرج ثم أدغمت بالطاء الثانية ، وهي اسم مفعول مشتق من الفعل تطهر ، أي أنّ الله طهرهن فتطهرن حتى صرن مطهرات[٣] .

---

(١) ينظر : الكشاف : ٢٥٤/١ .

(٢) البحر المحيط : ١٨١/١ ، والاتقان : ٥٥٢/١ .

(٣) ينظر : البحر المحيط : ١٨١/١ .

٢. قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ النساء: ٦٩.

جاء لفظ (رَفِيقًا) بصيغة المفرد . وكان المتوقع – لأنّه سُبِق بجمع – أَنْ يأتي بصيغة الجمع فيقال : رفقاء أو رفاقاً .

وكان للعلماء في تخريج إفراده هذا عدّة أوجه ، فالطبري ذهبَ إلى أن اللفظ لفظ الواحد والمعنى الجمع[١] .

وجوّز الزمخشري أَنْ يكون اللفظ مفرداً بيّن بهِ الجنس إذ قال : ((والرفيق : كالصديق والخليط في استواء الواحد والجمع فيه ، ويجوز أن يكون مفرداً بُيِّن به الجنس في باب التمييز))[٢] .

ونقل الرازي أقوالاً لبعض العلماء لكنه لم يرجح رأياً منها ، إذ قال :((قال الواحدي : إنّما وحَّد الرفيق وهو صفة لجمع لأنّ الرفيق والرسول والبريد ، تذهب به العرب إلى الواحد وإلى الجمع ، قال تعالى (﴿ فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ الشعراء: ١٦) . ولايجوز أن يقال : حَسُنَ أولئك رجلاً ، وبالجملة فهذا إنّما يجوز في الاسم الذي يكون صفة ، أمّا إذا كان اسماً مصرحاً مثل : رجل وامرأة لم يجز ، وجوّز الزجاج ذلك في الاسم أيضاً وزعم أنّه مذهب سيبويه . وقيل : معنى قولهِ (وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا) أي : حسن كلّ واحدٍ منهم رفيقاً))[٣] .

وآستحسن أبو حيّان مجيء هذا اللفظ بصيغة المفرد لكونه فاصلة ، قال : ((ويحسن ذلك هنا كونه فاصلة ، ويحتمل أن يكون منقولاً من الفاعل فلا يكون هو المميز والتقدير : وحسن رفيق أولئك ...))[٤] .

---

(١) ينظر : جامع البيان : ١٦٣/٥ .
(٢) الكشاف : ٥٤٠/١ .
(٣) مفاتيح الغيب : ١٣٢/١٠ .
(٤) البحر المحيط : ٦٩٤/٣ .

وذهب البيضاوي إلى أنّ الآية في معنى التعجب ، و(رفيقاً) أمّا تمييز أو حال ، ولم يجمع لأنه يقال للواحد والجمع كالصديق[١] .

ويبدو أَنّ مراعاة الفاصلة هو الأقرب إلى الصواب ، إذ أنّ الآيات السابقة واللاحقة للآية الكريمة ، تنتهي كلّها بالألف ، قال تعالى : (تثبيتاً ، عظيماً ، مستقيماً ، عليماً ، جميعاً ، شهيداً) (النساء ، فواصل الآيات : ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢) فالسياق –إذن– هو مَنْ أستدعى أن تكون اللفظة بصيغة المفرد ، وليس بصيغة الجمع – والله أعلم– .

٣. قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ النور: ٣١ .

جاءت كلمة(ٱلطِّفْلِ) بلفظ المفرد ، وكان السياق المتوقع أن تأتي بلفظ الجمع فيقال : الأطفال ؛ لأنّه أريد بهِ الجنس ، قال الزمخشري : ((وضع الواحد موضع الجمع لأنّه يفيد الجنس ، ويبين ما بعده أنّ المراد به الجمع))[٢] . فالدليل على أنّه قصد به الجمع هو مابعده أي قوله تعالى (ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟) إذ جاء الكلام بصيغة الجمع مما يدل على أنّ (ٱلطِّفْلِ) أريد به الجمع لا المفرد ، وإليه ذهب الرازي أيضاً [٣] .

وبيّنَ أبو حيّان ان هذا اللفظ إنّما دلَّ على الجنس لابنفسهِ بل بـ(أل) التعريف المقترنة بهِ وإلاّ فهو نكرة[٤] .

---

(١) ينظر : انوار التنزيل : ٢/ ٢١٥ .

(٢) الكشاف : ٦١/٣ ، وينظر : معاني القرآن للنحاس : ٥٢٦/٤ ، وزاد المسير : ٣٤/٦ .

(٣) ينظر : مفاتيح الغيب : ٣٦٣/٢٣ .

(٤) ينظر : البحر المحيط : ٣١/٨ .

وذهبَ الآلوسي إلى أنّه مصدر ، إذ قال : ((وكذا قال بعض النحاة : أنّه في الأصل مصدر فيقع على القليل والكثير ، والأمر على هذا ظاهر جداً))[١] .

ويبدو – والله اعلم– أنّ ماذكره الزمخشري هو الأقرب إلى الصواب ، فهذا اللفظ قد أفاد جنس الأطفال ، أي أن المراد به الجمع لا المفرد .

ب. إيثار الخطاب بصيغة المثنى على الخطاب بصيغة الجمع :

من أمثلتهِ في القرآن الكريم :

١. قوله تعالى :﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ الحجرات: ١٠ .

موضع الإيثار في قوله تعالى (أَخَوَيْكُمْ) ، فقد وردت بلفظ المثنى ، وكان السياق المتوقع أن يقال : إخوتكم أو إخوانكم ، بلفظ الجمع ، مع أنّ هناك قراءة بهذين اللفظين ، لكنّ القراءة المشهورة هي بلفظ المثنى على ماهُوَ بَيّن .

واختلف المفسرون في أمر هذهِ الآية على ثلاثة آراء :

الأول : يرى بوقوع الإيثار في هذهِ اللفظة ، والانتقال من الجمع إلى المثنى ، ومن هؤلاء الزمخشري ، إذ قال : ((فإن قلت : فَلِمَ خُصَّ الاثنان بالذكر دون الجمع ؟ قلت : لأنّ أقل مَنْ يقع بينهم الشقاق اثنان ، فإذا لزمت المصالحة بين الأقل كانت بين الأكثر ألزم ، لأنّ الفساد في شقاق الجمع أكثر منه في شقاق الاثنين ، وقيل : المراد بالأخوين الأوس والخزرج))[٢] .

وذهب أبو حيّان مذهب الزمخشري ، وأضاف ((قرأ زيد بن ثابت وابن مسعود والحسن – بخلاف عنه– والجحدري وثابت البنائي وحماد بن سلمة وابن سيرين : (بين إخوانكم) جمعاً ، بالألف والنون . والحسن أيضاً وآبن عامر – في روايةٍ – وزيد بن علي ويعقوب : (بين إخوتكم) جمعاً ، على وزن غِلمة ، وروى عبد الوهاب عن أبي عمرو

---

(١) روح المعاني : ١٤٥/٨ . وينظر : البيان في إعراب القرآن : ١٤٠/٢ . وغرائب التفسير وعجائب التأويل : ٧٥٢/٢ .

(٢) الكشاف : ٥٦٥/٣ .

القراءات الثلاث ، ويغلب الأخوان في الصداقة ، والأخوة في النسب ، وقد تستعمل كل منهما مكان الآخر))[١] . واليه ذهبَ الثعالبي أيضاً[٢].

والثاني : يرى أنّ الآية لا إيثار فيها للفظةٍ على أخرى بل هي على حالها من التثنية ، وممن ذهب إلى هذا الرأي ، الطبري ، إذ قال : ((ومعنى الأخوين في هذا الموضع كل مقتتلين من أهل الأيمان))[٣] .

وإليه ذهب القرطبي أيضاً ، حين قال : ((﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ خَيۡرًا﴾ أي بين كُلِّ مسلمين تخاصما . وقيلّ : بين الأوس والخزرج ... وقال أبو علي : أراد بالأخوين الطائفتين لأنّ لفظ التثنية يرد والمراد بهِ الكثرة))[٤] .

والرأي الثالث : ذهب إلى أنّ الآية هي من ضمن الانتقال من الاسم إلى الضمير ، ومن أصحاب هذا الرأي البيضاوي ، إذ قال : ((ووضع الظاهر موضع الضمير مضافاً إلى المأمورين ، للمبالغة في التقرير والتحضيض ، وخصَّ الاثنين بالذكر ، لأنهما أقل مَنْ يقع بينهم الشقاق ، وقيل : المراد بالأخوين : الأوس والخزرج ، وقرئ : بين إخوتكم وإخوانكم))[٥] .

والذي يبدو راجحاً – والله أعلم– هو ماذهب إليه أصحاب الرأي الأول ، إذ أنّ الآية فيها تبادل دلالي بين الجمع والمثنى ، من جهتي الحمل على اللفظ ، أو على المعنى .

فلو حملنا الآية على اللفظ كان صحيحاً ؛ لأنّ أقلّ مايقع بينهم الشقاق اثنان ، وكذلك مراعاة للآية التي قبلها ، وهي قوله تعالى ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ ... ﴾ الحجرات: ٩ ، فقد تقدّم الآية لفظٌ مثنى (طائفتان) ، وإن كان قد ذكر بعدها الفعل بصيغة الجمع فقال (اقتتلوا) والسياق كان يقتضي أَنْ يقول (اقتتلنا) ، لكن يبدو انّ السرّ في ايراده بصيغة الجمع بدلاً من المثنى هو ((أنّ الطائفتين عند اقتتالهما واشتباكهما

---

(١) البحر المحيط : ٥٠٨/٩ ، وينظر : حجة القراءات : ٦٧٦/١ ، وكتاب السبعة في القراءات : ٦٠٦/١ ، والحجة في القراءات السبع : ١/ ٣٣٠ .

(٢) ينظر : الجواهر الحسان : ١٨٨/٤ .

(٣) جامع البيان : ١٣٠/٢٦ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن : ٣٢٣/١٦ ، وينظر : تفسير ابن كثير : ٢١٣/٤ ، وفتح القدير : ٦٣/٥.

(٥) أنوار التنزيل : ٢١٦/٥ : ٢١٦/٥ ، وينظر : إرشاد العقل السليم : ١٢٠/٨ .

تمثلان حينئذٍ جمعاً من المقتتلين لاتمايز بينهم ، وفي هذا إمعانٌ في تصوير شدّة الاقتتال ، فإذا ما انتهى الاقتتال بينهم ، وسعت مساعي الصلح ، تمايزوا الى فريقين وطائفتين مستقلتين))[١] .

وإذا حملناها على المعنى ، شهدت لها قراءتا : إخوتكم وإخوانكم ، وقد أوثرت صيغة التثنية في أخويكم مراعاةٌ لكون الكلام جارٍ على طائفتين من المؤمنين فجعلت كل طائفة كالأخ للأخرى ، وقرأ الجمهور (بين أخويكم) بلفظة تثنية الأخ ، أي بين الطائفة والأخرى مراعاةً لجريان الحديث على آقتتال طائفتين ، والقراءة (بين أخوتكم) على أنّه جمع أخ على اعتبار كلّ فرد من الطائفتين كالأخ – والله أعلم – .

٢. قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٞ ﴾ الملك: ٣ - ٤

وردت لفظة (كَرَّتَيۡنِ) بصيغة المثنى ، وذكر المفسرون أنّ المقصود بالتثنية هنا الجمع ، أي : كرّات ؛ لأنّ المعنى المقصود ليس العدد ، لأنك مهما كررت انقلب إليك البصر خاسِئاً عن أن يرى عيباً أو خللاً في خلقهِ تعالى ، ولأنّ البصر لايحسر إلاّ بالكرات وليس بالكرّتين ، فمعنى التثنية إذن هو التكثير والتكرير .

قال الزمخشري : ((فإنّ قلت : كيف ينقلب البصر خاسئاً حسيراً يرجعه كرتين اثنتين ؟ قلت : معنى التثنية التكرير بكثرة ، كقولك : لبيك وسعديك تريد إجابات كثيرة بعضها في أثر بعض))[٢] .

وإليه ذهب القرطبيّ أيضاً ، إذ قال : ((والمراد بـ((كَرَّتَيۡنِ)) هاهنا التكثير ، والدليل على ذلك (يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٞ) وذلك دليل على كثرة النظر))[٣] .

---

(١) الإعجاز البياني في العدول النحوي السياقي في القرآن الكريم ، الدكتور عبد الله علي الهتاري : ٢٤٣ .

(٢) الكشاف : ١٣٣/٤ ، وينظر : مفاتيح الغيب : ٥٨٢/٣٠ ، والبحر المحيط : ٢١٨/١٠ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن : ٢١٠/١٨ .

وقال ابن كثير : ((ومعنى الآية : إنّك لو كررت البصر مهما كررت لآنقلب إليك أي لرجع إليك البصر خاسئاً عن أن يرى عيباً أو خللاً وهو حسير أي كليل قد انقطع من الإعياء من كثرة التكرار ولا يرى نقصاً))[١] .

وجاء في أسرار التكرار للكرماني ما نصُّه : ((قوله ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ﴾ وبعده ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ﴾ أي مع الكرّة الاولى . وقيل : هي ثلاث مرات ، أي ﴿ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ﴾ وهذه مرّة ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ﴾ فمجموعهما ثلاث مرات . قلت : يحتمل أن يكون أربع مرّات ، لأنّ قولهِ ﴿ٱرۡجِعِ﴾ يدلُّ على سابقه مرّة))[٢] .

وعلى الرغم من أنّ الكرماني قد دخل في مسألة حسابية أصلها الجمع لهذهِ النظرات ، وإحصاء عددها ، إلاّ إنّه انتهى إلى أن المجموع أربع نظرات . وهذا يعني أنّه متفق مع المفسرين في أنّ المقصود بالتثنية التكثير والتكرر وليست حقيقة التثنية ، وأنّ السياق هو مَنْ حدّد تلك الدلالة .

ويمكن أن يقال : كرتين تثنية (كرّة) وهي المرّة ، وعبر عنها بالكرة مشتقة من (الكَرِّ) وهو (العَوَد) لأنها عَودٌ إلى شيءٍ بعد الإنفصال عنه مثل : كَرّ المقاتل يحمل على العدو بعد أن يفرّ فِراراً مصنوعاً ، وإيثار لفظة (كرتين) في الآية من دون مرادفهِ نحو (مرتين) و(تارتين) ؛ لأنَّ كلمة (كّرة) لم يغلب إطلاقها على عدد الأثنين ، فكان إيثارها في مقام لايُرَاد بهِ اثنين ، أظهرُ في أنها مستعملة في مطلق التكرير دون عدد أثنين أو زوج وهذا من خصائص الإعجاز في كتابِ الله تعالى .

---

(١) تفسير ابن كثير : ٣٩٧/٤ .

(٢) أسرار التكرار في القرآن : ٢٠٦/١ .

المبحث الثاني

الإيثار الدلالي بين المبني للمعلوم والمبني للمجهول :

قد يأتي الفعل في القرآن الكريم مبنيّاً للفاعل ، ويأتي مبنيّاً للمفعول أيضاً بحسب مايقتضيه السياق .

ومن البديهي أن يكون لهذا الانتقال والتغيير معان وأغراض ، منها : العلم الواضح بالفاعل ، أو الجهل بهِ ، أو الإيجاز والاختصار ، أو التعظيم والتفخيم[١] . فما يقع من حدث على المفعول بهِ هو محل العناية والاهتمام ، مما يجعله ذا فائدة تفوق فائدة الفاعل وذكره ، فيقع المفعول محلّه ليكون مسنداً إليه تأكيداً وإهتماماً . نحو قولهم – مثلاً – ((قُتِلَ حمزة)) فإن الغرض من حذف الفاعل وإقامة المفعول مقامه ((ليسَ لكون الفاعل معلوماً أو مجهولاً ، أو حُذِفَ إيجازاً واختصاراً ، أو تعظيماً وتفخيماً ، ولكن لأنّ ماعناهم من شأن المفعول وما وقع بهِ من حدث عظيم هو أشدّ بكثير من ذكر الفاعل عندهم ، ولذا أسقطوا الفاعل وأقاموا المفعول بهِ مقامه ليكون الإسناد والتعبير والقصد متوجهاً إليهِ فحسب دون العناية بالفاعل أيًّا كان))[٢] .

وقد وردت في القرآن الكريم آيات بُنيَ فيها الفعل للمفعول مرّة ، وللفاعل مرّة أخرى ، بحسب قصد معناه لما يبنى له ولما يسند إليه ، والسياق هو من يحدد المعنى المقصود منه .

---

(١) ينظر : اللباب في علل البناء والأعراب : ١٠٧/٢ ، وشرح المفصل : ٦٩/٧ ، وهمع الهوامع : ١٦١/١-١٦٢ .

(٢) البنى النحوية وأثرها في المعنى ، أحمد عبدالله حمود العاني ، أطروحة دكتوراه ، جامعة بغداد – كلية الآداب ، ٢٠٠٣ م : ٢٦٥ .

ومن أمثلة تلك الآيات :

١. قوله تعالى : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ الحج: ٤٢ – ٤٤ .

فقد ورد الفعل (كُذِّبَ) مَبْنيّاً للمجهول ، في حين أنّ السياق في الآيات الكريمة السابقة ، جَرَى على ذكر الفاعل ، قال تعالى (وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ... وَقَوْمُ... ، وَقَوْمُ ، ... وَأَصْحَابُ ...) ثم قال (وَكُذِّبَ مُوسَىٰ) ، ولم يقل (وَكُذِّبَ قومُ موسى) .

وعللّ الزمخشري ذلك بقوله : ((فإنْ قُلْتَ : لِمَ قيل (وَكُذِّبَ مُوسَىٰ) ولم يقل : وقوم موسى ؟

قلت : لأنّ موسى ماكذّبَهُ قومه بنو إسرائيل ، وإنّما كذّبَهُ غير قومهِ وهم القبط وفيه شيءٌ آخر ، كأنّه قيلَ بعدَ ماذكر تكذيب كلّ قومٍ رسولهم ، وكُذِّبَ موسى أيضاً مع وضوح آياتهِ وعظم معجزاتهِ فما ظنّك بغيرهِ))[١] .

ويبدو – والله أعلم – وكأنّه آثر ذكرَ الفعل مبنيّاً للمجهول بدلاً من بنائهِ للمعلوم ، للدلالةِ على أنّ المبالغة في التكذيب لموسى (عليه السلام) مع ظهور معجزاتهِ ، وآياتهِ الظاهرة ، فهو أكثر الرسل السابقين معجزات وآيات ، ومع ذلك كُذِّب ، وفي هذا مزيد إيناسٍ للنبي (ﷺ) وتسلية له[٢] .

---

(١) الكشاف : ٣/١٦-١٧ .

(٢) ينظر : البحر المحيط : ٦/٣٤٨ .

٢. قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ هود: ١٠٥ ــ ١٠٨ .

وردَ الفعل (سُعِدُواْ) مبنيّاً للمجهول ، وكان السياق يقتضي أن يكون مبنيّاً للمعلوم (سُعِدُواْ) ؛ لأن الفعل (شَقُواْ) – في الآية السابقة – كان مبنيّاً للمعلوم .

وقيل إنّ بناء الفعل (سُعِدُواْ) للمجهول إنّما جاء في قراءة حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ، وَقرأها الباقون بفتح السين أي البناء للمعلوم[١] .

قال الكسائي : ((سُعِدُواْ ، وأسعدوا لغتان ، ومن ذلك رجل مسعود من سُعِدَ))[٢] .

ونقل الطبري اختلاف القرّاء في (سُعِدُواْ) ، إذ قال : ((اختلفتِ القرَأةُ في قراءةِ ذلك ؛ فقرأته عامةُ قرأة المدينةِ والحجاز والبصرة وبعض الكوفيين : (وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ) بفتح السين . وقرا ذلك جماعة من قرأةِ الكوفيين : (وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ) بضمّ السين ، بمعنى : ((رُزِقوا السعادة ، والصوابُ من القول في ذلك أنهما قراءتان معروفتان ، فبأيتهما قرَأ القاريءُ فمصيبٌ الصوابَ))[٣] . فالقراءتان صحيحتان عند الطبري .

وذكر القرطبي بعد أنْ نقلَ اختلاف القُرّاء في قراءة (سعدوا) ، أنّ الدليل على أنّه (سَعِدوا) بفتح السين ، أنّ الأول شقُوا ، ولم يقل أشقوا ، وأنهم تعجبوّا من قراءة الكسائي : (سُعِدُوا) بضم السين ، مع علمه بالعربية ! حتى عدّه بعضهم لحناً لايجوز ، ((لأنّه إنما يُقال : سَعِدَ فلانٌ وأسعده الله ، وأُسعد مثل أُمرِض ، وإنّما احتجَّ الكسائي بقولهم : مسعود ، ولاحجَّة له فيه ، لأنّه يقال : مكان مسعودٌ فيه ، ثم يُحذَف فيهِ ويسمّى به ... ومَنْ ضَمَّ السين من ((سُعدوا)) فهو محمولٌ على قولهم : مسعود ، وهو شاذٌ قليل ؛ لأنّه

---

(١) ينظر : السبعة في القراءات – ابن مجاهد – : ٣٣٩ ، والكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها : ٥٣٦ .

(٢) معاني القرآن : ١٦٥ .

(٣) جامع البيان : ٥٨٤/١١ .

لايقال : سعده الله ، إنما يقال : أسعده الله ، وقال الثعلبي : ((سُعِدُوا)) بضمّ السين ، أي : رُزقوا السَّعادة ، يقال : سُعِدَ وأُسعِد بمعنى واحد))[١] .

ويبدو – والله أعلم – أنّ البناء للمجهول في هذ الفعل إنّما جاءَ للتفخيم والتعظيم ، بدليل أنهم قرأوا (سُعِدُوا) بضم السين بمعنى أسعدهم الله ، فأخفى الفاعل وهو لفظ الجلالة للدلالة على تعظيمه جَلَّ شأنه . في حين بُنيَ الفعل (شَقُوْا) للمعلوم ؛ لأنّ الشقاء ناتج عن أفعالهم وأعمالهم بأنفسهم لارتكابهم السيئات والمعاصي ، فشقاء هؤلاء كان من عمل أيديهم ، وسعادة أهل الجنّة إنما هو من إسعاد الله لهم ، وفي هذا إشارة إلى أنّ دخول أهل النار النار بمحض عدل الله تعالى ، ودخول أهل الجنّة الجنة بمحض تفضلهِ وسعة رحمته .

٣. قوله تعالى :﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ۝١٥ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ۝١٦ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۝١٧ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ۝١٨ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ الإنسان: ١٥ – ١٩ .

يلحظ هنا مجيء الفعل (يطافُ) مبنيّاً للمجهول إبتداءً ، فقال (وَيُطَافُ عَلَيْهِم ...) ثُمَّ بنى الفعل للمعلوم وذكر الفاعل في الآية اللاحقة ، فقال (وَيَطُوفُ عَلَيْهِم) . وتنبّه الكرماني على ذلك بقولهِ : ((وقوله (وَيُطَافُ عَلَيْهِم) وبعده (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ) ، إنّما ذكر الأول بلفظ المجهول ، لأن المقصود مايُطاف به إلاّ الطائفون ، ولهذا قال (بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ) ، ثمَّ ذكر الطائفين ، فقال : (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ)))[٢] .

والسياق هو الذي اقتضى الحذف أولاً ، والذكر ثانياً ، فهو في الآية السابقة (وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ۝١٥ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا) ، يركز على المطوف به لا على الطائفين ، فالمهم في السياق هو ذكر مايطاف به ؛ ولذلك أسهب في وصف الآنية وأنّها من فضة ووصف الأكواب ، وكذلك حذف الفاعل وبنى الفعل للمجهول في الآية

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٢١٧/١١ . وينظر : مشكل إعراب القرآن : ٣٧٤/١ ، والمحرر الوجيز : ٢٠٩/٣ ، وروح المعاني : ١٤٥/١٢ .

(٢) البرهان في توجيه متشابه القرآن : ١٩٢ ، وينظر : البحر المحيط : ٣٨٩/٨ .

التالية لها فقال (وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا) ، لأنّه ليس هو المهم في السياق إذ المهم هو الشراب الذي يُسْقَونَه لا الساقي لهم ، ولذلك ذكر الكأس التي يُسْقَون بها ، وأنّهم يُسْقَونَ شراباً ممزوجاً بالزنجبيل من عين تسمى سلسبيلاً ، ولكنه بعد ذلك بنى الفعل للمعلوم فذكر الفاعل في قوله :﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ الإنسان: ١٩ – ٢٠ ، لأنّ التركيز والاهتمام في هذا السياق منصبٌ على الفاعل نفسه وهم الولدان المخلدون ، فوصفهم أنّهم ولدانٌ ، وأنّهم مخلّدون ، وأنّ الرائي لهم يحسبهم من حسنهم ، وجمالهم وبهاء طلعتهم ، كأنّهم لؤلؤٌ منثور[١] .

ولو سأل سائل ، لماذا قُدّمَ ذكر المبني للمجهول على المبني للمعلوم في هذا السياق ، فقال (ويطاف ... ويطوف) ؟ والمعهود في الاستعمال اللغوي أنْ يَرد المبني للمعلوم قبل المبني للمجهول عندما تكون مادة الفعل واحدة في المرتين والفاعل واحداً ؛ لأنّ ذكر الفاعل في المرة الأولى يغني عن ذكره في المرّة الثانية ؟

فالجواب – والله أعلم – أن السياق الأول (وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ) كان المقصود به التركيز إبتداءً على النعمة التي يتنعم بها أهل الجنة ، وذكر وصف أوانيهم وأكوابهم وشرابهم ، ثم بعد ذكر نعمة الله على وجه التفصيل والتفضيل ناسب ذكر الخدم والحشم ووصفهم ، ((فذكر النعم سابق لذكر الخدم ، وهم تبع لها وليسوا أصلاً لها ، ولا محل الإهتمام الأول ابتداءً ؛ لذا ناسب مجيء مَنْ يطوف عليهم ، فقال (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ) . ثم في ذلك أيضاً شَدٌّ للإنتباه عند بناء الفعل إبتداءً للمجهول ، إذ قال : (وَيُطَافُ عَلَيْهِم) فيضلّ التساؤل وارداً مفاده هذا وصف المطوف بهِ فمن الطائِفونَ وما وصفهم ؟ فيأتي ذكرهم بعد ذلك تبعاً ، وهذهِ من لطائف الكتاب العزيز))[٢] .

---

(١) ينظر : جامع البيان : ٢٣/٥٦٤-٥٦٥ ، والمحرر الوجيز : ٥/٤١٣ ، والجامع لأحكام القرآن : ٢١/٤٧٩ .

(٢) الأعجاز البياني في العدول النحوي السياقي في القرآن الكريم ، للدكتور عبدالله علي الهتاري : ٢٢٧ .

٤. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ آل عمران: ١٤ .

وردَ الفعل (زُيِّنَ) مبنيّاً للمجهول ، بدلاً من بنائه للمعلوم ، وقد ذكر القرطبي قراءتين في (زُيِّنَ) ، قال : ((قرأ الجمهور (زُيِّنَ) على بناء الفعل للمفعول ، ورفع (حُبُّ) ، وقرأ الضحّاك ومجاهد : (زُيِّنَ) على بناء الفعل للفاعل ، ونصب (حُبَّ)))[١] .

وقال الطبري : (((زُيِّنَ لِلنَّاسِ) مَحَبّةُ ما يَشْتَهُون من النساء والبنين وسائِر ما عَدَّ . وإنَّما أراد بذلك توبيخ اليهود الذين آثروا الدنيا وحُبّ الرِّياسة فيها على إتباع مَحّمِد (ﷺ) بعدَ علمهم بصدقهِ ، وكانَ الحسنُ يقولُ : مَنْ زَيَّنَها ؟ ما أحدٌ أَشدَّ لها ذمَّاً مِن خالِقها))[٢] .

واختلف المفسرون فيمن زَيّنَ للنّاس محبّة ذلك ، ونقل الرازي هذا الاختلاف متسائِلاً : إن كانَ الشيطان هو من زيّنَ ذلك ، فمن الذي زينَ الكفر والبدعة للشيطان ؟! . ثم أوردَ ثلاثة أقوال للمعتزلة فيما يخصّ هذا الأمر[٣] :

الأول : ما حُكيَ عن الحسن البصري قوله : إنّ الشيطان زيّن لهم ، وكان يحلف على ذلك بالله ، وأنّه تعالى أطلق حُبّ الشهوات ، فيدخل فيه الشهوات المحرّمة ، ومزين ما حُرِّم من الشهوات هو الشيطان .

والثاني : قول قومٍ من المعتزلة : إنَّ المزيّن لهذهِ الأشياء هو الله ؛ لأنّ الله تعالى كما رغّبَ في منافع الآخرة فإنّه خلق ملاذ الدنيا وأباحها لعبيده ، وهذه الأباحة هي تزيين لها . ثمَّ إنّ الإنتفاع بهذهِ المشتهيات وسائل إلى منافع الآخرة ، والله تعالى قد ندبَ إليها فكانَ مزيناً لها ، والإنتفاع يكون على وجوه : الأول : أن يتصدّق بها . و(الثاني) : أن يتقوى بها على طاعة الله تعالى . و(الثالث) أنه إذا انتفع بها وعلم أنّ تلك المنافع إنما

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٤٣/٥ ، وينظر : المحتسب : ١٥٥/١ ، والمحرر الوجيز : ٤٠٨/١ .
(٢) جامع البيان : ٢٥٤/٥ .
(٣) ينظر : مفاتيح الغيب : ٢٠٩/٧-٢١٠ .

تيسرت بأمر الله وإعانته سيكون ذلك سبباً لإشتغال العبد بالشكر العظيم لخالقها وميسرها له .

والثالث : إنّ كُلّ ما كانَ من هذا الباب واجباً ، أو مندوباً كانَ التزيين فيه من الله تعالى ، وكلّ ما كانَ حراماً كان التزيين فيه من الشيطان .

وذهبَ الآلوسي إلى أنَّ ((الشهوات زّينت في أعينهم لنقصانهم ، ولا زينة لها في الحقيقة من غير أن يكون هناك مزيّن ، إلاّ أنّه أثبت مزيّن مبالغة في الزينة وتنزيلاً لسبب الزينة منزلة الفاعل فقد تعسف وتصلّف ، ومن قال : المزين في الحقيقة هو الشيطان ؛ لأنّ التزيين صفة تقوم به))[1] .

ويبدو – والله أعلم – أن الفعل (زُيِّنَ) قد بُنيَ للمجهول ليدلّ على نيتين متضادتين ، فإذا أحسنَ الإنسان النية في التمتع بهذهِ الشهوات من إعفاف النفس وتكثير النسل وإعانة الفقراء والمساكين ، ومن إقتناء الخيل والأنعام وحراثة الأرض لينفع العباد والبلاد بها ، كان فاعل ذلك الفعل هو الله تعالى بدليل قوله جلّ وعلا : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ الأعراف : ٣٢ ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ الكهف: ٧ . فهذهِ الشهوات زيّنها الله تعالى للعباد لتكون وسيلة تحث على الحصول على ماهو خير منها وأبقى .

وبما أنّ هذهِ الشهوات من النساء والبنين والذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام كلّها موجودة في الجنة ، فقد بيّنَ الله تعالى أنّها متاعٌ قليلٌ في الدنيا ، فلا تركنوا إليها ، وإنما اجعلوها وسيلة لإرضائهِ سبحانه ، كي تعود إليكم في حياتكم الأبدية .

أمّا النيّة الأخرى التي يريدها فهي نيّة سوء للتمتع بها لذاتها ، والإبتعاد عن الغاية التي وجدت لها أو أُنيطت بها ، وهذا من الشيطان لأنّه هو فاعل (زُيِّنَ) عندئذٍ ، بدليل قولهِ تعالى : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ

(١) روح المعاني : ٩٩/٣ .

أَعۡمَـٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ﴾ العنكبوت: ٣٨ ، وقوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ الحجر: ٣٩ .

وإذا ما ابتعدَ الأنسان عن النية السليمة وانحرف إلى النيّة السيئة ؛ كان التزيين من الشيطان ، ومن ثمَّ أراد الله تعالى أن يبعد هؤلاء المغرورين بهذهِ الأمتعة من النية السيئة الخبيثة والقصد القصير إلى متاع أبدي أجمل ممّا سبق وأحسن ، ولمّا كانت هذهِ الأمتعة زائلة والدنيا فانية ، فلا بُدّ من الرجوع إليه سبحانه ليروا المتاع الحسن والمآب الأفضل عند الله[١] .

٥. قوله تعالى : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّـٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَـٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴾ الكهف: ٣١ .

جاءَ الفعل (يُحَلَّوْنَ) في الآية الكريمة مبيّناً للمفعول[٢] ، في حين ذكر القرطبي أنّ الفرّاء حكى (((يُحَلَّوْنَ) بفتح الياء وسكون الحاء وفتح اللام خفيفة ، يقال : حَلِيت المرأة تَحْلى فهي حالية إذا لبست الحَلْي ، وحَلِيَ الشيء بعيني يَحْلَى ، ذكره النحاس))[٣] .

وبيّن السمين الحلبي ، لِمَ بُنيَ الفعل للمجهول ؟ قال : ((بُنيَ الفعل في التحلية للمفعول إيذاناً بكرامتهم ، وأنَّ غيرَهم يفعل لهم ذلك ويُزَيِّنُهم بهِ ، كقول ٱمريء القيس :

غرائرُ في كُنٍّ وَصَوْنٍ ونعمةٍ يُحَلَّيْنَ ياقُوتاً وَشَذْراً مُفَقَّراً

بخلاف اللبس فإنَّ الأنسان يتعاطاه بنفسهِ ، وقُدِّمَ التحلّي على اللباس لأنّه أشهى

---

(١) ينظر : الأعجاز البلاغي لتحولات النظم القرآني ، للدكتور : أحمد محمد أمين اسماعيل : ١٦٥-١٦٦ .

(٢) كذلك ورد هذا الفعل مبنيّاً للمفعول في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَـٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴾ الحج: ٢٣ ، وقوله تعالى : ﴿ عَـٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا ﴾ الإنسان: ٢١ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن : ٢٦٥/١٣ ، وينظر : إعراب القرآن (النحاس) : ٤٥٥/٢ .

للنفسِ))[١] .

فبناء الفعل للمجهول في ذكر التحلية بالذهب ، إنّما هو إشارة إلى أنهم ملوك الآخرة ، والملوك يُلْبَسِون الذهب من قبل الخدم والحشم ، وفي هذا مزيدٌ من التكريم لهم .

بينما يكون لبس الثياب من قبل صاحبها ، فلا يُلبَّس ثيابه إلاّ مَنْ كان مريضاً أو بهِ علّة تمنعه من ذلك ، لذلك لم يرد تحلية أهل الجنّة بالذهب إلاّ مبنيّاً للمجهول للدلالة على علّو منزلتهم عند ربّهم[٢] .

٦. قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ الجن: ٩ – ١٠ .

جاءَ الفعل (أُرِيدَ) مبنيّاً للمجهول ، في حديث الجن الذينَ كانوا يسترقون السمع على الملائكة ؛ ليعرفوا أخبار السماء وما أمر الله بهِ ملائكته ليقوموا بتدبيره ، وعندما منعوا من الاسترق والتجسس على أهل السماء ؛ وذلك برجمهم وتسخير الشهب لتحرقهم قالوا : ((إنّا لانَدْري أعذاباً أرادَ الله أن يُنزله بأهل الأرض ، بمنعه إيّانَا السمعَ من السماءِ ، ورجمهِ من استمعَ منّا بالشَّهب ، (أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا) ، يقول : أم أراد بهم ربّهم الهُدَى بأن يبعثَ فيهم رسولاً مُرْشِداً يُرْشدُهم إلى الحق))[٣] . وهذا كُلّه من علامات نبوّة محمّد (ﷺ)[٤] .

وقال أبو حيّان الأندلسي : ((حين ذكروا الشرّ لم يسندوه إلى الله تعالى ، وحين ذكروا الرشد أسندوه إليه تعالى))[٥] .

وذكرَ الدمشقي (ت٨٨٠هـ) ، أنّ حديث الجنّ هذا ، كان فيما بينهم من قبل أن يسمعوا قراءة النبي (ﷺ) للقرآن ، فقالوا ((لاندري أشرٌّ أريدَ بمن في الأرض بإرسال محمد(ﷺ) إليهم يكذبونه ويهلكون بتكذيبهِ كما هلك مَنْ كَذّبَ من الأمم ، أم أراد أن يؤمنوا

---

(١) الدّر المصون : ٤٨٣/٧ ، وينظر : اللباب في علوم الكتاب : ٤٨١/١٢ .
(٢) ينظر : الإعجاز البياني في العدول النحوي السياقي في القرآن الكريم : ٢٢٧ .
(٣) جامع البيان : ٣٢٩/٢٣ .
(٤) ينظر : الهداية إلى بلوغ النهاية : ٧٧٦٨/١٢ . والجواهر الحسان في تفسير القرآن : ٤٩٦/٥ .
(٥) البحر المحيط : ٣٤٣/٨ ، وينظر : المحرر الوجيز : ٣٨٠/٥ .

فيهتدوا ، فالشرّ والرشد على هذا الكفر والإيمان ، وعلى هذا كان عندهم علم بمبعث النبي (ﷺ) ولمّا سمعوا قراءته علموا أنّهم منعوا من السماء حراسةً للوحي))[١] .

وذهبَ البقاعي إلى أنَّ التعبير بالملأ يدلّ على أنَّ السماء كانت قبل ذلك تحرس – أيضاً – لكن ليس على هذا الوجه ، حتى قيل : إنّها حُرِست لنزول التوراة ، ثم اشتدّ الحرس للأنجيل ، ثم ملئِت بالحرس الشدِاد استعداداً لنزول القرآن ، وأنّ الجنّ اشتبه عليهم أمر هذا المنع ولم يعلموا سرَه ، وفي هذا دلالة على جهلهم ببعض المسائل وأنّهم لايعلمون الغيب ، لذلك فوّضوا هذا الأمر إلى علاّم الغيوب ، فقالوا : (وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ) أي : بوجه من الوجوه ، وإنْ دافعنا واجتهدنا (أَشَرّٞ) وَلمّا كان المحذور نفس الإرادة الماضية لا كونها من معروف مع أَنّ الفاعل معروف ، وهو الفاعل المختار الذي له الإرادة الماضية النافذة ، بنوا للمفعول قولهم : (أُرِيدَ) معلمين للأدب في أَنّ الشرَّ يتحاشى من إسنادِهِ إليه سبحانه حيث لا إشكال في معرفة أنه لايكون شيءٌ إلاّ بهِ (بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ) أي بهذهِ الحراسة فينشأ عنها الغيّ ، (أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ) أي المحسن إليهم المدبر لهم ، بنوه للفاعل في جانب الخير إعلاماً مع تعليم الأدب بأنَّ رحمته سبقت غضبه ، وإشارةً إلى أنّه قد يكون أراد بهذا المنع الخير))[٢] .

والذي يبدو أنّ إسناد فعل الشرّ إلى المجهول ، إنّما هو من قبيل التأدب مع الله تعالى في تحاشي إسناد الشر إليه[٣] .

أمّا قوله (أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا) ؛ فهو من ناحية أخرى أدب مع الله وتعظيم لشأنه في إسناد الرشد إليه[٤] .

إنّ حذف الفاعل في هذا السياق ونظائرهِ تأدباً مع المولى –ﷻ– من أُن تسند أفعال الشرّ إليه ، في حين اسندت أفعال الخير إليه ، وهذهِ ظاهرة تكاد تطّرِد في السياق القرآني.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب : ٤٢٢/١٩ .

(٢) نظم الدرر : ٤٧٨/٢٠–٤٧٩ .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير : ٢٣١/٢٩ .

(٤) ينظر : البرهان : ٤ / ٥٩ .

٧. قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ النحل: ١١٠ .

وردَ الفعل (فُتِنُواْ) مبنيّاً للمفعول ، ويقصد بهم الذين ((عذبوا ومنعوا من الأسلام ، فَتنتهم المشركون ، (ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ) على الإيمان والهجرة والجهاد ، (إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا) من بعد تلك الفتنة والغفلة (لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ)))[١] .

قال الزمخشري : ((وقرئ (فَتَنُوا) على البناء للفاعل ، أي : بعدما عذبوا المؤمنين كالحضرمي وأشباهه))[٢] .

وذكر العكبري معنى قراءة هذا الفعل على البناء للمفعول ، إذ قال : ((يُقْرَأ عَلى مالم يُسَمَّ فاعله ؛ أي : فَتنهم غيْرُهم بالكفر فأجابوا ؛ ويُقْرَأ بفتح الفاء والتاء ، أي : فَتَنُوا أنفسهم أو فَتَنُوا غيرهم ثم أسلموا))[٣] .

واختلفوا في سبب نزول هذه الآية الكريمة ، قال القرطبي : ((هذا كلّه في عَمّار ، والمعنى : صبروا على الجهاد ... وقال قتادة : نزلت في قومٍ خرجوا مهاجرين إلى المدينة بعد أن فتنهم المشركون وعذّبوهم ... وقيل : نزلت في ابن أبي سَرْح ، وكان قد ارتدَّ وَلَحِقَ بالمشركين فأمر النبي (ﷺ) بقتله يوم فتح مكة ، فآستجار بعثمان ، فأجاره النبي (ﷺ)))[٤] .

كذلك بيّن السمين الحلبي معنى قراءة هذا الفعل على البناء للفاعل ، والبناء للمفعول ، بقوله : ((قرأ ابن عامر (فَتَنُوا) مبنيّاً للفاعل ، أي : فَتَنُوا أنفُسَهم ، فإن عاد الضمير على المؤمنين فالمعنى فَتَنُوا أنْفَسهم بما أَعْطَوا المشركين من القول ظاهراً ، أو أنهم لمّا صبروا على عذاب المشركين فكأنّهم فتنوا أنفسهم ، وإنْ عادَ على المشركين فهو واضح ، أي : فَتَنُوا المؤمنين ، والباقون (فُتِنُواْ) مبنيّاً للمفعول ، والضمير في (بعدها)

---

(١) معالم التنزيل (تفسير البغوي) : ٤٧/٥ .
(٢) الكشاف : ٦١٣/٢ ، وينظر : السبعة في القراءات : ٣٧٦ .
(٣) التبيان عن إعراب القرآن : ٨٠٨/٢ ، وينظر : السبعة في القراءات : ٣٧٦ ، والتيسير : ٣٩٥ .
(٤) الجامع لأحكام القرآن : ٤٥٠/١٢ ، وينظر : معاني القرآن : ١١٣/٢-١١٤ ، والدر المنثور في التفسير بالمأثور : ١٢٤/٩ .

للمصادر المفهومة من الأفعال المتقدمة ، أي : مِنْ بعد الفتنة والهجرة والجهاد والصبر))[١] .

ويبدو –والله أعلم– أنّ أولئك المفتونين هم المستضعفون الذين حملهم أقوياء المشركين على الرّدة والرجوع عن الإيمان فبيّن سبحانه وتعالى أنّهم لمّا هاجروا وجاهدوا وصبروا فإنّ الله غفرَ لهم تكلمهم بكلمة الكفر ، لأنّهم عُذِّبوا في الله وأكرهوا على الأرتداد عن دينهم فأعلمهم الله تعالى بالمغفرة بدليل قولهِ تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ النحل: ١٠٦ ، فقد عفى عنهم سبحانه ، لأن لسانهم هو مَنْ نطق كلمة الكفر نتيجة مالاقوه من العذاب والإكراه ، أمّا قلوبهم فقد بقيت مطمئنة بما يملأها من الإيمان بوحدانيتهِ سبحانه وتعالى[٢] .

(١) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون : ٢٩٢/٧-٢٩٣ ، وينظر : المحرر الوجيز : ٥٢٥/٨ .
(٢) ينظر : تفسير الرازي : ١٣٧/٢٠ ، وفتح القدير : ٢٣/٣ .

المبحث الثالث

ومن ذلك الإيثار الدلالي مايأتي :-

١. إيثار صيغة (فِيعَال) على صيغة (تفاعل) :

قال تعالى : ﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ الأنفال: ٤٢ .

قال الطبري في تفسير هذهِ الآية الكريمة ، والتي يخاطبُ فيها الله (ﷻ) المؤمنين ، بأنّه : ((لو كانَ اجتماعكم في الموضع الذي اجتمعتم فيه ، أنتم أيّها المؤمنون وعدّوكم من المشركين ، عن ميعادٍ منكم ومنهم (لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ) لكثرةِ عدد عدوّكم ، وقلّة عددكم ، ولكِنَّ اللهَ جمعكم على غير ميعاد بينكم وبينهم (لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا) وذلك القضاء من اللهِ كانَ نصرهُ أولياءه من المؤمنين بالله ورسولهِ ، وهلاك أعدائهِ وأعدائكم ببدر بالقتل والأسر))[١] .

فالخلاف الحاصل سيكون في الميعاد ، أي : لاختلفتم في زمان القتال ، حتى وإن ((أعلم كُلٌّ منكم الآخر بالخروج للقتال (لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ) ، أي لتخلّفتم عن الميعاد أي المواعدة أي التواعد بمعنى أنّكم لم توفوا بما أعلمتم به بل تتخلفون عن الخروج ، فالميعاد معناه التواعد))[٢] ، والميعاد في اللغة : المواعدة ووقتها ومكانها[٣] . وبذلك يتبين أَنَّ الاختلاف يكون في زمان المواعدة ، وليس الاختلاف في أنهم يتواعدون أو لا يتواعدون ، ولذا قيل : إنّهم لو تواعدوا القتال بعدما عَلِمَ كُلَّ طرفٍ حالَ الطرف الآخر ، لحدث الاختلاف في الميعاد ، هيبة من العدوّ ، ويأساً من الظفر عليهم[٤] .

إذن فمجيء (الميعاد) بدلاً من (التواعد) إنما هو للدلالة على أنَّ المراد زمان الوعد ، لا حقيقة التواعد ، فالمراد زمان وقوع الحدث ، وهو التواعد ، لا وقوع الحدث مجرّداً من الزمان ، ولذا وردَ بصيغة (الميعاد) الدالة على توكيد زمان الوعد ، إذ لم يأتِ في القرآن

---

(١) جامع البيان : ٥٦٥/١٣ .
(٢) حاشية الجمل : ٢٤٦/١ .
(٣) ينظر : اللسان : (وعد) ٤٧٨/٤ .
(٤) ينظر : روح المعاني : ٧/١٠ .

الكريم إلاّ للدلالة على الزمان[١] .

٢. إيثار صيغة (فُعُول) على صيغة (تفاعل) :

قال تعالى في تنزيهِ ذاتهِ العليّة :﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾الإسراء: ٤٣ ، فقد جاء مصدر الفعل تعالى (عُلُوًّا) وليس (تعالياً)[٢] .

والمراد بهِ المبالغة في البراءة والنزاهة ممّا وصفوه بهِ جَلَّ في عُلاَهُ[٣] .

قال البقاعي : ((و(تَعَالى) أي عَلاَ وَعَظُمَ العلو بصفات الكمال (عَمَّا يَقُولُونَ) من هذهِ النقائض التي لايرضاها لنفسه أحدٌ من عُقلاء خلقه ، فضلاً عن رئيس من رؤسائكم ، فكيف بالعليّ الأعلى))[٤] . والنكتة في هذا الإيثار بين المصدر المقيس (تعالياً) ومصدر الفعل الثلاثي (عُلُوًّا) لأرادة تحقق المعنيين ، معنى المبالغة في (تعالى) ، ومعنى التجرّد في (عُلُوًّا) ، إذ أنّه قد ((أتى بالمصدر المجرّد في قولهِ (عُلُوًّا) إيذاناً بأنَّ الفعل مجرّد في الحقيقة وإن أُتيَ بهِ على صيغة التفاعل إيذاناً بالمبالغة))[٥] . فمجيء (عُلُوًّا) – إذن – بدلاً من (التعالي) ((للدلالة على أنّ التعالي هو للأتصاف بالعلوّ بحِقّ لابمِجرّد الأدّعَاء))[٦] .

---

(١) ينظر : سرّ الأعجاز في تنوّع الصيغ المشتقة من أصل لغوّي واحد في القرآن ، د.عودة الله منيع القيسي : ١٩٢ .

(٢) ينظر : معاني القرآن ، الأخفش : ٣٩٠/٢ .

(٣) ينظر : الكشاف : ٦٦٩/٢ .

(٤) نظم الدرر : ٤٢٢/١١-٤٢٣ .

(٥) المصدر نفسه : ٤٢٣/١١ .

(٦) التحرير والتنوير : ٢٣/٢٠ .

٣. إيثار صيغة (فَعَال) على صيغة (إِفْعَال) :

قال تعالى : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ آل عمران: ٣٧ . يلحظ هنا مجيء (أفعل) في (وأنبتها) ومجيء مصدر الثلاثي (نَبَتَ) وهو (النبات) في (نباتاً) ، قال الطبري : ((معناه : وأنبتها رَبُّها في غذائِهِ ورزقهِ نباتاً حسناً))[١] . وهو في الحقيقة ((مجاز عن التربية الحسنة العائدة عليها بما يُصْلحها في جميع أحوالها))[٢] .

ومن بركة هذا النبات الحسن الذي أنبتها الله أيّاه في الدنيا ، أنها تنبت في اليوم مثل ما ينبت المولود في عام واحد ، وأمّا في الدين فلأنَّها نبتت في الصلاح والسداد والعفة والطاعة[٣] .

وذلك من الأعلام ((بكمال الأمرين من إمدادها في النمو الذي هو غيب عن العيون وكمالها في ذاتية النبات الذي هو ظاهر للعين ، فكَمُلَ في الإنبات والوقوع حسن التأثير وحسن الأثَر ، فأعرب عن إنباتها ونباتها معنى حسناً))[٤] .

وعزا ابن عاشور مجيء (نباتاً) بدلاً من (إنباتاً) لكون (نباتاً) أخفّ من (إنباتاً) ، ((فلما تسنى الإتيان به لأنّه مستعمل فصيح لم يعدل عنه إلى الثقيل كمالاً في الفصاحة))[٥] ، وهو تعليل لفظي ، والصحيح أَنّ العلّة في هذا الإيثار معنوية وهي كون ((الإنبات إنما يُنْظرُ فيه إلى صنع الله ﷻ وهو خفيّ ، فعدلت الآية عنه إلى ماهو ظاهر وهو النبات حيث تتجلّى فيه مظاهر الإبداع والقدرة ، فكان ذلك أقوى مناسبة لمقام بيان قدرة الله تعالى ولطف صنعهِ ، والإمتنان على عبادِهِ بنِعمِهِ))[٦] .

وقد ورد إيثار هذه الصيغة في سورة نوح ، قال تعالى:﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ نوح :١٧، وأشار الرازي إلى السرّ في هذا الإيثار حين قال وفيه : ((دقيقة لطيفة وهي أنّه لو قال إنباتاً كان المعنى : أنبتكم إنباتاً عجيباً غريباً ، ولما قال أنبتكم نباتاً كان

---

(١) جامع البيان : ٣٤٤/٦ .
(٢) الكشاف : ٣٥٨/١ .
(٣) ينظر : التفسير الكبير : ٣١/٨ .
(٤) نظم الدرر : ٣٥٦/٤ .
(٥) التحرير والتنوير : ٢٠٤/٢٧ .
(٦) الأعجاز الصرفي في القرآن الكريم ، د.عبد الحميد أحمد يوسف هنداوي : ١٦٨ .

المعنى: أنبتكم فنبتم نباتاً عجيباً ، وهذا أولى لأنّ الإنبات صفة الله تعالى ، وصفة الله غير محسوسة لنا ، فلا نعرف أنَّ ذلك الإنبات إنبات عجيب ، وهذا المقام مقام الاستدلال على كمال قدرة الله تعالى فلايمكن إثباته بالسمع ، وامّا لما قال : (أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا) على معنى : أنبتكم فنبتم نباتاً عجيباً كاملاً كان ذلك وصفاً للنبات بكونهِ عجيباً كاملاً ، وكون النبات كذلك أمراً شاهداً محسوساً ، فيمكن الاستدلال بهِ على كمال قدرة الله تعالى ، فكانَ هذا موافقاً لهذا المقام ؛ فظهر أَنّ العدول من تلك الحقيقة كان لهذا السرّ اللطيف))[١] .

ومثل هذا الإيثار بين (فَعَال) و(إفعال) ماجاء في قوله تعالى :﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ﴾ النساء: ٦٠ . فقد جاء المصدر على وزن (ضلال) وليس (إضلال) ، وقد انتصب ((على المعنى أي فيضلون ضلالاً))[٢] . قال أبو حيّان : ((ضلالاً ليسَ جارياً على يُضلّهم ، فيحتمل أَنْ يكون جُعِلَ مكان إضلال ، ويحتمل أَنْ يكون مصدراً مطاوع يضلّهم أي فيضلون ضلالاً بعيداً))[٣] . وهو يرى أنّ ضلالاً في الآية يحتمل أَنْ يكون مصدراً لفعل محذوف مطاوع أضلَّ ، أي يريد الشيطان أن يضلهم فيضلون ضلالاً بعيداً . والأرجح أنّه بدلٌ من المصدر القياسي (إضلال) .

وأمّا (ضلال) فهو مصدر (ضلَّ) ، قال تعالى : ﴿ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾ النساء: ١١٦، ((والمعنى : أَنّ الشيطان يريد أن يُضلّهم ثم يريدُ بعد ذلك أن يضلّوا هم بأنفسهم ، فالشيطان يبدأ المرحلة وهو يتمونها ، فهو يريد منهم المشاركة في أن يبتدعوا الضلال ويذهبوا فيه كلّ مذهب ، يريد أن يطمئن إلى أنهم يقومون بمهتهِ هو))[٤] .

---

(١) التفسير الكبير : ٣٠/١٤٠ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن : ٥/١٧١ .
(٣) البحر المحيط : ٣/٢٨٠ .
(٤) معاني النحو ، د. فاضل صالح السامرائي : ٢/٥٨٩ ، وينظر : التعبير القرآني ، د. فاضل السامرائي : ٣٦ .

٤. إيثار صيغة (فَعُول) على صيغة (تَفَعُّل) :

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ آل عمران : ٣٧ .

يُلْحَظ أنّ المصدر من (تقبّلَ) خرج على غير لفظه ، إذ القياس (فَتَقَبّلها رَبُّها بتقّبلٍ) ، والعرب تأتي بالمصادر على أصول الأفعال وإن آختلفت ألفاظها في الأفعال بالزيادة [١].

وقد ذكر الزمخشري في (قبول) وجهان[٢] :

أحدهما : أَنْ يكون آسم ما تقبّل بِهِ الشيء كالسَّعُوط لما يُسْعَطُ بهِ .

والثاني : أن يكون مصدراً على تقدير حذف المضاف ، أي : فتقبّلها بذي قبول أي بأمرٍ ذي قبول ، في كلا الوجهين يكون معنى الاختصاص ، وهو : إقامتها مقام الذكر في النذر .

والصحيح أَنّ (قَبول) مصدر (قَبِلَ) وهو مذهب سيبويه في أَنَّ هناك مصادر جاءت على وزن (فَعُول) وهي : قَبُول ، وطَهُور ، ووَضُوء ، ووَقُود ، ووَلُوع ، ولكنّ الراجّح أَنّه جاءَ بدلاً من المصدر المقيس (تَقَبُّل) ، فهو مصدر الثلاثي (قَبل) ، ومجيئه هنا لإرادة الإشارة إلى معنى صيغتي (تَفَعَّل) و (فَعَّلَ) ، ففي معنى (التفعّل) دلالة على شدّة اعتناء الفاعل بإظهار الفعل ، يقال : تَصَبّر ، أي : جَدَّ واجتهدَ في إظهار الصبر ، وكذلك (التَقَبُّل) يَدلّ على المبالغة في إظهار القبول[٣] . قال الرازي : ((فإن قيل لِمَ لَمْ يَقُل : فتقّبلها رَبُّها بتقبّل حَسَن حتى تصير المبالغة أكمل ؟ والجواب أنّ اللفظ وإن أفاد ما ذكرنا إلاّ أنّه يفيد نوع تكلّف على خلاف الطبع ، أمّا القبول فإنّه يفيد معنى القبول على وفق الطبع ، فذكر التقبّل ليفيد الجدّ والمبالغة ، ثُمَّ ذكرَ القبول ليفيد أَنّ ذلك ليس خلاف الطبع بل على وفق الطبع ، وهذهِ وإن كانت ممتنعة في حَقّ الله تعالى ، إلاّ أنّها تدلّ من حيث العناية على حصول العناية العظيمة في تربيتها))[٤] . هذا فضلا عن ما في صيغة (التفعّل) من معنى التدرّج والتتابع ، ففي استعمال صيغة (التفعّل) : إشعارٌ في معنى

---

(١) ينظر : جامع البيان : ٣٤٤/٦ .

(٢) ينظر : الكشاف : ٣٥٧/١ .

(٣) ينظر : التفسير الكبير : ٢٩/٨ .

(٤) ينظر : المصدر نفسه : ٣٠/٨ .

التدرّج والتطوّر ، والزيادة في كلّ طور تتطوّر إليه ، فضلاً عن معنى التواصل والتتابع ، حتى ظلّ بركة تحريرها – أي مريم العذراء – عليها السلام – متجدداً لها في نفسها وعائداً بركته على أمّها ، حتى ارتقت إلى العلوِّ المحمدي فكانت من أزواجه ، ومن يتصل به[١] .

٥. إيثار صيغة (أفاعيل) على صيغة (تفعّلات) :

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾ الحاقة: ٤٤ - ٤٧ .

قال الزمخشري : ((التقوّل : افتعالُ القولِ ، كأنّه فيهِ تكلّفاً من الُمفْتَعِل ، وتسمّى المتقوّلة (أقاويل) تصغيراً لها وتحقيراً ، كقولك : الأعاجيب والأضاحيك ، كأنّها جمع أفعولة من القول ، والمعنى : لو أدّعى علينا شيئاً لم نقله لقتلناهُ صبراً ، كما يفعل الملوك بمن يتكذّب عليهم معالجة بالسخط والإنتقام))[٢] . والمقصود بالخطاب النبي (ﷺ) أنّه لو تَقَوّلَ على الله شيئاً من غير القرآن لعاقبه[٣] ، ومعنى (تقوّل) : تَكلّفَ وأتى بقول من قبل نفسه[٤] ، أي افتراه ((وسميَّ الإفتراءُ تقوّلاً لأنّه قولٌ مُتَكَلّف وَكُلُّ كَاذِبٍ يتكلّف ما يكذبه))[٥] ، ولما كان التقوّل بمعنى (الكَذِب) عُدِّيَ بـ(على)[٦] .

وأمّا (الأقاويل) فقد قيل : إنّها جمع الجمع[٧] ، وهو (أقوال) التي هي جمع (قول) ،

وقد رجّحه البقاعي ((لأنّه يلزم أن لا يعاقب بما دون ثلاثة أقوال))[٨] ، على اعتبار دلالة (الأقاويل) على الكثرة ، قال آبن عاشور : ((الأقاويل : جمع أقوال الذي هو جمع

---

(١) ينظر : نظم الدرر : ٣٥٦/٤ .
(٢) الكشاف : ٦٠٧/٤ ، وينظر : التفسير الكبير : ١١٨/٣٠ .
(٣) ينظر : المحرر الوجيز : ٨٠/١٥ .
(٤) ينظر : الجامع لأحكام القرآن : ١٨٧/١٨ .
(٥) فتح البيان : ٣٠٣/١٤ .
(٦) ينظر : التحرير والتنوير : ١٤٥/٢٩ .
(٧) ينظر : البحر المحيط : ٣٢٩/٨ ، ونظم الدرر : ٣٨٠/٢٠ .
(٨) نظم الدرر : ٣٨٠/٢٠ .

قول ، أي بعضاً من جنس الأقوال التي هي كثيرة فلكثرتها جيء لها بجمع الجمع الدال على الكثرة ، أي : لو نسب إلينا قليلاً من أقوال كثيرة صادقة ، يعني لو نَسَبَ إلينا شيئاً قليلاً لم نُنزّله لأخذنا منه باليمين))[١] .

وقيل : إنَّ (الأقاويل) جمع (أقوولة) على مثال أضحوكة مفرد أضاحيك ، ((وسمّيَ الأقوال المتقوّلة (أقاويل) تصغيراً لها وتحقيراً))[٢] ، فيكون المعنى : انّه لو نسب إلينا قولاً صغيراً في القرآن لَمْ نَقُلْهُ ، وَلَمْ نأذن في قولهِ لأخذنا منه باليمين ، أي بالقوّة [٣] .

٦. إيثار صيغة (استفعال) على صيغة (تفعيل) :

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۚ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ يونس : ١١ .

إذ يقتضي القياس أن يكون المصدر على (تفعيل) أي : تعجيل ، ((فَوضِعَ (ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ) موضع تعجيله لهم بالخير إشعاراً بسرعة إجابته لهُم وإسعافهِ بطلبهم ، حتى كَأنَّ أستعجالهم بالخير تعجيل لهم))[٤] ، ومعناه أنَّ الله تعالى لو أجابَ دُعاء النّاس بالشرِّ لِمَا لهم فيه مَضَرَّة ومكروه في نفسٍ أو مَالٍ أو وَلد مثل مَا يريدون فعله معهم في إجابتهم إلى الخير لأهلكهم[٥] .

قال الرازي : ((إنّ كُلَّ مَنْ عَجَّلَ شيئاً فقد طلب تعجيله ، وإذا كان كذلك ، فكلَّ مَنْ كانَ معجِّلاً كانَ مُسْتعجلاً ، فيصير التقدير ، ولو استعجل الله للنّاسِ الشرّ استعجالهم بالخير إلاّ أنّه تعالى وصفَ نفسه بتكوين العجلة وصفهم بطلبها لأنّ اللائق به تعالى هو التكوين ، واللائق بهم هو الطلب))[٦] . فيكون ((التعجيل من الله ، والاستعجال من العبد))[٧] ، وذلك لأنّ ((مدلول عَجَّلَ غير مدلول آستعجل ؛ لأنّ عَجّلَ يدلُّ على الوقوع ،

---

(١) التحرير والتنوير : ١٤٥/٢٩ .
(٢) الكشاف : ٦٠٧/٤ .
(٣) ينظر : حاشية الجمل : ٤٠٣/٤ .
(٤) الكشاف : ٣٣١/٢ ، وينظر : التفسير الكبير : ٥١/١٧ .
(٥) ينظر : المحرر الوجيز : ١١٣/٧ .
(٦) التفسير الكبير : ٥١/١٧ .
(٧) الجامع لأحكام القرآن : ٢٢/٨ .

، واستعجل يدلُّ على طلب التعجيل وذلك واقعٌ من الله تعالى ، وهذا مضافٌ إليهم))[١] ، أي ان الاستعجال مضافٌ إلى الخلقِ .

فتبيّن بذلك أن هذا الإيثار وقع للدلالة على الطلب والمبالغة الكامنة في صيغة (استفعل) ، المنسجمة مع السياق في محاكاة الطبيعة البشرية ، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ ﴾[٢] ، وعلى هذا الأساس ((ذكرَ في جانب الشرّ (يُعَجّل) الدال على أصل جنس التعجيل ولو بأقلّ ما يتحقق فيه معناه ، وعَبَّر عن تعجيل الله الخيرَ لهم بلفظ (استعجالهم) الدال على المبالغة بما تفيده زيادة السين والتاء لغير الطلب إذ لا يظهر الطلبُ هنا وهو نحو قولهم : أستأخر واستقدم واستجلب وأستقام واستبان واستجاب واستمتع واستكبر واستخفى وقوله تعالى ((واستغشوا ثيابهم)) ، ومعناه : تعجّلهم الخيرَ ، كما حمله عليه في الكشاف للإشارة إلى انّ تعجيل الخير من لدْنه))[٣] .

وقد علل ابن عاشور ذلك ، أي : أنه ليس بمعنى طلب التعجيل ، قال : ((فليس الاستعجال هنا بمعنى طلب التعجيل ؛ لأنّ المشركين لم يسألوا تعجيل الخير ولاسألوه فحصل ، بل هو بمعنى التعجل الكثير))[٤] .

٧. إيثار صيغة (فِعّال) على صيغة (تَفْعِيل) :

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴾ النبأ: ٢٨ . فقد جاءَ المصدر على (فِعّال) بدلاً من المصدر القياسي (تفعيل) ؛ للدلالة ((على أنّهم كَذّبوا بجميع دلائل الله تعالى في التوحيد والنبوة والمعاد والشرائع والقرآن ، وذلك يدلُّ على كمال حال القوّة النظرية في الرداءة والفساد والبعد عن سواء السبيل))[٥] ، فيكون معنى (كذّاباً) : التكذيب الكبير الشديد[٦] ، ، فضلاً عن تضمنه معنى كَذّبُوا ؛ لأنّ كلّ مُكَذّب بالحق كاذب ؛ ((لأنّهم كانوا عند

---

(١) حاشية الجمل : ٣٣٦/٢ .
(٢) الأنبياء / ٣٧ .
(٣) التحرير والتنوير : ١١ / ١٠٧ .
(٤) المصدر نفسه : ١١ / ١٠٧ .
(٥) التفسير الكبير : ١٨/٣١ .
(٦) ينظر : الجامع لأحكام القرآن : ١١٨/١٩ .

المسلمين كاذبين ، وكانَ المسلمون عندهم كاذبين فبينهمِ مكاذبة))[١] ، وهذا هو السرّ في إقامة (الكِذّاب) مقام التكذيب[٢] . ((ويجوز أن يكون الكذّاب للمبالغة وصفاً لمصدر محذوف فالمعنى تكذيباً بالغاً ذلك التكذيب الى نهاية الكذب))[٣] .

ولعلَّ تضعيف العين في بناء (فِعَّال) هو الذي أكسبه الدلالة على معنى (المبالغة) ، بخلاف بناء (تفعيل) الذي لاتضعيف فيه ، ودلالة التضعيف – ولاسيمّا تضعيف العين – على المبالغة والتكثير حقيقةٌ أشار إليها الكثيرُ من علماءِ اللغةِ والصرف والتفسير [٤] .

ويستعملُ بناءُ (فِعَّال) آستعمالين :

الأوّل : اَنْ يوافق بناءَ (تَفْعِيْل) في الدلالة على معنى المصدريَّة الخاصة ببناء (فَعَّل) ، لكن مع الدلالة على معنى المبالغة تنصيصاً ، فـ (الكِذّاب) أَبْلَغ من (التَّكذيب) ، ففي قوله تعالى :﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّاغِينَ مَئَابًا ﴿٢٢﴾ لَّابِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ يتضح من السياق والمقام انّ المرادَ وصفهم بأشدِّ صورة من صور التكذيب بآيات الله .

والثـــاني : أَنْ يُسْتَغْنَى بـه عن بناء (تَفْعيل) ، وذلك أنَّ بعضَ العرب يستعملون بناءَ (فعَّال) دونَ بناء (تفعيل) ؛ وذلك لغةٌ لبعض العرب[٥] ، قال سيبويه : ((وأمَّا (فَعّلْتُ) فالمصدر منه على (التفعيل) ، جعلوا التاءَ التي في أوّلهِ بدلاً من العين الزائدة في(فَعَّلْتُ) ، وجعلوا الياءَ بمنزلة ألف (الأفْعَال) ، فغيّروا أوّلَه كَمَا غَيّرُوا آخِرَهُ ، وذلك قولُكَ : (كَسَّرْتَهُ تَكْسِيْرًا ، وعَذّبْتُهُ تَعْذِيْباً) . وقد قالَ ناسٌ : (كَلَّمْتُهُ كلاّماً ، وَحَمَّلْتُهُ

---

(١) المصدر نفسه : ١١٩/١٩ .

(٢) ينظر : تفسير البيضاوي : ٢٤٠/٤ .

(٣) حاشية الكازروني على تفسير البيضاوي : ٢٤٠/٤ .

(٤) ينظر : الخصائص : ٤٦/٣ ، وشرح الشافية ، الرضي الأستراباذي : ١٣٦/٢ ، والبحر المحيط : ٣٠٣/٥ ، وإرشاد العقل السليم : ١٣٩/٤ ، وروح المعاني : ١٠٧/١١ .

(٥) ينظر : المفتاح في الصرف ، عبد القاهر الجرجاني : ٦٤ .

حِمَّالاً) ، أرادوا أنْ يجيئوا بـهِ على (الإِفْعَال) ، فكسروا أوَّلَهُ ، وألَحقُوا الألف قبلَ آخِر حرفٍ فيهِ ، ولم يُريدوا أنْ يُبدِلوُا حَرْفًا مَكانَ حرفٍ ، ولم يحذفوا))[١] .

٨. إيثار اسم المصدر (فَعْل) على المصدر (مُفَاعَلَة) :

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُمْۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ البقـــرة: ١٠٠ ، إذ وردَ (العَهْدَ) بـدلاً مـن (المُعَاهـدة) ، وإن كـان أقـرب إلـى الأسـمية منهـا إلـى المصـدرية ؛ ولـذا قيـل : هـو آسـم مصـدر ولـيس بمصـدر ، وقـد جـاءَ نصـبه علـى أنّـه مصدر ، أو تَضَمُّن (عاهدَ) معنـى (أعطـى)[٢] . والصـحيح أنّـه مصـدر انتقلَ معنـاه مـن المصـدرية إلـى الأسـمية ، فَالعَهْد : حفظ الشـيء ومراعاتـهِ حـالاً بعد حـال ، مـن قولهم : للمطر : عَهْدٌ ، وَعِهَاد ، وللروضـة التـي أصـابها المطـر روضـةِ معهـودة ، علـى إعتبـار معنى التفقد والمراعاة ، ومنه سُمّيَ الَموْثِق الذي يلزم مراعاته وحفظه عَهْدَاً[٣] .

والعهد المقصود هو العهد الذي كانَ بينهم وبين الله تعالى ، كانَ قد أخذه عليهم إن خـرجَ النبـيّ العربـي آمنـوا بـهِ ، وأخرجـوا المشـركين مـن ديـارهم ، وأن لايعينـوا أحـداً مـن الكافرين عليه ، ولكنهم نقضوا العهد ، مع ما أظهرَ الله ﷻ من الدلائل على نبوّة محمّد (ﷺ) ، وعَلـى صـحة شـرعهِ ، ((فكـان ذلـك كالعهـد منـه سـبحانه وقبـولهم لتلـك الـدلائل كالمعاهد منهم لله سبحانه وتعالى))[٤] ، وسمة نقض العهود والغدر سمَة اليهود ، وفـي ذكر ذلك تسلية لرسول الله (ﷺ) ؛ لأنَّ مَنْ يعتاد منـه طريقة معينـة ، لا يكون فيـه صـعوبة على النفس من مخالفته ، كصعوبة مَنْ لم تجد عادته بذلك[٥] .

وقد حصل هذا الإيثار للدلالة على كون هذا الموثق المأخوذ عليهم عهداً لازماً للحفظ والرعايـة فـي ذمتهم ، فـلا مجـال لـديهم لنقضـهِ ، فهـو لـيس معاهدة وإنمـا هـم عاهـدوا أي تكلفوا بحفظ عهدٍ واحدٍ من العهود ورعايته وهو الإيمان بالنبي (ﷺ) ، وقد أخذَ عليهم هذا العهد فـي التوراة حتـى سميت التوراة بالعهد ؛ قـال ابن عاشور : ((والمراد بالعهد عهد

---

(١) الكتاب : ٧٩/٤ .

(٢) ينظر : المحرر الوجيز : ٤١٢/١ ، والبحر المحيط : ٣٢٤/١ ، وتفسير أبي السعود : ١٣٥/١.

(٣) ينظر : المفردات : ٥٩١-٥٩٢ .

(٤) التفسير الكبير : ١٨٣/٣ .

(٥) ينظر : تفسير القرآن وغرائب الرَّحمن ، النيسابوري : ٣٤٤/١ .

التوراة أي ما اشتملت عليه من أَخْذِ العهد على بني إسرائيل بالعمل بما أُمروا به أخذاً مكرراً حتى سُمّيت التوراة بالعهد ، وقد تكرر منهم نقض العهد مع أنبيائهم ومن جملة العهد الذي أُخِذَ عليهم ، أَن يؤمنوا بالرسول المُصدِّق بالتوراة))[١] .

ولعلَّ في هذا الإيثار سرّاً لطيفاً ، وهو أَنّ النقض الذي نقضوه هو العهد نفسه ، فكأنّهم ناقضين لحقيقة العهد بحيث لايؤمنون بوجودِ عهدٍ أصلاً ؛ ولذا عُبِّر عن عَدِّ إعتقادهم بِهِ بقولهِ تعالى (نَبَذَهُ) ، ومعنى النبذ ((إلقاء الشيء وطرحه لقلّة الإعتداد بهِ ، ولذلك يقال : نبذه نَبْذَ النَعْل الخَلِق))[٢] . وقطعاً فالمعاهدة هذهِ ليست كالعهد ، فهم يدخلون في المعاهدة ولايلتزمون بالعهد ، وينبغي التنبيه على أَنّ من العلماء مَنْ أعربَ (عهداً) هنا مفعولاً بهِ ، على إعتبار أَنّ معنى عاهدوا أعطوا[٣] ، ولذلك قيل إنَّ (عهداً) هنا أقرب إلى الأسمية .

٩. إيثار اسم الهيأة (فِعْلَة) على المصدر (فَعْل) :

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ الروم: ٢٨ .

ورد اسم الهيأة (خِيفَة) بدلاً من المصدر (خَوْف) في الآية الكريمة ، إذ ضربَ الله مثلاً لقوم يعقلون في معرض الردّ على المشركين الذين يعبدون من دون الله من مخلوقاتهِ ، بأنّهم لايرضون أن يشاركهم مَمَالِيكهم في الأموال ونحوها ، وهو مثلهم في البشرية ، لكنهم يرضون بأن يجعلوا لله شركاء من خَلْقِهِ سبحانه وتعالى[٤] .

وهذا الخوف وعدم الرضا ، حاصل منهم بسبب الخشية من أن يرثوهم بعد موتهم ، أو أنّ الخوف حاصل بسبب خشيتهم من أن يقاسموهم الأموال[٥] . والخوف في اللغة :

---

(١) التحرير والتنوير : ١٠٠/١ .
(٢) المفردات : ٧٨٨ .
(٣) ينظر : حاشية الجمل : ٨٤/١ .
(٤) ينظر : جامع البيان : ٣٨/٢١ ، وروح المعاني : ٥٩/٧ .
(٥) ينظر : جامع البيان : ٣٩/٢١ .

((توقّع مكروهٍ عن أمارة مظنونة أو معلومة ، وأما الخيفة : فهي الحالة التي عليها الأنسان من الخوف))[١] ، أي هي اسم هيأة على نحو الجِلْسَة والقِعْدة ، إذ يقال : فلان حَسَنُ الجِلْسَة والقِعْدة ، أي أنَّ جلسته وقعدته حسنة لاتكاد تفارقها هذهِ الهيأة الحسنة[٢]، فيكون معنى الخيفة حالة الخوف الدائمة ، قال الراغبِ : ((قوله تعالى : ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي : كخوفكم ، وتخصيص لفظ الخيفة تنبيهاً أنَّ الخوفَ منهم حالةٌ لازمةٌ لاتفارقهم))[٣] . ومثله قوله تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ طه: ٦٧ – ٦٨ لما لازم من حالة الخوف والرهبة موسى (عليه السلام) عندما رأى عِصِيَّ السحرة وَحِبَالهم أنّها تسعى ، فتبيّن أَنّه آثر مجيء (الخيفة) بدلاً من (الخوف) للدلالة على إرادة معنى آسم الهيأة ، وهي ملازمة لاطارئة على نحو الخوف .

---

(١) المفردات : ٣٠٣ .

(٢) ينظر : معاني الأبنيّة في العربية : ٣٨ .

(٣) المفردات : ٣٠٣ .

المبحث الرابع

الإيثار الدلالي بين صيغ المشتقات :

ومنه : -

أولاً : الإيثار بين صيغة اسم الفاعل وصيغ المشتقات الأخرى :

١. إيثار (اسم الفاعل) على (اسم المفعول) :

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾ الطارق: ٥ – ٧ ، ومعنى دافق : مدفوق على أنّه فاعل بمعنى مفعول على مذهب أهل الحجاز في النعت إذ يقولون هذا سرٌّ كاتم ، وهَمٌّ ناصب ، أي مكتوم ، ومنصوب[١] . وأجاز الخليل مجيء (فاعل) بمعنى (مفعول) وجعل منه قوله تعالى : ﴿ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ القارعة : ٧ ، فـ(راضيّة) عنده بمعنى (مرضيّة)[٢] .

وللفراء ثلاثة آراء تدلُّ جميعاً على أنّه يقول بوقوع (فاعل) موقع (مفعول) :

الرأي الأول : إنّ مجيء (فاعل) بمعنى (مفعول) استعمال لهجي مطرّد عند أهل الحجاز خاصة ، وذلك عندما يكون في مذهب نعت ، وإنّ من أسباب مجيئهِ في القرآن الكريم مراعاة الفواصل[٣] .

الرأي الثاني : إنّه ليس من اختصاص لهجة دون أخرى ، بل هو مستعمل عند عامة العرب إلاّ أنّه مقيّد عندهم بإفادة المدح أو الذم[٤] . وهذا يذكرنا بقوله السابق (إن كان في مذهب نعت) ، فقد اتفق الشرطان عنده إلاّ انّه كثر عند أهل الحجاز في الرأي الأول.

الرأي الثالث : إنّ دلالة فاعل على المفعول دلالة مطلقة غير مقيّدة بلهجة او مدح أو ذم ، وإنما هي كدلالة (فعيل) وغيره على مفعول مستدلاً على ذلك بأنَّ ما ورد

---

(١) ينظر : جامع البيان ، الطبري : ١٤٣/٣٠ .

(٢) ينظر : العين ، الخليل بن أحمد الفراهيدي : ٨٦/١ ، ١٣٦ ، ٦٥/٢ ، ٤١٠/٣ .

(٣) ينظر : معاني القرآن ، الفراء : ٢٥٥/٣ ، والبناء اللغوي في الفواصل القرآنية ، د.علي عبد الله العنبكي : ٤٥-٤٦ .

(٤) ينظر : معاني القرآن ، الفراء : ١٨٢/٣ .

من هذا القبيل ليس له فعل مبني للفاعل ، وإنما هو فعل مبني للمفعول ، قال : ((ولا تنكرنّ أن يخرج المفعول إلى فاعل ، ألا ترى قوله (مِن مَّآءٍ دَافِقٍ) فمعناه والله أعلم : مدفوق ، وقوله (فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ) معناها مرضيّة .. تستدلّ عل ذلك انك تقول : رضيت هذه المعيشة ، ولا تقول : رضيت ، ودفق الماء ، ولا تقول : دفق))[١] .

وللفعل المجرد (دَفَقَ) استعمالان :

الأول : استعمال الفعل المتعدِّي ، تقولُ : (دَفَقْتُ الَماءَ)، فَأَنَا دافِقٌ ، والماءُ مَدْفُوقٌ[٢] .

والثاني : استعمال الفعل اللازم ، تقولُ : (دَفَقَ الَماءُ) ، بالرفع ، فالماءُ دَافِقٌ ، كَأَنّكَ قُلْتَ : مُنْدَفِقٌ أو مُنْدَفِعٌ[٣] .

واسم الفاعل (دَافِق) في قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ ﴾[٤] ، إنَّما هو من الفعل المجرّد اللازم (دَفَقَ) لا من الفعل المجرد المتعدي ، والفرق بينهما – وهو ما أثبته البحث العلمي الحديث[٥] – انّ الدافق يدلُّ على الحركة الذاتيَّة بخلاف (المَدفُوقِ) ، ويُؤيِّدُ ذلك قوله تعالى : (يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ) ، فأسنِدَ إلى هذا (الماءِ الدافِق) فِعلُ الخروج ، فهو خارجٌ لامُخْرَجٌ ، وهذا يدلُّ على الحركة الذاتية ؛ لأنّه ماءٌ حيٌّ يخرجُ لهَدَفٍ ، ويَسعَى الى غايةٍ عظيمة (خلق الأنسان) ، فليس ماءً عاديّاً مألوفاً كماءِ البَحْر والنهرِ ، بل إنّهُ مادَّةُ الحَيَاةِ والتكاثر . قال البغوي : ((مدفوق مصبوب في الرحم وهو المني ، فاعل بمعنى مفعول كقوله تعالى : (فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ) ، والدفق : الصبّ ، وأراد ماء الرجل وماء المرأة لأنّ الولد مخلوقٌ منهما وجعله واحداً لامتزاجهما))[٦] .

---

(١) المصدر نفسه : ٢/١٥-١٦ .
(٢) ينظر : الصحاح ، الجوهري : (دفق) ٤/١٤٧٥ .
(٣) ينظر : العين ، الخليل الفراهيدي : (دفق) ٥/١٢٠ .
(٤) الطارق : ٥-٧ .
(٥) ينظر : مقدمة للتكوين الجنينّي ، ستيفن ب ، أوبنهايمر : ٥٣-٥٨ .
(٦) تفسير البغوي : ٤/٢٧٣ .

وكانَ سيبويه قد ذهب إلى أنّ (دافق) على النسب أي : ذو دفق ؛ على إعتبار أنّ معنى الدّفق في اللغة : دفق الماء بعضه لبعض كَدَفْع الوادي والسيل إذا جاء يركب بعضه بعضاً ، وعلى هذا يصحّ أنْ يكون الماءُ دافقاً لأنّ بعضه يدفع بعضاً ، فمنه دافق ومدفوق[١] . وقيل إنّ الأصل في الدَّفق : أن يكون بمعنى الصب ويكون لصاحبهِ ، وأسنادهُ إلى الماء مجاز[٢] .

فقد تقع أحدى هاتين الصيغتين (فاعل ومفعول) موقع الأخرى فيكون ذلك ضرباً من المجاز العقلي ، لأن الفعل في (راضية) ونحوها أسند إلى غير فاعلهِ الحقيقي ، وأسند ما بني للمفعول إلى الفاعل ، قال الشريف الرضي : ((... وكان الوجه أن يقال في (عيشةٍ راضية) مرضية ، ولكنّ المعنى خرّج على مخرج قولهم : شعر شاعر ، وليل ساهر ، إذا شعر في ذلك الشعر ، وسهر في ذلك الليل ، فكأنهما وصفا بما يكون فيْهما لابما يكون منهما ، فبانَ أنّ تلك العيشة لما كانت بحيث يرضى الأنسان فيها حال ، جاز أن توصف هي بالرضا ، فيقال (راضية) على المعنى الذي أشرنا إليه))[٣] ، وهو كذلك عند الخطيب القزويني[٤] ، وعدَّ آخرون ما جاء على (فاعل) بمعنى (مفعول) ضرباً من المجاز المرسل لعلاقة الأشتقاق[٥] .

وقد رفض ابن القيم أن يكون (دافق) بمعنى (مدفوق) عاداً القول بذلك تكلّفًا ، إذ قال : ((... وليس الماء الدافق بمعنى المدفوق بل هو فاعل على بابِهِ ، كما يقال ماءٌ جارٍ ، فدافق كجار ، فما الموجب للتكلّف البارد))[٦] .

---

(١) ينظر : الكتاب : ٣/ ٢٨١-٢٨٢ ، والمقتضب ، المبرد : ١٦١/٣ ، والخصائص ، ابن جني : ١٥٢/١-١٥٣ ، والمحرر الوجيز ، ابن عطيّة : ٣٩٨/١٥ .

(٢) ينظر : تفسير النسفي : ٣٣١/٤ .

(٣) تلخيص البيان في مجازات القرآن : ٣٤٤ .

(٤) ينظر : التلخيص في علوم البلاغة : ٤٥ ، وأساليب المجاز في القرآن الكريم ، أحمد حمد محسن الجبوري ، أطروحة دكتوراه ، جامعة بغداد – كلية الآداب ، ١٤١٠هـ-١٩٨٩م : ١٦٠-١٦١ .

(٥) ينظر : أساليب المجاز في القرآن : ١٦٢ .

(٦) بدائع الفوائد : ٦٨/٣ .

وجاء مثل هذا الإيثار الدلالي بين صيغتي (اسم الفاعل)و(اسم المفعول) في قوله تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴾ هود: ٤٢ – ٤٣ ، أي : إنّ مَعناه : لامعصوم[١] . إذ لايُنكر أن يخرج المفعول على فاعل ، فيكون المعنى : لامعصوم اليوم من أمر الله[٢] . قال الأصمعي وهو يتحدّث عن قوله تعالى : (لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ) ((أي لا ذا عصمة ، وذو العصمة يكون مفعولاً كما يكون فاعلاً ، فمن هنا قيل : إنّ معناه لامعصوم ... وذو الشيء قد يكون مفعولاً كما يكون فاعلاً))[٣] . وقد أراد هنا تخريجه على النسب .

ومن الملاحظ أنّ مَنْ قالَ : (يأتي العَاصِمُ بمعنى المعصوم) إنَّما قال بذلك في آيةِ هود فقط ، ولم يَقُل أحدٌ بذلك في الآيتين الأُخرَيَين اللَّتَين وَرَدَتْ فيهما كلمةُ (عَاصِم)، وهما : قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٖ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾[٤] ، وقولُهُ تعالى : ﴿ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾ ﴾[٥] ، وإنّما قيلَ بأنّ (العَاصمَ) بمعنى (المَعصُوم) في آية هودٍ فقط ؛ لوجود الاستثناءِ بعدَها : (إلاَّمَنْ رَحِمَ) فالمُستثنى ليس من جنس العَاصمِ ، بل هو من جنس المعصوم ؛ لأنَّ معنى (مَنْ رَحِمَ) : (المرحوم) ، والمرحومُ لايكونُ عَاصماً ، بل يكون مَعْصُوماً[٦] ، ولكي يُسَوّغ الأستثناء قيل : إنّ المراد بـ (العَاصِمِ) هو (المعصوم) .

وثمّةَ حقيقةٌ صرفيّة دلاليَّة مفادها أنّ اسمي الفاعل والمفعول من الفعل المتعدّي متلازمان ، وهو ماتنبّه إليه الراغب الأصفهاني إذ قال : ((وَمَنْ قالَ : مَعناهُ (لامعصوم)

---

(١) ينظر : تفسير غريب القرآن ، أبن قتيبة : ٢٠٤ .
(٢) ينظر : معاني القرآن ، الفراء : ١٥/٢ .
(٣) الخصائص : ١/ ١٥٢-١٥٣ .
(٤) يونس / ٢٧ .
(٥) غافر / ٣٣ .
(٦) ينظر : المقتضب : ٤/ ٤١٣-٤١٨ ، والتبيان في إعراب القرآن ، العكبري : ٢/ ٧٠ .

فليس يعني أن العاصم بمعنى المعصوم وإنما ذلك تثنية منه على المعنى المقصود بذلك ، وذلك أنَّ العَاصِم والمَعْصُوم يتلازمانِ ، فأيُّهمَا حَصَلَ ، حَصَلَ مَعَهُ الآخَرُ))[١] .

يبقى أَن يُقَالَ : لِمَاذا لم يأتِ السياق او النظم القرآني ببناء المفعول : (لَا مَعْصُوْمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ) ؟

والجواب : إنّ نَفَيَ المعَصوم يدلُّ عَلى نفي العَاصِم ، لكنَّ السياق القرآني آثرَ بناء اسم الفاعلِ (العَاْصِمِ) ؛ لأنّه أبلغ في نفي العصمة عن العاصين[٢] ولأنّ هذا الكلام (لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ) رَدُّ نوح (عليه السلام) على ابنهِ الذي أدّعى وجود (العاصم) ، بقوله (سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي) ، فأدّعى انَّ الجَبَلَ عَاصِمٌ لهُ من الماء ، فَكانَ مُرادُ نوح (عليه السلام) يتألف من جُزأينِ :

الأول : الردّ على دَعوى وُجُود عَاصِمَ مِنْ عذاب ذَلِكَ اليَوم غير الله تعالى .

والثاني : الدلالة على عدم وُجودِ المعصومِ ؛ لانتفاءِ العاصم من غير الله تعالى .

ولايمكن أنْ يحقق السياق ببناء المفْعُول (معصوم) هذين الجزأين معاً بالوضوح نفسه الذي حققه التعبير ببناء الفاعل (عَاصِم) ، وقد ألتفت ابن القيم(ت٧٥١هـ) الى أثر السياق في أكتساب لفظة (عاصم) لدلالتين (الفاعل والمفعول) إذ قال : ((فإنّه تعالى لمّا ذكرَ العاصم استدعى معصوماً مفهوماً من السياق فكأنّه قيل لامعصوم اليوم من أمرهِ إلاّ مَنْ رحمه فإنّه لمّا قالَ (لاعاصمَ اليومَ من أمرِ الله) ، بقيَ الذهنُ طالباً للمعصوم فكأنّه قيل فمن الذي يُعْصَم ؟ فأجيْبَ بأنّهُ لايُعْصَمُ إلاّ مَنْ رَحِمَهُ الله ، وَدَلَّ هذا اللفظ باختصار وجلالته وفصاحته على نفي كلّ عاصم سواه ، وَعَلى نَفي كُلِّ مَعْصُوم سِوَى مَنْ رَحِمَهُ اللهُ ، فدَلَّ الأستثناءُ عَلى أمْرَينِ : عَلى المعُصَومِ مَنْ هُوَ وَعلى العَاصِمِ ، وهُوَ ذُو الرَّحَمةِ ، وهذا مِن أبْلَغِ الكلامِ وأفَصحهِ وأوجزَهِ))[٣] .

---

(١) المفردات : ٣٣٧ ، ونقل الطوسيّ عن ابن كيسان (ت٢٢٩هـ) قريباً من هذا القول ، ينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٤٩١/٥ .

(٢) ينظر : التبيان في إعراب القرآن ، العكبري : ٧٠/٢ .

(٣) بدائع الفوائد : ٥٧٤/٣ .

٢. إيثار صيغة (اسم الفاعل) على (الصفة المشبهة) :

قال تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِۦ صَدْرُكَ ﴾ هود: ١٢، إذ جاءت ضائق بمعنى ضيَّق ، لأنّ الوصف من الفعل ضَاقَ – يَضيقُ هو (ضيّق) ، وهو من ألفاظ الصفة المشبهة التي تدلُّ على الثبوت[١] ، إلاّ أنّه لمّا أُرِيدَ في الآية الكريمة حدوث صفة الضيق وعرضها اختار بناء اسم الفاعل فقيل (ضائق) بدلاً من (ضيّق) ، قال الزمخشري (ت٥٣٨هـ) : ((إن قُلتَ : لمَ عُدلَ عن ضيّق إلى ضائق ، قلتُ : ليدلّ على انّه ضيقُ عارضٌ غَيرُ ثابتٍ ، لأنّ رسول الله (ﷺ) كان أفسح الناس صدراً ، ومثله قولك : زيدٌ سيّد وجواد ، تريد السيادة والجود الثابتين المستقرين ، فإذا أردت الحدوث قلت : سائِد وجائِد))[٢] .

والملاحظ – أيضاً – في ورود (ضائق) بدل (ضيّق) موافقته لـ(تارِك) ، فكلاهما على البناء نفسه والمعنى الحادث ، قال ابن عاشور : ((وضائِقٌ : اسم فاعل من ضاقَ ، وإنّما عُدل عن أن يقال (ضيّق) هنا إلى (ضائق) لمراعاة النظير مع قوله (تارك) ؛ لأنّ ذلك أحسن فصاحة ، ولأنَّ (ضائق) لا دلالة فيه على تَمُكّنِ وصفِ الضيقِ بصدره ، بخلاف ضيّق ، إذ هو صفة مشبهة وهي دالة على تمكّن الوصف من الموصوف إيماءً إلى أنّ أقصى ما يتوهم توقعه في جانبهِ (ﷺ) هو ضيقٌ قليلٌ يعرض له ، والضيق يستعمل مجازاً في الغَمِّ والأسف ، كما استعمل ضدّه وهو الأنشراح في الفرح والمسرّة))[٣].

وعلى هذا فإنّ ضيق صدر النبي (ﷺ) إنما هو ضيق طارئ ممّا يعرض له –أحياناً– في تبليغ الرسالة من الشدائد[٤] . فالمقام هنا مقام الدلالة على الحدوث والعوارض ، وليس مقام الدلالة على الثبوت والاستقرار ، لذا استدعى السياق اختيار اسم الفاعل (ضائق) بدل الصفة المشبهة (ضيّق) .

---

(١) ينظر : الشافية في علم الصرف ، ابن الحاجب : ١/ ٢٥ ، والتطبيق الصرفي ، عبده الراجحي : ٧٩ .

(٢) الكشاف : ٢/ ٣٨٢ .

(٣) التحرير والتنوير : ١١/ ١٦ .

(٤) ينظر : روح المعاني : ١٩/١٢ .

ثانياً : الإيثار بين صيغة المبالغة والمشتقات الأخرى :

١. إيثار صيغة المبالغة على اسم الفاعل :

ورد لفظ (كَظِيمٌ) في القرآن الكريم ثلاث مرّات ، في قوله تعالى : ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾يوسف: ٨٤ ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ النحل: ٥٨ و الزخرف /١٧ .

وقد ذُكِرَ في (كظيم) في سورة يوسف قولان[١] :

الأول : إنّه فعيل بمعنى مفعول .

والثاني : إنّه صيغة مبالغة في الفاعل ، ومعنى كظيم شديد الكظم الممسك لغيظهِ وحزنهِ فلا يظهره لأحد .

وقد رَجّحَ أبو حيّان القول الثاني ؛ لأنّه اللائق بحال يعقوب (عليه السلام)[٢] . وكذلك رَجّحه الآلوسي[٣] . إذ يبدو من سياق الآية أنّها جاءت في بيان حال يعقوب (عليه السلام) بعد فقده ولده يوسف (عليه السلام) لمدة (أربعين) عاماً[٤] ، ولم يشكُ يعقوب (عليه السلام) حزنه إلاّ إلى الله طيلة هذهِ المدّة ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ يوسف: ٨٦ ، فكان يكتمه في نفسه ويمسك همّه ولا يرسله بالشكوى والضجر ، فالموضع موضع مبالغة فجاءت (فعيل) مناسبة لتأكيد هذا المعنى .

وكذلك يترجح في لفظ (كظيم) في قوله تعالى : (ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ) ، ان يكون فعيلاً بمعنى فاعل ، وقد ذُكِرَ فيه القولان أيضاً : الدلالة على المفعول والدلالة على الفاعل[٥] ؛ لأنّهم في الجاهلية كانوا يُعدّون ولادة الإناث عَاراً ومنقصة لهم ، لذلك كان يحاول مَن يبشر بالأنثى أن يخفي حزنه عن الناس لكي لا يكون حزنه وغيظه دليلاً على أنّه قد وُلِدَت لَهُ أنثى فهو يجهد نفسه في كظم غيظهِ لئلا يراهُ احد : ﴿ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن

---

(١) ينظر : الكشاف : ٤٩٨/٢ ، وزاد المسير : ٤ / ٢٧١ .
(٢) ينظر : البحر المحيط : ٣٣٨/٥ .
(٣) ينظر : روح المعاني : ٣٧/١٣ .
(٤) ينظر : المصدر نفسه : ٣٧/١٣ .
(٥) ينظر : المصدر نفسه : ١٥٣/١٤ .

سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴾ النحل: ٥٩ . وأمّا ما أستدلوا به على دلالة (كظيم) على (مكظوم) وهو قوله تعالى : ﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴾ القلم: ٤٨، نجد فيه دليلاً على أَنَّ (كظيماً) فاعلٌ لا مفعول ؛ لأنّ مَنْ وُصف بـ (مكظوم) وهو النبي يونس (عليه السلام) لم يكظم غيظه بل كان مملوءاً غيظاً من قولهم : كظم السقاء إذا ملأه ، ولذلك أمرَ الله رسوله الكريم محمد (ﷺ) بان لا يكون كصاحب الحوت أي : ((لا يوجد منك ما وجد منه من الضجر والمغاضبة فتبتلى ببلائهِ))[١].

٢. إيثار صيغة المبالغة على اسم المفعول :

ورد لفظ (الركام) في القرآن الكريم مرّة واحدة ، في قوله تعالى : ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا ﴾ النور: ٤٣، إذ جاء صفة مشبهة بمعنى اسم المفعول (مركوم) ، قال ابن عاشور : ((وزن فُعَال وفُعَالة يدلُّ على معنى المفعول ، فالركام بمعنى المركوم كَمَا جَاءَ في قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ ﴾))[٢] .

ولفظة (ركام) من الألفاظ التي تفيد معنى التجمع وهي من الركم ، والركم في اللغة جمع الشيء بعضه فوق بعض حتى يُجْعَلُ ركاماً ، أي : مركوماً[٣] .

وكما أفادت صيغة (فعال) المبالغة في الألفاظ الدالة على التفرّق والتحطم ، أفادت المبالغة في هذا اللفظ أيضاً ، إذ المراد بالركام السحاب الكثير المتراكم بعضه فوق بعض[٤] ، لذا يستحيل السحاب المركوم لتثاقله مطراً ﴿ فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾

---

(١) ينظر : الكشاف : ٥٩٦/٤ .

(٢) التحرير والتنوير : ٢٦١/١٨ .

(٣) ينظر : اللسان (ركم) .

(٤) ينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٤٤٦/٧ ، والكشاف : ٢٤٥/٣ ، وزاد المسير : ٥٢/٦ .

النور: ٤٣ ، والودق المطر[١] ، ولمّا كانَ النازِلُ مِنَ السّماَءِ قِطعة واحدة (كسفاً)[٢] ، شُبِّهَ بما هُوَ أقل من (ركام) وهُوَ (مركوم) على خلاف الآية الأولى ، إذ أُرِيدَ المبالغة والتكثير فقيل (ركام) .

٣. إيثار صيغة المبالغة على الصفة المشبهة :

وردَ في القرآن الكريم على بناء (فُعّال) الذي يفيد المبالغة ، لفظٌ واحدٌ هو (كُبّار) ، في قوله تعالى : ﴿ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ﴾ نوح: ٢٢ ، وهي مشتقة من الفعل اللازم (كَبُرَ) وهي تفيد المبالغة أكثر من كبير وكُبَار ، قال الطبري : ((والكُبّار هو الكبير ... تقول العرب : أمرٌ عجيب ، وَعُجَاب – بالتخفيف – وَعُجّاب بالتشديد ، ورجلٌ حُسَان ، وحُسّان ، وجُمَال ، وجُمّال ... وكذلك كبير ، وكُبّار))[٣] .

والمقصود بالمكر الكُبّار هو قولهم لأتباعهم : ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ﴾ نوح: ٢٣ فهم ((منعوا القومَ عن التوحيد وأمروهم بالشرك ، ولمّا كان التوحيد أعظم المراتب ، لاجَرَمَ أنّهُ كَانَ المنْعُ منه أعظم الكبائر . فلهذا وصفه الله تعالى بأنّه كُبّار ، والأستدلال بهذا من فضل علم الكلام على سائر العلوم ، فقال : الأمرُ بالشرك كُبّار في القبح والخزي ، فالأمر بالتوحيد والأرشاد وجبَ أن يكونَ كُبّار في الخير والدين))[٤] ، وعليه يكون مكر هؤلاء متناهياً في الكبر ؛ لأنّه دعوةٌ إلى الضلال والشرك باللهِ ونبذ فكرة التوحيد التي قامت عليها الأديان السماوية ، فمجيئه بلفظ المبالغة هنا بدلاً من الصفة المشبهة (كبير) أو (كُبَار) بالتخفيف ؛ لأنّ الموضع يستدعي الغاية في المبالغة .

وعليهِ فإنّ (كُبَّاراً) هي مبالغةٌ في بناء الصفة المشبهة ، وليست من أبنية المبالغة في اسم الفاعل ، يقول آبن عاشور : ((وكُبّار : مبالغة أي كبير جداً ، وهو وارد بهذهِ

---

(١) ينظر : تفسير غريب القرآن ، أبن قتيبة : ٣٠٦ .

(٢) جاءَ في لسان العرب ، مادة (كسف) : الكسف والكسفة والكسيفة القطعة ممّا قطعت .

(٣) جامع البيان : ٦٢/٢٨ ، وينظر : المفردات في غريب القرآن : ٤٣٤ .

(٤) التفسير الكبير ، الرازي : ٣٠٥/٣٠ .

الصيغة في ألفاظ قليلة مثل : طُوّال أي طويل جداً ، وَعُجّاب : أي عجيب ، وحَسّان ، وجَمّال أي جميل ، وقرّاء لكثير القراءة))[١] .

ثالثاً : الإيثار بين صيغة اسم المفعول والمشتقات الأخرى :

إيثار اسم المفعول على اسم الفاعل :

ففي قوله تعالى : ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴾ مريم : ٦١ ، جاء اسم المفعول (مأتياً) بدلاً من اسم الفاعل (آتياً) ، قال ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) : ((ومنه أن يأتي الفاعل على لفظ المفعول به ، وهو قليل ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴾ أي : آتياً))[٢] .

ولكنّ ثمة آراء أخرى خالفت ماذهب إليه ابن قتيبة ، وهي على النحو الآتي :

ا. **ذهب الطبري** (ت٣١٠هـ) إلى أَنَّ وَعْدَ الله في هذا الموضع هو مَوْعَودَهَ ، وَهُوَ الجَنّةُ ، فهوَ مَأتِيٌّ يَأتِيه أولِيَاؤُهُ وَأهَلُ طاعتِهِ الذينَ يَدْخَلونَهَا[٣] .

ب. **وذكر السمرقندي** (ت٣٧٥هـ) : أنّ مَا أَتَيتَهُ فَقَد أَتَاكَ ، ومَا أَتَاكَ فَقَد أَتيتَهُ ، كما يُقَال : أَتَيْتُ عَلَى خمسين سَنَةً ، وَأَتَتْ عَلَيَّ خَمْسُونَ سَنَةً . وقيلَ : إنّه كقولِكَ : أتيتُ خَيْرَ فُلانٍ ، وَأتانِي خَيرُ فُلانٍ[٤] .

ج. **وذهبَ الرضي** (ت٦٨٦هـ) إلى أَنّه مِنْ (أَتَيْتُ الأَمرَ) ، أي : فَعَلْتُهُ ، فالمعنى : إِنّ وَعْدَ اللهِ كَانَ مَفْعُولاً[٥] .

والرأي الأول هو الصواب ؛ لأنّ هذا الإتيان يمتازُ بأمرين :

الأول : أنّه في الآخرة لا في الدنيا .

الثاني : أنّه في الثواب لا في العقاب .

---

(١) التحرير والتنوير : ٢٠٧/٢٩ .

(٢) تأويل مشكل القرآن ، ابن قتيبة : ٢٩٨ ، وينظر : الصاحبي ، ابن فارس : ٢٢٠ .

(٣) ينظر : جامع البيان ، الطبري : ١٢٧/١٦-١٢٨ ، والتفسير الكبير ، الرازي : ٢٣٦/٢١ .

(٤) ينظر : بحر العلوم ، السمرقندي : ٣٨١/٢ ، والتبيان في تفسير القرآن ، الطوسي : ١٣٨/٧ .

(٥) ينظر : شرح الرضي على الكافية : ٤١٥/٣ .

والوعيد بإتيان الساعة – كَمَا يُفْهَمُ من سياق الآية الكريمة – إنّما يدلُّ على أنّ المقصود بها الآخرة ، فالمؤمنُ ينتظرُ السَّاعة لينال الثوابَ ، وعليه اختصَّ نعيمُ الآخرة بأنّه يُؤتى لايأتي ، فيكون مأتياً لا آتياً ؛ وذلك ((أَنّ الوعدَ هُوَ الجَنّة وَهُمْ يأتونها))[١] .

وقد وقع مثلُ هذا الإيثار بين صيغة اسم المفعول (مستوراً) ، واسم الفاعل (ساتراً) في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ الإسراء: ٤٥ ، قال الأخفش (ت٢١٥هـ) معللاً وقوع (مستوراً) موقع (ساتراً) : ((لأنّ الفاعلَ قد يكون في لفظ المفعول ، كما تقول : إنّكَ مشؤوم علينا وميمون ، وإنَّما هو : شائم ويامن ؛ لأنّه من : شأمهم ويمنهم ، والحجاب –هاهنا– هو الساتر ، وقال : (مستوراً)))[٢] .

وجوّز الزجاجي (ت٣٣٧هـ) : ((أن يكون (مستوراً) على غير معنى (ساتر) ، فيكون الحجاب ما لايرونه ولا يعلمونه من الطبع على قلوبهم))[٣] .

وَعَدَّ ابن خالويه (ت٣٧٠هـ) هذا الإيثار في المعنى وأمثاله من باب المجاز[٤] .

وذكر ابن منظور (ت٧١١هـ) بأنّ معنى (مستوراً) : مَانعًا ، قال : ((وجاءَ على لفظ (مفعول) ؛ لأنّه سُتِرَ عن العَبدِ ، وقيل : ((حجاباً مَسْتُوراً) أي : حِجَاباً ، والأوّلُ مَستورٌ بالثاني ، يراد بذلك كثافة الحجاب ، لأنه جَعَلَ على قُلُوبِهم أَكِنّةً وفي آذانهم وَقْرَا))[٥] .

ولاشَكّ في أنّ المقصود من بناءِ (مَسْتُور) هو الدلالةُ على (المفعوليّة) فهذا الحجابُ مستورٌ ، وثمَّة سَاتِرٌ له ، وليسَ المقصود بهِ حِجَاباً ماديّاً ، إذ المقامُ ليسَ مَقَامَ تَغْطيّة المادِّيَّات أو حَجْبَها ، وإنّما المرادُ أَنَّ ثَمَّةَ حِجَاباً خفيّاً لاتَرَاهُ العينُ ، جَعَلَهُ الله تعالى بين النبي (ﷺ) حينَ كانَ يقرأ القرآن وبين الكُفّار ، كَمَا جَعَلَ عَلى قُلُوبِهم أكنّةً لاتُرى ، تَمْنَعُهُم مِنْ فقهِ القرآن الكريم ، وفي آذانِهم وَقراً يَمْنَعُهُم مِنْ سَمَاعِهِ ، قال سيّد قطَب : ((فَهكَذا كانَ القومُ تتأثرُ بالقرآن فِطرَتُهُم فَيَصُدَّونَها ، وَتُجاذِبُهُم إليهِ قُلُوبُهُم

(١) الكشاف ، الزمخشري : ٢٧/٣ ، وينظر : المفردات في غريب القرآن ، الراغب الأصفهاني : ٩ .
(٢) معاني القرآن ، الأخفش : ٣٩١/٢ .
(٣) معاني القرآن وإعرابه ، الزجاجي : ٢٤٢/٣ .
(٤) ينظر : ليس في كلام العرب ، ابن خالويه : ٣١٨ .
(٥) لسان العرب ، ابن منظور : (ستر) ٣٤٤/٤ .

فَيُمَانعونها ، فَجَعل اللهُ بينهم وبَيْنَ الرَّسُولِ حِجَاباً خَفِيّاً ، لايَظهرُ للعيُونِ ، وَلكِنْ تُحِسُّهُ القُلوبُ ، فإذَا هُم لاينتَفِعُونَ بِهِ ، ولايَهْتَدونَ بالقرآنِ الذي يَتلوه))[١] .

ومن ثَمَّ فإنَّ سياق الآية الكريمة هو مَنْ حَددَّ وقوع لفظة (مَسْتُوراً) ؛ لتكونَ فاصِلةً مناسِبةً للفواصل السابقة واللاحقة في سورة الأسراء : (غفوراً – مستوراً – نفوراً ...) ، والتي تنتهي بحرف الراء المتبوع بالألف المنقلبة عن التنوين عند الوقف[٢] .

رابعاً : الإيثار بين الصفة المشبهة وصيغ المشتقات الأخرى :

١. إيثار الصفة المشبهة على اسم الفاعل :

من ذلك قوله تعالى : ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴾ النازعات : ١١ ، فقد وردت الصفة المشبهة (نخرة) بدلاً من صيغة اسم الفاعل (ناخرة) على الرغم من مجيء فواصل الآي التي قبلها ، والتي بعدها على صيغة اسم الفاعل (الراجِفَة ، الرّادِفَة ، وَاجِفة ، خاشِعَة ، الحافِرة ، نَخِرة ، خاسِرَة)[٣] فواصل الآيات (٦-١٢) .

يقال : نَخرَ الشيء إذا بَلِيَ وتفتت فَهُوَ نَخِرٌ[٤] ، وهناك مَنْ عَدّ صيغة (نخرة) بناء مبالغة والمعنى شديدة البلِي[٥] ، قال الزمخشري : ((يقال : نَخِرَ العَظْمُ فَهُوَ نَخِر وناخِر كقولك في طَمِعٌ وطامع ، وفَعِل أبلغ من فاعل ... وهوَ البالي الأجوف الذي تمرَّ فيه الريح فيسمع له نخير))[٦] .

وقد وردت في الآية الكريمة قراءتان : (نخرة) و (ناخرة) ، ((وفرّقوا بينهما فقالوا : النخرة : البالية ، والناخرة : المجوّفة التي تمرّ بها الريح فتنخر فيها ، أي : تصوّت))[٧] ، وقيل : ((الناخرة التي أكِلَت أطرافها وبقيت أوساطها ، والنخرة : التي فسدت كلّها))[٨] ،

---

(١) في ظلال القرآن ، سيد قطب : ٢٢٣٢/٤ .
(٢) ينظر : البناء اللغوي في الفواصل القرآنية ، د.علي عبد الله العنبكي : ٣٥ .
(٣) ينظر : جامع البيان : الطبري : ٣٠ / ٣٥ .
(٤) ينظر : معجم مقاييس اللغة ، الأزهري : ٤٠٥/٥ .
(٥) ينظر : الكليات ، أبو البقاء العكبري : ٩١٠/٤ .
(٦) الكشاف ، الزمخشري : ٢١٢/٤ .
(٧) تفسير البغوي : ٤٤٣/٤ ، وينظر : الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي : ١٩٧/١٩ .
(٨) ينظر : تفسير البيضاوي : ٤٤٦/٥ .

وإنما جاء وصف العظام بالصفة المشبهة (نخرة) لأنَّ الآية في معرض إنكار المشركين وتكذيبهم لفكرة البعث لزعمهم أنّ حجّة استحالة البعث قائمة وهي صيرورتهم عظاماً متفتتة شديدة البلي بعد الموت ، دلَّ على ذلك الاستفهام الذي جاء في سياق الإنكار ﴿ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ ، لذا فالتعبير بالصفة المشبهة (نخرة) أبلغ من التعبير باسم الفاعل (ناخرة) ، ذلك أنّ صيغة (نخرة) تدلّ على الثبوت ، في حين تدلُّ صيغة (ناخرة) على الحدوث[١] . فالمعنى مختلف بين الصيغتين ، وقد قيل : أن (النخرة) التي بليت ، أما (الناخرة) فهي التي لم تُنخر بعد[٢] .

ومنه أيضا مجيء (حفيظ) وهي صفة مشبهة ، بدلاً من اسم الفاعل (حافِظ) في قولهِ تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ﴾ ق: ٤ ، وذكر فيه المفسرون وَجهين[٣] :

الأول : أنْ يكونَ بمعنى (محفوظ) أي ممتنع من الذهاب بالبلى والدروس فهو محفوظ من التغير أو محفوظ من الشياطين ، والمراد بالكتاب ، اللوح المحفوظ الوارد ذكره في قوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ البروج: ٢١ – ٢٢.

الثاني : أن يكون بمعنى فاعل أي حافظ لِمَا أودع وكَتَبَ فيه .

وعَدَّ الرازي الوجه الثاني هو الأرجح وذلك لأنَّ ((الحَفِيظ بمعنى الحافظ وارد في القرآن الكريم ، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾[٤] ﴿ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ﴾[٥] .. وهو مستغن عن أَنْ يُحْفَظَ))[٦] .

---

(١) ينظر : العدول الصرفي في القرآن الكريم : ٦٣ .

(٢) ينظر : روح المعاني ، الآلوسي : ٣٠ / ٢٨ .

(٣) ينظر : جامع البيان : ١٤٩/٢٦ ، والتبيان في تفسير القرآن : ٣٥٨/٩ ، والكشاف : ٣٨٠/٤ ، وأنوار التنزيل : ٤٢١/٢ .

(٤) الأنعام / ١٠٣ ، هود / ٨٦ .

(٥) الشورى / ٦ .

(٦) التفسير الكبير : ٢٨ / ١٥٢ .

ولو نظرنا إلى سياق الآيات التي ورد فيها (كتابٌ حفيظٌ) لرأينا أن تأويل حفيظ بالفاعل أنسب من تأويله بالمفعول ، فسياق هذهِ الآيات ورد في تعجب الكافرين من البعث وأستبعادهم له بزعمهم أنهم سيؤولون بعدَ الموتِ إلى تراب مختلط بتراب الأرضِ ، فقالوا : ﴿ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾ ق: ٢ – ٣ ، فجاء الردّ عليهم بدحض هذه الحجّة بقوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ﴾ ، أي قد علمنا ما تأكل الأرضُ من أجسادهم[١]، وما اختلط منها بترابها إذا ماتوا وجميع ذلك محفوظ في كتاب (وعندنا كتاب حفيظ) ، فالكتاب حافظ لأعمالهم ولأجزاء أجسادهم المتفتتة فهو لاينسى شيئاً منها ، فتأويل حفيظ بالحافظ أنسب في الرّد على زعمهم أنهم لايبعثون لما في ذلك من الوعيد فإنّما يكون الوعيد بما له الأثر لابما عليه ، فلو أريد أنّه محفوظ لما كان فيه ما يخيف .

كذلك وقع مثل هذا الإيثار بين أليم ومؤلم في قوله تعالى : ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾ البقرة: ١٠، وقد وُصِف العذاب بكونهِ أليماً في مواضع عدّة في القرآن الكريم ، و(أليم) صفة مشبهة مشتقة من ألمَ يَألَمُ فهو آلِم ، والألم : الوجع الشديد[٢] ، كما يقال : ضَرْبٌ وجيعٌ بمعنى موجع ، وعلى نحوه جاء قوله تعالى : (وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)[٣] .

وذهبَ الزمخشري إلى عَدّ وصف العذاب بكونه (أليماً) للمفعول وليس للفاعل على طريقة قولهم : جَدّ جِدَّه ، وكذلك الألم في الحقيقة للمؤلم كما أنّ الجِدّ للجادّ[٤] . على اعتبار أنّه مجاز في التركيب ((للمبالغة فيكون محوّلاً من فعل لها ، ونسبته الى العذاب مجازٌ ؛ لأنّ العذاب لايألم ، إنّما يَألمُ صاحبه فصار نظير قولهم شعر شاعر والشعر لايشعر إنّما الشاعر ناظمه))[٥] .

---

(١) ينظر : تفسير غريب القرآن ، ابن قتيبة : ٤١٦ .
(٢) ينظر : المفردات : ٨٢ .
(٣) ينظر : جامع البيان : ١٢٣/١ ، والجامع لأحكام القرآن : ١/ ١٩٨ .
(٤) ينظر : الكشاف : ١/ ٦٠ ، وتفسير أبي السعود : ٤٢/١ .
(٥) البحر المحيط : ١/ ٥٩ .

ويبدو أنّه مجاز في الإفراد ((فأليم فعيل من الألم بمعنى مُفْعِل كالسميع بمعنى المسمع))[١] . فيكون (أليم) صفة مشبهة يدلُّ على المبالغة لشدّة عذاب الله للمنافقين في الآخرة فضلاً عن كونه لازماً ، ومعنى (أليم) شديد الألم وهو الوجع اللازم الذي يخلص الى قلوبهم[٢] . ودلالة وقوع الصفة المشبهة (أليم) بدلاً من اسم الفاعل (مؤلم) هي إثبات كون الألم دائماً ، وكأنّ الوجع فيه صفة لازمة له لا تغيّر فيها ولا تبديل .

٢. إيثار الصفة المشبهة على صيغة المبالغة :

وردت لفظة (عُجَاب) على صيغة (فُعَال) التي عُدّت من أبنية الصفة المشبهة في قوله تعالى : ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ ص: ٥ .

ولفظة (عُجَابٌ) هنا على صيغة (فُعَال) جاءت مبالغة في فعيل أي أنّ (عجاباً) مبالغةً في (عجيب) ، فكثيراً ما يأتي الوصف على (فُعَال) مبالغة في (فعيل) كطوال بمعنى طويل إلاّ أنَّ طوالاً أبلغ من طويل ، قال الرضي الأستراباذي : ((الغالب في باب فعل فعيل ، ويجيء (فعال) – بضم الفاء وتخفيف العين – مبالغة فعيل في هذا الباب كثيراً ، لكنه غير مطرد ، نحو طويل وطوال ، وشجيع وشجاع ...))[٣].

وهذا يعني أَنّ الموضع الذي استعملت فيه (عجاب) أفادت المبالغة ممّا يتطلب استعمال (فعال) دون (فعيل) ، ولكي نتبيّن وجه المبالغة نرجع الى السياق القرآني الذي وردت فيه (عجيب) و(عجاب) .

وردت لفظة (عجيب) في موضعين الأول : في قول زوجة إبراهيم (عليه السلام) لمّا بُشّرَتْ بولادتها لغلام ، قال تعالى : ﴿ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ هود: ٧٢ ، أمّا الموضع الثاني فقد كان تعجب الكافرين من أَن يأتيهم الله بمنذر منهم ينذرهم ، قال تعالى : ﴿ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ ق : ٢ .

---

(١) البحر المحيط : ٥٣/١ .

(٢) ينظر : نظم الدرر ، البقاعي : ١/ ١٠٩ .

(٣) ينظر : شرح الشافية : ١٠٩/١ .

والملاحظ أنّ الأمرين المتقدمين ممّا يثير العجب ، ففي سياق الآية الأولى توافرت كلّ دواعي العجب ، إذ كيف تلد إمرأة عجوز وبعلها شيخٌ كبير ، ففي ذلك غاية الغرابة والعجب ، فالمعهود أنّ العجوز لا تلد فإذا كانت عقيماً ، كانت الولادة أبعد ، فإذا أجتمع كلّ ذلك أنّ بعلهَا بلغ من الكبر عتيّاً كانَ الأمر أشد ، ولذا أكّدَ بناء (عجيب) بـ(أن واللام) وفي سورة (ق) كان الأمر عجيباً أيضاً ، إذ كيف يكون المنذر والرسول من عامة البشر يأكل ويشرب ويمشي في الأسواق ، ولهذا أكّدت آياتٌ كثيرة أنّ الرسول بشر ، وأنّه ليس من الملائكة .

أمّا الآية التي وردت فيها لفظة (عُجَاب) ، فقد جاءت في سياق أمر هو أكثر خطورة وأعظم وهو ما قامت عليه نبوّة الرسول(ﷺ) ذلك أنّه طالبهم بتوحيد الله ونبذ عبادة الأصنام والنهي عن الأشراك بهِ وهذا ما أنكروه غاية الإنكار ولم يقبلوه ، قال ابن كثير : ((أَنكرَ المشركون ذلك – قبحهم الله – وتعجبوا من ترك الشرك بالله ، فإنّهم كانوا قد تلقوا من آبائهم عبادة الأصنام وأشربته قلوبهم ، فلما دعاهم رسول الله إلى قلع الأوثان وإفراد الآله بالوحدانية أعظموا ذلك وتعجبوا وقالوا :(أجعل الآلهة إلهاً واحداً إنّ هذا لشيء عُجَاب))[١] .

فلما كان الموضع أكثر مبالغة آثر مجيء صيغة (عُجَاب) بدلاً من صيغة (عجيب) ، لأنّ هذا الإيثار لابُدَ أن يكمن وراءه أثرٌ يقتضيه السياق – والله أعلم– .

(١) مختصر تفسير ابن كثير : ٣/ ١٩٧ ، وينظر : الجامع لأحكام القرآن : ١٥/١٥٠ .

الدلالة الصرفية :

الدلالة أنواع ووجوه منها الدلالة الصرفية التي نعني بها (دلالة الأبنية) ، وهي عبارة عن المعاني المختلفة المتعلقة بجهة الهيئات ، والصيغ الواردة على المفردات(١). ونستطيع أن نسميها بـ((الدلالة الصرفية))(٢). ومعرفة الصيغ مما تكفّل به علم الصرف ففيه تعرف الأبنية ، ويفرّق بين وزن وآخر، ومعرفة تصريف الكلمة وإرجاعها إلى أصلها يعين في بيان المعنى الراجح من الأقوال الواردة فيها(٣). ومن هنا جاءت عناية العرب بصيغ الألفاظ وما تدلّ عليه كلّ صيغة(٤). ونعني بالصيغة هنا ورود الكلمة على حالةٍ معينة من بين الصيغ التي تجدها في تصريف الكلمة(٥)، والتي تكون ضمن قالب صرفي توضع فيه هذهِ المادة اللغوية(٦) .

وهذهِ الصيغة لها أثر في إضفاء الدلالات المختلفة على التعبير فقد تهيمن الصيغة على البناء العام للنص سواء على مستوى الجملة أو النص بأكمله وتحدث التأثير المطلوب(٧) ، وقد أنتجت الكلمة من بين الوحدات الدلالية لتمثل المرتبة الأولى ، لِمَا فيها من مكونات دلالية أولاً ، وارتباطها بالسياق التركيبي ثانياً ، فنحن نعيش عصر الكلمة منطوقة كانت أم مكتوبة(٨) ، ففي اختيار الكلمة الخاصة بالمعنى خلق وإبداع(٩) .

---

(١) ينظر : البرهان في علوم القرآن ، الزركشي : ٢/ ١٩٠ .
(٢) دلالة الألفاظ ، إبراهيم أنيس : ٤٧ .
(٣) ينظر : قواعد التفسير : ٢٣٧/١ .
(٤) ينظر : الصاحبي ، أحمد بن فارس : ٢٢٠-٢٢٥ ، ومعاني الأبنية : ٥ ، والتعبير القرآني : ٢٤
(٥) ينظر : جماليات المفردة القرآنية : ٢٤١ .
(٦) ينظر : أقسام الكلم في الجملة العربية : ٩١ .
(٧) ينظر : مستويات النظم في التركيب القرآني ، عبد الواحد زيارة أسكندر المنصوري ، أطروحة دكتوراه ، مقدمة إلى كلية الآداب ، جامعة البصرة ، ١٩٩٨م : ٤١ .
(٨) ينظر : علم الدلالة ، لاينز : ١٣-١٤ ، وعلم الدلالة ، بالمر : ٤٠ .
(٩) ينظر : دفاع عن البلاغة : ٨٢ .

والدلالة الصرفية – إذن– تدور في دائرة النظام الصرفي ، بوصفه الحدّ الوسط بين النظام الصوتي والنظام التركيبي[١] ، وعليه فإنّه يرفد بنية الخطاب اللغوي بعنصر الديمومة والقدرة على تكوين ضروب مختلفة من الدلالة وأداء المحتوى .

ومن الواضح أنّ اللغة مرتبطة بالمعاني التي يحسُّ بها الإنسان ويدركها ، وهذه المعاني إنما تقع بادئ ذي بدء مفردة ، وبعد أن تستقر في الذهن يطرأ عليها التركيب ، ومن لم يدرك معاني الكلمات المفردة لم يستطع أن يدرك فحوى الكلام ومدلولهِ . كما يعين السياق على معرفة معاني الكلمات المفردة[٢] .

ويُعَدّ السياق الصرفي وهو جزء من السياق اللغوي لتراكيب الآيات والسور الكريمة قوام بنائها وتشكيلها ، وأنّ للقضايا الصرفية دوراً مهماً في إظهار الإعجاز اللغوي لتلك الآيات الكريمة ، ويتجلّى ذلك من خلال الانتقاء الدقيق والتنسيق الأمثل ممّا يميّز النظم القرآني المعجز من غيره .

وقد أشار اللغويون في جملة مباحثهم إلى اختلاف معاني الصيغ في العربية ولاسيما في مباحثهم الخاصة بالكلام على خصائص العربية ، ومنها طاقتها التعبيرية الكامنة في مباني صيغها الصرفية وإمكانية دلالتها على معانٍ متعددة تختلف باختلاف السياق الذي ترد فيه ، فضلاً عن إمكانية تبادلها من سياق إلى آخر على حسب إرادة المتكلّم لمعناه المقصود وغرضه المطلوب ، وعلى هذا الأساس حصل الإيثار بين صيغ المشتقات في العربية ولاسيما في مستوى اللغة الصرفي ، فيما يخصّ تحديداً صيغ المصادر ، واسم الفاعل ، والصفة المشبهة ، واسم المفعول ، وصيغ المبالغة ؛ لإمكانية تبادلها من سياق إلى آخر على وفق التقارب المعنوي فيما بينها ، فضلاً عن التشابه اللفظي بين بعض من صيغها .

---

(١) ينظر : دلالة الألفاظ ، إبراهيم أنيس : ٤٧ ، ومصطلحات الدلالة العربية – دراسة في ضوء علم علم اللغة الحديث ، د.جاسم محمد عبد المعبود : ١٠٩ ، وعلم الصرف الصوتي ، د.عبد القادر عبد الجليل : ١٥٢ .

(٢) ينظر : حقيقة اللغة ومفرداتها (بحث منشور) للدكتور عدنان محمد سلمان ، المجمع العلمي العراقي ،ج(٤) : ٣٢١ .

وقد تأتي البدائل اللغوية منسجمة مع البنية الصرفية التي يقتضيها السياق ، إذ لا ينحصر اختلاف الدلالة في الألفاظ المتقاربة في المعنى ، وإنما يمتدّ إلى اختلاف الصيغ الصرفية ، ومن المألوف أنّ زيادة المبنى تؤدي إلى زيادة المعنى ، إذ ((لايجوز أن يكون فعل وأفعل بمعنى واحد ، كما لا يكونان على بناءٍ واحد ، إلاّ أن يجيء ذلك في لغتين ، فأمّا في لغة واحدة ، فمحال أن يختلف اللفظان والمعنى واحد))[١] ، فالقيمة الدلالية للكلمة تكمن في معناها ، وإنّ أي تغيير في الصيغة هو تغيير في المعنى[٢] .

وفي القرآن الكريم يمكن أن تؤثر صيغة على صيغة أخرى على حسب مايقتضيه السياق .

وسنعرض لهذا الإيثار بين الصيغ الصرفية في مباحث هذا الفصل ، وعلى النحو الأتي :

---

(١) الفروق في اللغة ، أبو هلال العسكري : ١٥ .

(٢) ينظر : علم الدلالة ، جيرو : ١٦ .

المبحث الأول

توطئة :

الإيثار بين الإفراد والتثنية والجمع :

أشار أوائل النحاة إلى هذا النوع من الإيثار بين الصيغ ، إذ قال سيبويه : ((وليس بمستنكر في كلامهم أن يكون اللفظ واحداً ، والمعنى جميع حتى قال بعضهم في الشعر من ذلك ما لايستعمل في الكلام))[١] ، نحو قوله[٢] :

كُلُوا في بَعْضِ بَطنِكُمُ تَعُفُّوا فَإِنَّ زَمَانَكُمْ زَمَنٌ خَمِيْصُ

إذ أضيف اللفظ مفرداً إلى الضمير الدال على المجموع ، فقال (بطنكم) ، وكان القياس أن يقول (بطونكم) .

وقد يرد اللفظ مفرداً ويُرَاد به الجمع ، لأنَّ ((من سنن العرب ذِكْرُ الواحد والمراد الجميع))[٣] . والأسم المفرد هو ((ما دلَّ على واحدٍ او واحدة))[٤] . ولعلَّ أهم دلالة تحققها صيغة الإفراد هي الوحدة والقوّة بناءً على أنّ الواحد لايخالط بعضه[٥] .

أمّا التثنية ، فهي ((صيغة مبنيّة للدلالة على الاثنين))[٦] . أو هي ((ضَمُّ مفردٍ إلى مثلِهِ في اللفظ ، غيرِهِ في المعنى))[٧] .

وأمّا الجمع ، فهو ((صيغة مبنيّة من الواحد للدلالة على العدد الزائد على الاثنين))[٨] . ويكون على ضربين : جمع سالم ، وجمع تكسير[٩] .

---

(١) الكتاب : ٢٠٩/١ .
(٢) ورد هذا البيت غير منسوب إلى قائل في : الكتاب :١٠٨/١ ، والمقتضب : ١٧٢/٢ .
(٣) الصاحبي في فقه اللغة : ٢١١ .
(٤) الصرف والنظام اللغوي : ٩٦ .
(٥) ينظر : المحتسب : ٣٦١/٢ .
(٦) أسرار العربية : ٢١ .
(٧) شرح الرضي على الكافية : ١٥/١ .
(٨) تاج العروس : ٣٠٤/٥ .
(٩) ينظر : الكتاب : ٤٩٠/٣ ، واللمع في العربية : ٢٠/١ ، والعدد في العربية : ٢٣/١ .

وقد يؤثر القرآن صيغة على أخرى ، وللسياق القرآني أثره الواضح في توجيه تلك الدلالة . فإذا ما وقع اللفظ بصيغة الإفراد مع دلالته على الجميع ، فقد يدل على هذا المعنى ، وكأنّ الجميع صاروا واحداً في معتقدهم وقوتهم(١) .

ومثل هذا الإيثار عندما يأتي في القرآن الكريم فإنّه يكون على وفق المعنى ، إذ لايأتي لفظ في القرآن مكان لفظ مراعاةً للشكل فقط ، من دون مراعاة المعنى أو المضمون . وهو ماسيظهر لنا – في هذا المبحث – من خلال الآيات التي ورد فيها هذا النوع من الإيثار الدلالي .

أولاً : الإفراد :

أ. إيثار الخطاب بصيغة المثنى على الخطاب بصيغة المفرد :

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ ق : ٢٣ – ٢٤ .

جاء قوله تعالى (أَلۡقِيَا) بلفظ المثنى ، وذكر المفسرون فيه أَنّ الخطاب للمفرد لكنه كرّر الفعل تأكيداً . فكأنَّه قال : ألقِ ألقِ . وقيل : إنّ الخطاب لخزنة النار والزبانية . فهو على هذا الأمر إنتقال من المثنى إلى الجمع . وقيل : هو على بابِه في التثنية ؛ إذ المقصود خطاب المَلَكين السابقين في قوله تعالى : ﴿ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ﴾ ق : ٢١ ، وقيل : بل هو خطاب للواحد نُزِّل منزلة الاثنين وهو عادة العرب في ذلك لأنّهم يخاطبون المفرد بالمثنى كما يقولون : ياصاحبيَّ وخليليَّ ، وهو واحد ، وسنعرض لهذه الأقوال وغيرها فيما سيأتي بيانه :

قال الطبري : ((فأخرج الأمر للقرين وهو بلفظ واحد مخرج خطاب الاثنين ، وفي ذلك وجهان من التأويل : أحدهما : أن يكون القرين بمعنى الاثنين كالرسول والاسمُ الذي يكون بلفظ الواحد في الواحد والتثنية والجمع فردَّ قوله (أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ) إلى المعنى . والثاني : أن تكون كما كان بعض أهل العربية يقول : إنّ العرب تأمر الواحد والجماعة بما تأمر به الاثنين ، فتقول للرجل : ويلك أرحلاها وأزجراها ، وذكر أنّه سمعها من العرب ، قال وأنشدني بعضهم :

فقلت لصاحبيَّ لاتَحْبِسانا بنزعِ أُصولهِ وآجتزّ شَيْحَاً

---

(١) ينظر : المحتسب : ٣٦١/٢ .

وقال : وأنشدني أبو ثروان :

فإنْ تَزْجُرِاني يابنَ عَفّانَ أنزجِر وإنْ تَدَعَاني إهِمُّ عِرْضًا مُمَنّعا

قال : فيروي أنّ ذلك منهم أنّ الرجل أدنى أعوانهِ في إبلهِ وغنمهِ اثنان ، وكذلك الرفقة أدنى ما تكون ثلاثة فجرى كلام الواحد على صاحبيهِ ...))[١] .

وذهب الزمخشري إلى أنّ الخطاب للملكين السابقين : السائق والشهيد ، إذ قال : (((أَلْقِيَا) خطاب من الله تعالى للملكين السابقين السائق والشهيد ، ويجوز أن يكون خطاباً للواحد على وجهين : أحدهما : قول المبرِّد : إنَّ تثنية الفاعل نزلت منزلة تثنية الفعل لاتحادهما كأنّه قيل : ألقِ ألقِ للتأكيد . والثاني : إنّ العرب أكثر مايرافق الرجل منهم اثنان فكثر على ألسنتهم أن يقولوا : خليليّ وصاحبيَّ وقِفا وآسعدا ، حتى خاطبوا الواحد خطاب الاثنين))[٢] .

أمّا الرازي فقد اختصرَ مافصّله الزمخشري وذكر أَنّ الأمر كانَ مُوَجَّهاً إمّا للسائق أو الشهيد ، فيكون أمراً لواحدٍ منهما[٣] .

ورَجَحّ ابن كثير أن الخطاب للملكين ، إذ قال : ((والظاهر أنّها مخاطبة مع السائق والشهيد ، ، فالسائق أحضره إلى عرصة الحساب ، فلّما أدّى الشهيد عليه أمرهما الله تعالى بإلقائهِ في نار جهنّمَ وبئس المصير))[٤] .

وذهبَ الزركشي إلى أنّ الآية خطاب للواحد والمراد به مالك خازن النار[٥] .

---

(١) جامع البيان : ١٦٥/٢ ، وينظر : مشكل إعراب القرآن : ٦٨٤/٢ ، وزاد المسير : ١٠٩/٨ ، ومعالم التنزيل : ٢٢٣/٤ .

(٢) الكشاف : ٧/٤ .

(٣) ينظر : مفاتيح الغيب : ١٣٥/٢٨ .

(٤) تفسير ابن كثير : ٢٢٧/٤ .

(٥) ينظر : البرهان : ٢٣٩/٢ و ٣/٤ .

ب. إيثار الخطاب بصيغة الجمع على الخطاب بصيغة المفرد :

١. ومن قولهِ تعالى :﴿ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ النساء: ١٣.

فقد جاء قوله تعالى (خَٰلِدِينَ) بلفظ الجمع ، وهو مخالف لما سبقه من الإفراد في قولهِ تعالى (يُطِعِ... يُدۡخِلۡهُ) .

قال الرازي : ((ههنا سؤال ، وهو أن قوله (يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ) إنّما يليق بالواحد ، ثم قوله بعد ذلك (خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ) إنّما يليق بالجمع فكيف التوفيق بينهما ؟ الجواب : إنّ كلمة (مَنْ) في قوله (وَمَن يُطِعِ) مفرد في اللفظ جمع في المعنى فلهذا صَحَّ الوجهان))[١].

وإليه ذهب القرطبي أيضاً ، إذ قال : ((وقال تعالى : وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ) فحملٌ على اللفظ ، ثم قال (خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ) فحملٌ على المعنى ولو راعى اللفظ لقال : خالداً فيها ، وإذا جرى مابعد (مَنْ) على اللفظ فجائز أن يخالف به بعدُ على المعنى كما في هذه الآية ، وإذا جَرَى مابعدها على المعنى لم يجز أن يخالف به بعد على اللفظ ؛ لأنّ الإلباس يدخلُ في الكلام))[٢] .

ويرى البقاعي أنّ جمع الفائزين بدخول الجنّة في قوله (خَٰلِدِينَ فِيهَا) إنّما هو تبشيرٌ بكثرة الواقف عند هذه الحدود ، ولأنَّ منادمة الأخوان من أعلى نعيم الجنان[٣] وَهذا أيضاً من باب الحمل على المعنى ، وإن كان لم يصرّح بهِ البقاعي .

---

(١) مفاتيح الغيب : ٥٢٥/٩ ، وينظر : الكشاف : ٥١١/١ ، ومدارك التنزيل : ٢١٠/١ ، وأنوار التنزيل : ١٥٨/٢ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن : ٤٣٥/١ ، وينظر : البحر المحيط : ٣٥٢/٣ .

(٣) ينظر : نظم الدرر : ٢١٤/٥ .

٢. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ هود: ١٣ – ١٤.

جاء الضمير في قوله (لَكُمْ) بلفظ الجمع ، وكانَ السياق المتوقع أنْ يقال : لك ، ليتوافق مع ماقبله من قولهِ (قُلْ) إلاّ أنّه عدل عن المفرد إلى الجمع لنكتة تنوعت وجوهها ، ذكرها المفسرون على النحو الآتي :

قال الطبرسي : (((فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ) قيل : إنّه خطابٌ للمسلمين ، والمراد فإن لم يجبكم هؤلاء الكفار إلى الإتيان بعشر سور مثله ، معارضة لهذا القرآن (فاعلموا) أيُّها المسلمون (أنّما أُنزل) القرآن (بعلم الله) ، عن مجاهد ، وآختاره الجبائي . وقيل : هو خطاب للكفار ، وتقديره : فإن لم يستجب لكم مَنْ تدعونهم إلى المعاونة ولم يتهيأ لكم المعارضة ، فقد قامت عليكم الحجّة . وقيل : إنّ الخطاب للرسول (ﷺ) أي : فإن لم يجيبوك ، وذكره بلفظ الجمع تفخيماً ، والغرض من التنبيه على إعجاز القرآن ، وأنّه المنزل من عند الله سبحانه على نبيه (ﷺ)))[١] .

وذهبَ الطبري إلى أنّ الخطاب إنما هو للنبي (ﷺ)[٢] .، وخرّجه ابن الجوزي على أنّه خطاب للنبي مع أصحابهِ[٣] .

وذكر الزمخشري فيه أوجهاً ، مبتدئاً بالسؤال ، إذ قال : ((فإنْ قلت : ماوجه جمع الخطاب بعد إفرادهِ وهو قوله : (لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟) بعد قوله (قُلْ) ؟ . قلت : معناه : فإنْ لم يستجيبوا لك وللمؤمنين ، لأنَّ رسول الله (ﷺ) والمؤمنين كانوا يتحدونهم . وقد قال في موضع آخر : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ ﴾ القصص: ٥٠ .

ويجوز أَنْ يكون الجمع لتعظيم رسول الله (ﷺ) ... ووجه آخر : وهو أن يكون الخطاب للمشركين ، والضمير في (لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟) لمن ٱسْتَطَعْتُم ، يعني : فإن لم

---

(١) مجمع البيان : ٢٥١/٥ .

(٢) ينظر : جامع البيان : ١٠/١٢ ، وتفسير مجاهد : ٣٠١/١ .

(٣) ينظر : زاد المسير : ٨٢/٤ .

يستجب لكم مَنْ تدعونه من دون الله إلى المظاهرة على معارضته لعلمهم بالعجز عنه وإنّ طاقتهم أقصر من أن تبلغه (فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ) أي أنزل ملتبساً بما لايعلمه إلاّ الله وحده وأنّ توحيده واجب والإشراك به ظلم عظيم))[١] .

وهذا ما أشار إليه البيضاوي[٢] ، وأبو السعود[٣] ، والشوكاني[٤] –أيضاً– .

ويبدو – والله أعلم – أن جمع الضمير جاء لتعظيم الرسول (ﷺ) .

٣. في قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ المؤمنون: ٩٩ - ١٠٠ .

قال تعالى (ٱرْجِعُونِ) بلفظ الجمع والمتكلّم واحد والمخاطب واحد ، وإنّما وردت بصيغة الجمع للتعظيم على سنن العرب في مخاطبة الواحد بلفظ الجمع ، وقيل : الخطاب في (رَبِّ) للهِ تعالى ، وفي (ٱرْجِعُونِ) للملائكة الذين يقبضون أرواحهم ، فيكون خطاباً للجمع ، ولكن يبقى السياق هو الحكم في ذلك .

وفيما يأتي بيانٌ لِمَا قاله العلماء في هذهِ الآية الكريمة :

١. ذهبَ النحاس إلى أن الخطاب لله تعالى في الموضعين ، على مخاطبة الواحد بلفظ الجمع ، إذ قال : (((قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ) ولم يقل ارجعنِ . فخاطبَ على ما يخبر الله جلَّ وعزّ بهِ عن نفسهِ ، كما قال﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾[٥]وفيه معنى التوكيد والتكرير))[٦] .

وذهب القيسي إلى مثل هذا أيضاً[٧] .

---

(١) الكشاف : ٢٦١/٢ ، وينظر : البحر المحيط : ١١٥/٦ .

(٢) ينظر : أنوار التنزيل : ٢٢٥/٣ .

(٣) ينظر : إرشاد العقل السليم : ١٩٢/٢ .

(٤) ينظر : فتح القدير : ٤٨٦/٢ .

(٥) يس / ١٢ .

(٦) معاني القرآن : ٤/ ٤٨٤ .

(٧) ينظر : مشكل إعراب القرآن : ٥٠٥/٢ .

ب- أمّا الطبري فقد وجّه الآية على أنّ الخطاب فيها للملائكة ، قال : ((وقيل (رَبِّ ٱرۡجِعُونِ) فابتدأ الكلام بخطاب الله تعالى ، ثُمَّ قيل (ٱرۡجِعُونِ) فصار إلى خطاب الجماعة ، والله ذكره واحد ، وإنما فعل ذلك كذلك لأنّ مسألة القوم الرّد إلى الدنيا إنّما كانت منهم للملائكة الذين يقبضون روحهم ، كما ذكر آبن جريح أنّ النبي (ﷺ) قاله ، وإنّما ابتدئ الكلام بخطاب الله جَلَّ ثناؤه ؛ لأنّهم استغاثوا به ثم رجعوا إلى مسألة الملائكة الرجوع والرد إلى الدنيا))[١] .

ج – أشار البغوي إلى أنّ الجمع في (ٱرۡجِعُونِ) جاء على عادة العرب في مخاطبة الواحد بلفظ الجمع للتعظيم ، وقيل : هذا الخطاب مع الملائكة الذين يقبضون الأرواح ، فكان الخطاب ابتداءً لله تعالى لأنّهم استغاثوا به أولاً ، ثم رجعوا إلى مسألة الملائكة الرجوع للدنيا[٢] . وهذا ما عَرَض له الرازي[٣] ، والزركشي[٤] ، ولم يزد ابو السعود[٥] ، والآلوسي[٦] ، والشوكاني[٧] ، وغيرهم[٨] ، شيئاً على ماتقدّم ذكره .

ويبدو من الأولى – والله أعلم – حمل الآية على أن يكون الخطاب لله تعالى وحده ، وقد جاء بصيغة الجمع بدلاً من المفرد لتعظيمهِ تعالى ؛ ذلك أنّ السياق الذي تقدّم هذه الآية فيه تعظيم لله تعالى ، ودلالة على قدرته العظيمة ، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٧٨ وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٧٩ وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ المؤمنون: ٧٨ – ٨٠ ، وقال

---

(١) جامع البيان : ٥١/١٨ .
(٢) ينظر : معالم التنزيل : ٤١٧/٣ ، والوجيز : ٧٥٣/٢ ، والكشاف : ٤٢/٣ ، والجامع لأحكام القرآن : ١٤٩/١٢ .
(٣) ينظر : مفاتيح الغيب : ٢٩٢/٢٣ ، والبحر المحيط : ٥٧٧/٧ ، وأنوار التنزيل : ١٦٧/٤ .
(٤) ينظر : البرهان : ٢٣٥/٢ ، والاتقان : ٩٠/٢ و ١٠٥/٢ .
(٥) ينظر إرشاد العقل السليم : ١٥٠/٦ .
(٦) ينظر : روح المعاني : ١٨ / ٦٣ .
(٧) ينظر : فتح القدير : ٤٩٨/٣ .
(٨) ينظر : مدارك التنزيل : ١٣٠/٣ ، والجواهر الحسان : ١٠٥/٣ .

تعالى –أيضاً– يقررهم بقدرتهِ وعظمتهِ ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴾ المؤمنون: ٨٤ – ٨٩ . فسياق الآيات كلّه دالٌ على التعظيم لله (ﷻ) ، في الوقت الذي خلا السياق من ذكر الملائكة الذين يقبضون الأرواح ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ ﴾ المؤمنون: ٩٨ ، إنّما قصد بهم الشياطين الذين تقَدّم ذكرهم قبلُ ، وعليه فإنّ حمل الآيةِ على مخاطبة الفرد بلفظ الجمع للتعظيم أولى من حملها على أن يكون الخطاب للملائكة . – والله أعلم –

ثانياً : التثنية :

أ. إيثار الخطاب بصيغة المفرد على الخطاب بصيغة المثنى :

ومن أمثلته :

١. قوله تعالى : ﴿ قَالَ كَلَّا ۖ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ الشعراء: ١٥ – ١٧.

فقد قال (إِنَّا رَسُولُ) بلفظ المفرد وكان السياق المتوقع أن يُقَال : إنّا رسولا . بالمثنى ؛ ليتوافق مع ماسبقه من التثنية في (فَاذْهَبَا .... فَأْتِيَا .... فَقُولَا) لكنه آثر إيرادها مفردةً بدلاً من المثنى – على ماذكره المفسرون – لأنّ (الرسول) لفظ مصدر كالرسالة وجاء هكذا للمبالغة ، وقيل : إنّه آكتفى بأحدهما لأنهما على أمر واحد ، وقيل : إنّ موسى (عليه السلام) كان الأصل وهارون تبعاً له ، وقيل : أراد بالرسالة : إنّا ذو رسالة أو ذوا رسالة ، على ماسيأتي تفصيله :

قال الطبرسي : ((لم يقل رسولا ربّ العالمين ؛ لأنّ الرسول قد يكون في معنى الجمع . قال الهذلي :

أَلِكْنِي إِلَيْهِا ، وخيرُ الرسو لِ أَعْلَمُهُم بنواحِي الخبر

أي : غير الرسل . وقيل : إنّ الرسول بمعنى الرسالة ، كما في قوله :

لَقَدْ كَذَبَ الواشونَ مَابُحْتُ عِنْدَهُم بِسرٍّ ، ولا أَرْسَلْتُهُم برسولِ

أي : برسالة . وقال العباس بن مرداس :

أَلاَ مَنْ مبلغٌ عنّي خفافًا رسولاً بَيْتُ أهلك مُنْتَهَاهَا

فأنّثّ الرسول تأنيث الرسالة . وقد يقع المصدر موقع الصفة ،كما تقع الصفة موقع المصدر ، فيكون مجازه : إنّا ذوا رسالة ربّ العالمين))[١] .

وذهبَ الطبري إلى أنّ المراد به المصدر من : أرسلتُ رسالةً ورسولاً[٢].

---

(١) مجمع البيان : ٣٢٤/٧ .

(٢) ينظر : جامع البيان : ٦٥/١٩ ، ومعالم التنزيل : ٣٨٢/٣ .

وأجاز الزمخشري وجهاً آخر بعد أن وافق الطبري فيما ذهب إليه إذ قال : ((فإن قلت : هلاّ ثنى في قوله ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ؟ قلت : الرسول بمعنى المرسَل وبمعنى الرسالة . فجعل ثَمَّ بمعنى المرسل فلم يكن بُدّ من تثنية . وجعل ههنا بمعنى الرسالة فجاز التسوية فيه إذا وصف بين الواحد والتثنية والجمع كما يفعل بالصفة في المصادر نحو : صوم وزور ... ويجوز أن يوحد لأنَّ حكمهما لتساندهما واتفاقهما على شريعة واحدة واتحادهما لذلك وللأخوة كانَ حكماً واحداً فكأنهما رسول واحد . أو أريد أنّ كلّ واحد منا))[١] .

أمّا الرازي فقد ذكر أوجهاً في الآية لم يخلُ الأول منها من المنطق والفلسفة فهو يرى أنّ الرسولَ أسمٌ للماهية من غير بيان أنّ تلك الماهية واحدة أو كثيرة . والألف واللام لايفيدان إلاّ الوحدة لا الاستغراق بدليل أنك تقول : الأنسان هو الضحاك ، ولاتقول : كل إنسان هو الضحاك ، ولا : هذا الأنسان هو الضحاك . وإذا ثبت أنّ لفظ الرسول لايفيد إلاّ الماهية ، وثبت أنّ الماهية محمولة على الواحد وعلى الاثنين ثبت صحة قوله (إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ) .

وذكر في الوجه الثاني ، أنّ الرسول قد يكون بمعنى الرسالة . والثالث : إنهما لاتفاقهما على شريعة واحدة واتحادهما بسبب الأخوة فصارا كأنهما رسول واحد ، والرابع : أَنّ المراد كل واحد منهما رسول ، والوجه الخامس : إنّه قال ذلك لابلفظ التثنية لكونهِ هو الرسول خاصة ، وقوله (إِنَّا) مثل قوله تعالى ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا ﴾ يوسف: ٢ ، وجعل هذا الوجه أضعف الوجوه[٢] .

وذكر العكبري ثلاثة أوجه في هذهِ الآية ، إذ قال : ((في إفراده اوجه ، **أحدها** : هو مصدر كالرسالة أي : ذوا رسول وإنا رسالة على المبالغة ، **والثاني** : إنّه اكتفى بأحدهما إذا كانا على أمرٍ واحد ، **والثالث** : إنّ موسى (عليه السلام) كانَ هو الأصل وهارون تبع ، فذكر الأصل))[٣] .

---

(١) الكشاف : ١٠٧/٣ .

(٢) ينظر : مفاتيح الغيب : ٤٩٥/٢٤ .

(٣) التبيان في إعراب القرآن : ١٦٧/٢ .

وقد وجّه الكرماني التثنية توجيهاً مقبولاً ، إذ قال : ((لأنّ الرسول مصدر يسمى به ، فحيث وحّده حمله على المصدر وحيث ثُنّيَ حُمِلَ على الاسم ، ويجوز أنْ يقال : حيثُ وُحّدِ حُمِلَ على الرسالة لأنهما رُسُلاً لشيءٍ واحد ، وحيث ثُنّيَ حمل على الشخصين))[١].

ولم يزد بقيّة علماء التفسير[٢] ، شيئاً على ما سبق ذكره . والذي يبدو أنّ السياق القرآني في الآية الكريمة أشارَ إلى أنّ الخوف من فرعون صدرَ من موسى وحده ، فناسب ذلك إفراد كلمة الرسول تهدئةً لروعهِ[٣] . ثُمّ أنّ في الآية إخباراً عند نداء موسى لربّه قبل أن يرسل هارون نبيّاً معه ، فناسب الإفراد بالرسالة ؛ لأنّه هو المعني بها وهو المبلّغ الأول لها ، والله أعلم .

٢. قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ طه: ١١٦ – ١١٧.

(فَتَشْقَىٰٓ) جاءت بلفظ المفرد مع أنَّ الخطاب كان بلفظ التثنية في (فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا) ، والسبب في أنّه آثر مجيئها بلفظ المفرد بدلاً من المثنى –كما قيل– أنَّ الرجل إذا شقي فقد شقيت أسرته كما أنّه إذا سُعِدَ سُعِدَت أسرته كذلك ، وقيل : لأنّه أريد بالشقاء التعب في طلب القوت فذاك مقصور على الرجل من دون المرأة ، وهناك من قال : إنّه مراعاة للفاصلة القرآنية ، وغير ذلك ممّا سيأتي بيانه .

فقد ذهب الطبري إلى أنّ الحكم إذا صدر على أحدهما فهو شامل لهما جميعاً ، وإن ذكر بلفظ الإفراد ولم يُذْكَر بلفظ التثنية (فتشقيا) ، لأنّ ابتداء الخطاب من الله كانَ لآدم (عليه السلام) في إعلامه العقوبة على معصيته إيّاه فيما نهاهُ عنه من أكل الشجرة فكان في ذلك كفاية من ذكر المرأة إذ كان معلوماً أنّ الحكم الواقع عليها داخلٌ في حكمه[٤] .

---

(١) أسرار التكرار في القرآن : ١٤٠/١ .

(٢) ينظر : البحر المحيط : ١٣٩/٨ ، وأنوار التنزيل : ٢٣٣/٤ ، والبرهان في علوم القرآن : ٢٤١/٢ ، وإرشاد العقل السليم : ٢٣٧/٦ ، وفتح القدير : ٩٥/٤-٩٦ .

(٣) ينظر : أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية : ١٢٠ .

(٤) ينظر : جامع البيان : ٢٢٢/١٦ .

وعلل الزمخشري وجه الإفراد في هذه الآية بأنّ شقاء الرجل إذا حصلَ تضمَّنَ شقاء المرأة معه ، فهو القيّم على أهلهِ ، كما أنّ سعادتهم تقع ضمن سعادتهِ ، فكان آختصار الكلام بإسناده إلى آدم (عليه السلام) وحده مراعاةً للفاصلة[١] . وهذا ما ذهب إليه العكبري أيضاً ، إذ قال : ((أفردَ بعدَ التثنية لتتوافق رؤوس الآي ، مع أنّ المعنى صحيح ؛ لأنّ آدم (عليه السلام) هو المكتسب وكان أكثر بكاءً على الخطيئة منها))[٢] .

وذكر القرطبي ثلاثة أوجه لاقتصار الشقاء على آدم وحده ، قال :

((أنت وزوجك لأنهما في استواء العِلَّة واحد ، ولم يقل : فتشقيا ، لأنّ المعنى معروف وآدم ((عليه السلام) هو المخاطب وهو المقصود ، وأيضاً لمّا كان الكاد عليها والكاسب لها كانَ بالشقاء أخصّ ، وقيل : الإخراج واقع عليهما والشقاوة على آدم وحده وهو شقاوة البدن ، ألا ترى أنّه عقّبه بقوله : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴾ [٣] أي : في الجنّة ﴿ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ [٤] ، فأعلمه أنّ له في الجنّة هذا كلّه ، الكسوة والطعام والشراب والمسكن ، وأنّكَ إن ضيّعتَ الوصيّة وأطعتَ العدوَّ أخرجكما من الجنّة ، فشقيت تعباً ونصباً ، أي : جعت وعريت وظمئت وأصابتك الشمس ، لأنّكَ ترد الأرض إذا أُخْرِجْتَ من الجنّة ، وإنّما خصّهُ بذكر الشقاء ولم يقل : فتشقيان ، يعلمنا أنّ نفقة الزوجة على الزوج ، فمن يومئذٍ جرت نفقة النساء على الأزواج))[٥] .

ويبدو – والله أعلم – أنّ الآية حوت جميع الأوجه التي ذكرها المفسرون في آقتصار الأمر على آدم وحده ، إذ أسند ترتب الشقاء إلى أدم (عليه السلام) خاصة من دون زوجه إيجازاً ؛ لأنّ في شقاء أحد الزوجين شقاء الآخر لتلازمهما في الكون مع الإيماء إلى أنّ شقاء الذكر أصل شقاء المرأة مع مافي ذلك من رعاية الفاصلة .

---

(١) ينظر : الكشاف : ٥٥٥/٢ .
(٢) التبيان في إعراب القرآن : ١٢٨/٢ .
(٣) طه / ١١٨ .
(٤) طه / ١١٩ .
(٥) الجامع لأحكام القرآن : ٢٥٣/١١ .

ب. إيثار الخطاب بصيغة الجمع على الخطاب بصيغة المثنى :

وهذا الموضوع قريب في علتهِ وفائدتهِ من الموضوع السابق (الإيثارين بين المفرد والجمع) من حيث إنّ المخاطب يكون له اتباع أو يكون القول مؤيداً من آخرين فيكون الخطاب بلفظ الجمع بدلاً من المثنى للعِلّة نفسها . أو يكون الحكم عاماً للجميع فيخاطب به المثنى ثم يَعمُّ مَنْ كان تحت إمرتهما أو حكمهما .

ومن أمثلة ذلك :

١. قوله تعالى : ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴾ الحج: ١٩.

جاءَ الفعل (ٱخْتَصَمُوا۟) بلفظ الجمع ، وكانَ السياق يستدعي أن يقال : اختصما ؛ لأنّهما مثنى ، واختلف المفسرون في المراد بهذين الخصمين على النحو الآتي :

ا. ذهب الطبري إلى أنّ المراد بالخصمين أحد الفريقين : أهل الإيمان ، والفريق الآخر عبدة الأوثان من مشركي قريش الذين بارزوا يوم بدر . أَوْ هُما الخصمان اللذان ذكرهما الله في هذهِ الآية الجنة والنار[١] .

ب. ورأى البغوي أنّ الخصم اسمٌ شبيه بالمصدر ، لذا جاءَ بلفظ الجمع ، قال : ((هذان خصمان اختصموا في ربهم ، أي : جادلوا في دينهِ وأمره ، والخصم اسم شبيه بالمصدر ، فلذلك قال اختصموا بلفظ الجمع))[٢] .

ج. وذهب الزمخشري إلى أنّ الجمع جاء حملاً على المعنى ، والتثنية جاءت حملاً على اللفظ ، فـ ((الخصم صفة وصف بها الفوج أو الفريق ، فكأنّه قيل : هذان فوجان أو فريقان مختصمان ، وقوله (هذان) للفظ ، و(اختصموا) للمعنى))[٣] . وإلى مثل هذا أشار الرازي[٤] ، وأبو حيان[٥] .

---

(١) ينظر : جامع البيان : ١٣١/١٧-١٣٣ .

(٢) معالم التنزيل : ٢٧٩/٣ .

(٣) الكشاف : ٩/٣ ، وينظر : تفسير ابن كثير : ٢١٣/٣ .

(٤) ينظر : مفاتيح الغيب : ٢١٤/٢٣ .

(٥) ينظر : البحر المحيط : ٤٨٢/٧ .

د. ويرى أبو السعود أنّ الخصام المذكور في الآية قد لايكون حقيقياً بل هو في التحاور فيكون من المجاز ، ((وإنّما قيل : اختصموا في ربّهم حملاً على المعنى أي اختصموا في شأنه (ﷻ) وقيل : دينهِ ، وقيل : في ذاتهِ وصفاتهِ ، والكلّ من شؤونه تعالى ، فإنّ آعتقاد كلّ من الفريقين بحقيقة ماهو عليه وبطلان ما عليه صاحبه وبناء أقواله وأفعاله عليه ، خصومة للفريق الآخر ، وإنْ لم يجر بينهما التحاور والخصام ، وقيل : تخاصمت اليهود والمؤمنون فقالت اليهود نحن أحقّ بالله وأقدم منكم كتاباً ، ونبينا قبل نبيكم ، وقال المؤمنون نحن أحق بالله منكم ، آمنا بمحمد وبنبيكم وبما أنزل الله من كتاب ، وأنتم تعرفون كتابنا ونبينا ثم كفرتم به حَسَداً ، فنزلت ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ [١] تفصيلٌ لِمَا أجمل في قوله تعالى ﴿ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾[٢]))[٣] .

والراجح من بين هذه الأقوال – والله أعلم – ماذهبَ اليه الطبري من أنّ الخصمين : جميع الكفار من أي أصناف الكفر كانوا ، وجميع المؤمنين ؛ وذلك لأنّ السياق الذي جاءت ضمنه الآية يَدلُّ على صحته وصوابه من جهة ، ومن جهة أخرى أنّه لاينافي أو يتعارض مع ماتقدّم من الآراء والأقوال ، لأنَّ العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب ، وإنّ الآية قد تنزل بسبب من الأسباب ثُمَّ تكون عامة في كُلّ ماكانَ نظير ذلك السبب .

٢. قال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ١٠ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴾ فصلت: ١٠ – ١١ .

فقد وردت (طَآئِعِينَ) بلفظ الجمع ، بدل التثنية ، وهو المتوقع لأنّه في سياق خطاب المثنى السماء والأرض ، ولورود الكلام بهذهِ الصيغة في (قَالَتَآ) فكان السياق المتوقع أن تكون : أتينا طائعينِ . بصيغة المثنى أيضاً . كذلك يلاحظ أنّ الجمع جاء على صيغة جمع المذكر السالم ، ولم يأتِ بصيغة جمع المؤنث فلم يقل : طائعات .

---

(١) الحج / ١٩ .

(٢) الحج / ١٧ .

(٣) إرشاد العقل السليم : ٦ /١٠١ . وينظر روح المعاني : ١٣٣/١٧ .

واختلفت آراءُ المفسرين في تغير الأسلوب وتحوّله من المثنى إلى الجمع ومن جمع المؤنث إلى جمع المذكر .

قال الطبري : ((يقول جلّ ثناؤه : فقال الله للسماء والأرض جيئا بما خلقتُ فيكما . أمّا انتِ ياسماء فأطلعي ماخلقت فيك من الشمس والقمر والنجوم ، وأمّا أنتِ ياأرض فاخرجي ماخلقت فيك من الأشجار والثمار والنبات وتشققي عن الأنهار . قالتا أتينا طائعين . جئنا بما أحدثت فينا من خلقك مستجيبين لأمرك لانعصي أمرك ... وقيل : أتينا طائعين ولم يقل طائعتين . والسماء والأرض مؤنثتان ، لأنّ النون والألف اللتين هما كناية أسمائهما في قوله (أَتَيْنَا) نظيرة كناية اسماء المخبرين من الرجال : وقد كان بعض أهل العربية يقول : ذهب بهِ إلى السموات والأرض ومَن فيهن ، وقال آخرون منهم : قيل ذلك كذلك لأنهما لمّا تكلمتا اشبهتا الذكور من بني آدم))[١] .

وذهبَ النحاس إلى أنّه لمّا أخبر الله عنها بأفعال مايعقل من الخطاب والكلام أجريت في ذلك منزلة العاقل[٢] . وعرض الزمخشري السؤال بشقيه إذ قال : ((فإن قلت : هلاّ قيل : طائعين على اللفظ ؟ أو طائعات على المعنى لأنّهما سموات وأرضون ؟ قلت : لمّا جُعِلْنَ مخاطبات ومجيبات ووُصِفْنَ بالطوع والكره قيل : طائعين في موضع طائعات))[٣].

وذكر الآلوسي شيئاً قريباً ممّا ذكره الزمخشري ، فهو يرى أنّ (طائعين) جاءت بلفظ جمع المذكر السالم مع اختصاصه بالعقلاء على إعتبار كونهما في معرض الخطابِ والجواب ، ولاوجه للتأنيث عند إخبارهم عن أنفسهم ، فالتأنيث يكون بحسب اللفظ فقط[٤].

---

(١) جامع البيان : ٩٨/٢٤ .

(٢) ينظر : معاني القرآن : ٢٥٠/٦ .

(٣) الكشاف : ٤٤٤/٣ .

(٤) ينظر : روح المعاني : ١٠٣/٢٤ .

٣. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ الحجرات : ٩ .

جاء الفعل (ٱقْتَتَلُوا۟) بلفظ الجمع بعد أنْ كان السياق بلفظ المثنى ، وكان المتوقع أن يقال : اقتتلتا ، لكنه آثر مجيئه بصيغة الجمع بدلاً من المثنى ؛ لأنّ الطائفة وهي مفرد (طَآئِفَتَانِ)– كما ذكر المفسرون– تتناول الواحد والجمع ، وقيل : جُمِعَ حملاً على المعنى أي : كما سبق في قوله تعالى ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ ﴾[١] . وهو ماذكره الزمخشري[٢] ، والقرطبي حين قال : ((والطائفة تتناول الرجل الواحد وإلاّ فهو مما حمل على المعنى دون اللفظ ، لأنّ الطائفتين في معنى القوم والناس))[٣].

وقال البيضاوي : ((اقتتلوا : تقاتلوا ، والجمع باعتبار المعنى ، فإنّ كلّ طائفةٍ جمعٌ))[٤] .

وتوسع الآلوسي في النكتة التي دعت إلى مثل هذا الإيثار والتغاير في الأسلوب ، فكلّ طائفة من الطائفتين جماعة ، لذا روعي في الطائفتين معناهما أولاً ، ثم لفظهما ثانياً على عكس المشهور في الآستعمال ، ((والنكتة في ذلك ماقيل : إنّهم أولاً في حال القتال مختلطون فلذا جمع أولاً ضميرهم ، وفي حال الصلح متميزون متفارقون فلذا ثُنيَّ الضمير ، وقرأ ابن أبي عبلة : اقتتلتا ، بضمير التثنية والتأنيث كما هو ظاهر . وقرأ زيد بن علي وعبيد بن عمير : اقتتلا بالتثنية والتذكير ، بإعتبار أنّ الطائفتين فريقان))[٥] .

---

(١) الحج / ١٩ .

(٢) ينظر : الكشاف : ٥٦٣/٣ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن : ٣١٥/١٦ ، وينظر : معاني القرآن للنحاس : ٤٩٧/٤ .

(٤) أنوار التنزيل : ٢١٥/٥ .

(٥) روح المعاني : ١٤٩/٢٦ ، وينظر : الدر المنثور : ٥٦١/٧ ، وفتح القدير : ٦٣/٥ .

٤. قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ التحريم: ٤ .

فقد وردت كلمة (قُلُوبُكُمَاۖ) بجمع كلمة قلب على قلوب ، والمعروف أنّ لكلِّ إنسان قلباً واحداً ، فإن كانَ هناك شخصان ، قلنا : قلباكما ، لكنه جاء بلفظ الجمع بدلاً من التثنية ؛ لأنّ عادة العرب في الكلام أنهم إذا ذكروا الشيئين من اثنين جمعوهما ، لأنّ ذلك عندهم أمكن وأخف ، وكراهة لاجتماع شيئين وهما في لفظ واحد .

قال الفرّاء : ((وإنّما اختير الجمع على التثنية لأنّ أكثر ماتكون عليه الجوارح اثنين في الأنسان : اليدين والرجلين والعينين . فلما جرى أكثره على هذا ذهبَ بالواحد منه إذا أُضِيف إلى اثنين مذهب التثنية))[١] .

وذكر القرطبي سبباً آخر لمجيء (قلوبكما) بصيغة الجمع بدلاً من التثنية ، قال : ((ولم يقل : قد صغى قلباكما ، ومن شأن العرب إذا ذكروا الشيئين من اثنين جمعوهما لأنّه لايشكل ... وقيل : كلما ثبتت الإضافة فيه مع التثنية فلفظ الجمع أليق بهِ لأنّه أمكن وأخف))[٢].

وآستحسن أبو حيّان إضافته إلى المثنى ، وذكر أنّ الجمع في مثل هذا أكثر استعمالاً من المثنى والتثنية دون الجمع . فالقياس أَنْ يعبر بالمثنى عن المثنى ، ولكن لكراهة اجتماع تثنيتين اسْتُعْمِل الجمع لأنّ التثنيّة جمع في المعنى[٣] .

---

(١) معاني القرآن : ٣٠٧/١ ، وينظر : مفاتيح الغيب : ٥٧٠/٣٠ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن : ١٨٨/١٨ .

(٣) ينظر : البحر المحيط : ٢٠٦/١٠-٢٠٧ ، والبرهان في علوم القرآن : ٢٤١/٢ و ٢٧٣ .

ثالثاً : الجمع :

أ. إيثار الخطاب بصيغة المفرد على الخطاب بصيغة الجمع :

ومن أمثلته في القرآن الكريم :

١. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ البقرة: ٢٥ .

كان السياق في قولهِ تعالى (أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ) يستدعي أن تأتي الصفة تابعة للموصوف فيقال : أزواج مطهرات بصيغة الجمع ، لكنه آثر مجيئها بصيغة المفرد بدلاً من الجمع ؛ لعلّةٍ تنوّعت عند المفسرين على النحو الأتي :

يرى الزمخشري أنّ (مطهرّة ومطهّرات) لغتان فصيحتان ، يقال : النساء فعلن وهن فاعلات وفواعل ، والنساء فعلت وهي فاعلة ... فالمعنى هنا : وجماعة أزواج مطهرة[١] .

وعقّب أبو حيّان على ماذكره الزمخشري إذ قال : ((إنّ اللغة الواحدة أولى من الأخرى ، وذلك أنّ جمع مالايعقل إمّا أن يكون جمع قلّة أو جمع كثرة ، فإنْ كانَ جمع كثرة فمجيء الضمير على حدّ ضمير الواحدة أولى من مجيئهِ على حدّ ضمير الغائبات ، وإن كانَ جمع قلة فالعكس ، نحو : الأجذاع انكسرن ، ويجوز : إنكسرت ، وكذلك إذا كانَ الضمير عائداً على جمع العاقلات))[٢] .

وأصل مطهّرة : متطهرّة ، فقلبت التاء طاءً لتقاربهما في المخرج ثم أدغمت بالطاء الثانية ، وهي اسم مفعول مشتق من الفعل تطهر ، أي أنّ الله طهرهن فتطهرن حتى صرن مطهرات[٣] .

---

(١) ينظر : الكشاف : ٢٥٤/١ .

(٢) البحر المحيط : ١٨١/١ ، والاتقان : ٥٥٢/١ .

(٣) ينظر : البحر المحيط : ١٨١/١ .

٢. قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ النساء: ٦٩.

جاء لفظ (رَفِيقًا) بصيغة المفرد . وكان المتوقع – لأنّه سُبِق بجمع – أَنْ يأتي بصيغة الجمع فيقال : رفقاء أو رفاقاً .

وكان للعلماء في تخريج إفراده هذا عدّة أوجه ، فالطبري ذهبَ إلى أن اللفظ لفظ الواحد والمعنى الجمع[١] .

وجوّز الزمخشري أَنْ يكون اللفظ مفرداً بيّن بهِ الجنس إذ قال : ((والرفيق : كالصديق والخليط في استواء الواحد والجمع فيه ، ويجوز أن يكون مفرداً بُيِّن به الجنس في باب التمييز))[٢] .

ونقل الرازي أقوالاً لبعض العلماء لكنه لم يرجح رأياً منها ، إذ قال :((قال الواحدي : إنّما وحَّد الرفيق وهو صفة لجمع لأنّ الرفيق والرسول والبريد ، تذهب به العرب إلى الواحد وإلى الجمع ، قال تعالى (﴿ فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ الشعراء: ١٦) . ولايجوز أن يقال : حَسُنَ أولئك رجلاً ، وبالجملة فهذا إنّما يجوز في الاسم الذي يكون صفة ، أمّا إذا كان اسماً مصرحاً مثل : رجل وامرأة لم يجز ، وجوّز الزجاج ذلك في الاسم أيضاً وزعم أنّه مذهب سيبويه . وقيل : معنى قولهِ (وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا) أي : حسن كلّ واحدٍ منهم رفيقاً))[٣] .

وآستحسن أبو حيّان مجيء هذا اللفظ بصيغة المفرد لكونه فاصلة ، قال : ((ويحسن ذلك هنا كونه فاصلة ، ويحتمل أن يكون منقولاً من الفاعل فلا يكون هو المميز والتقدير : وحسن رفيق أولئك ...))[٤] .

---

(١) ينظر : جامع البيان : ١٦٣/٥ .
(٢) الكشاف : ٥٤٠/١ .
(٣) مفاتيح الغيب : ١٣٢/١٠ .
(٤) البحر المحيط : ٦٩٤/٣ .

وذهب البيضاوي إلى أنّ الآية في معنى التعجب ، و(رفيقاً) أمّا تمييز أو حال ، ولم يجمع لأنه يقال للواحد والجمع كالصديق[١] .

ويبدو أَنّ مراعاة الفاصلة هو الأقرب إلى الصواب ، إذ أنّ الآيات السابقة واللاحقة للآية الكريمة ، تنتهي كلّها بالألف ، قال تعالى : (تثبيتاً ، عظيماً ، مستقيماً ، عليماً ، جميعاً ، شهيداً) (النساء ، فواصل الآيات : ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢) فالسياق –إذن– هو مَنْ أستدعى أن تكون اللفظة بصيغة المفرد ، وليس بصيغة الجمع – والله أعلم– .

٣. قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ النور: ٣١ .

جاءت كلمة(ٱلطِّفْلِ) بلفظ المفرد ، وكان السياق المتوقع أن تأتي بلفظ الجمع فيقال : الأطفال ؛ لأنّه أريد بهِ الجنس ، قال الزمخشري : ((وضع الواحد موضع الجمع لأنّه يفيد الجنس ، ويبين ما بعده أنّ المراد به الجمع))[٢] . فالدليل على أنّه قصد به الجمع هو مابعده أي قوله تعالى (ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟) إذ جاء الكلام بصيغة الجمع مما يدل على أنّ (ٱلطِّفْلِ) أريد به الجمع لا المفرد ، وإليه ذهب الرازي أيضاً [٣] .

وبيّنَ أبو حيّان ان هذا اللفظ إنّما دلَّ على الجنس لابنفسهِ بل بـ(أل) التعريف المقترنة بهِ وإلاّ فهو نكرة[٤] .

---

(١) ينظر : انوار التنزيل : ٢/ ٢١٥ .

(٢) الكشاف : ٦١/٣ ، وينظر : معاني القرآن للنحاس : ٥٢٦/٤ ، وزاد المسير : ٣٤/٦ .

(٣) ينظر : مفاتيح الغيب : ٣٦٣/٢٣ .

(٤) ينظر : البحر المحيط : ٣١/٨ .

وذهبَ الآلوسي إلى أنّه مصدر ، إذ قال : ((وكذا قال بعض النحاة : أنّه في الأصل مصدر فيقع على القليل والكثير ، والأمر على هذا ظاهر جداً))[١] .

ويبدو – والله اعلم– أنّ ماذكره الزمخشري هو الأقرب إلى الصواب ، فهذا اللفظ قد أفاد جنس الأطفال ، أي أن المراد به الجمع لا المفرد .

ب. إيثار الخطاب بصيغة المثنى على الخطاب بصيغة الجمع :

من أمثلتهِ في القرآن الكريم :

١. قوله تعالى :﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ الحجرات: ١٠ .

موضع الإيثار في قوله تعالى (أَخَوَيْكُمْ) ، فقد وردت بلفظ المثنى ، وكان السياق المتوقع أن يقال : إخوتكم أو إخوانكم ، بلفظ الجمع ، مع أنّ هناك قراءة بهذين اللفظين ، لكنّ القراءة المشهورة هي بلفظ المثنى على ماهُوَ بَيّن .

واختلف المفسرون في أمر هذهِ الآية على ثلاثة آراء :

الأول : يرى بوقوع الإيثار في هذهِ اللفظة ، والانتقال من الجمع إلى المثنى ، ومن هؤلاء الزمخشري ، إذ قال : ((فإن قلت : فَلِمَ خُصَّ الاثنان بالذكر دون الجمع ؟ قلت : لأنّ أقل مَنْ يقع بينهم الشقاق اثنان ، فإذا لزمت المصالحة بين الأقل كانت بين الأكثر ألزم ، لأنّ الفساد في شقاق الجمع أكثر منه في شقاق الاثنين ، وقيل : المراد بالأخوين الأوس والخزرج))[٢] .

وذهب أبو حيّان مذهب الزمخشري ، وأضاف ((قرأ زيد بن ثابت وابن مسعود والحسن – بخلاف عنه– والجحدري وثابت البنائي وحماد بن سلمة وابن سيرين : (بين إخوانكم) جمعاً ، بالألف والنون . والحسن أيضاً وآبن عامر – في روايةٍ – وزيد بن علي ويعقوب : (بين إخوتكم) جمعاً ، على وزن غِلمة ، وروى عبد الوهاب عن أبي عمرو

---

(١) روح المعاني : ١٤٥/٨ . وينظر : البيان في إعراب القرآن : ١٤٠/٢ . وغرائب التفسير وعجائب التأويل : ٧٥٢/٢ .

(٢) الكشاف : ٥٦٥/٣ .

القراءات الثلاث ، ويغلب الأخوان في الصداقة ، والأخوة في النسب ، وقد تستعمل كل منهما مكان الآخر))[١] . واليه ذهبَ الثعالبي أيضاً[٢].

والثاني : يرى أنّ الآية لا إيثار فيها للفظةٍ على أخرى بل هي على حالها من التثنية ، وممن ذهب إلى هذا الرأي ، الطبري ، إذ قال : ((ومعنى الأخوين في هذا الموضع كل مقتتلين من أهل الأيمان))[٣] .

وإليه ذهب القرطبي أيضاً ، حين قال : ((﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ خَيۡرًا﴾ أي بين كُلِّ مسلمين تخاصما . وقيلّ : بين الأوس والخزرج ... وقال أبو علي : أراد بالأخوين الطائفتين لأنّ لفظ التثنية يرد والمراد بهِ الكثرة))[٤] .

والرأي الثالث : ذهب إلى أنّ الآية هي من ضمن الانتقال من الاسم إلى الضمير ، ومن أصحاب هذا الرأي البيضاوي ، إذ قال : ((ووضع الظاهر موضع الضمير مضافاً إلى المأمورين ، للمبالغة في التقرير والتحضيض ، وخصَّ الاثنين بالذكر ، لأنهما أقل مَنْ يقع بينهم الشقاق ، وقيل : المراد بالأخوين : الأوس والخزرج ، وقرئ : بين إخوتكم وإخوانكم))[٥] .

والذي يبدو راجحاً – والله أعلم– هو ماذهب إليه أصحاب الرأي الأول ، إذ أنّ الآية فيها تبادل دلالي بين الجمع والمثنى ، من جهتي الحمل على اللفظ ، أو على المعنى .

فلو حملنا الآية على اللفظ كان صحيحاً ؛ لأنّ أقلّ مايقع بينهم الشقاق اثنان ، وكذلك مراعاة للآية التي قبلها ، وهي قوله تعالى ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ ... ﴾ الحجرات: ٩ ، فقد تقدّم الآية لفظٌ مثنى (طائفتان) ، وإن كان قد ذكر بعدها الفعل بصيغة الجمع فقال (اقتتلوا) والسياق كان يقتضي أَنْ يقول (اقتتلنا) ، لكن يبدو انّ السرّ في ايراده بصيغة الجمع بدلاً من المثنى هو ((أنّ الطائفتين عند اقتتالهما واشتباكهما

---

(١) البحر المحيط : ٥٠٨/٩ ، وينظر : حجة القراءات : ٦٧٦/١ ، وكتاب السبعة في القراءات : ٦٠٦/١ ، والحجة في القراءات السبع : ١/ ٣٣٠ .

(٢) ينظر : الجواهر الحسان : ١٨٨/٤ .

(٣) جامع البيان : ١٣٠/٢٦ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن : ٣٢٣/١٦ ، وينظر : تفسير ابن كثير : ٢١٣/٤ ، وفتح القدير : ٦٣/٥.

(٥) أنوار التنزيل : ٢١٦/٥ : ٢١٦/٥ ، وينظر : إرشاد العقل السليم : ١٢٠/٨ .

تمثلان حينئذٍ جمعاً من المقتتلين لاتمايز بينهم ، وفي هذا إمعانٌ في تصوير شدّة الاقتتال ، فإذا ما انتهى الاقتتال بينهم ، وسعت مساعي الصلح ، تمايزوا الى فريقين وطائفتين مستقلتين))[١] .

وإذا حملناها على المعنى ، شهدت لها قراءتا : إخوتكم وإخوانكم ، وقد أوثرت صيغة التثنية في أخويكم مراعاةٌ لكون الكلام جارٍ على طائفتين من المؤمنين فجعلت كل طائفة كالأخ للأخرى ، وقرأ الجمهور (بين أخويكم) بلفظة تثنية الأخ ، أي بين الطائفة والأخرى مراعاةً لجريان الحديث على آقتتال طائفتين ، والقراءة (بين أخوتكم) على أنّه جمع أخ على اعتبار كلّ فرد من الطائفتين كالأخ – والله أعلم – .

٢. قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٞ ﴾ الملك: ٣ - ٤

وردت لفظة (كَرَّتَيۡنِ) بصيغة المثنى ، وذكر المفسرون أنّ المقصود بالتثنية هنا الجمع ، أي : كرّات ؛ لأنّ المعنى المقصود ليس العدد ، لأنك مهما كررت انقلب إليك البصر خاسِئاً عن أن يرى عيباً أو خللاً في خلقهِ تعالى ، ولأنّ البصر لايحسر إلاّ بالكرات وليس بالكرّتين ، فمعنى التثنية إذن هو التكثير والتكرير .

قال الزمخشري : ((فإنّ قلت : كيف ينقلب البصر خاسئاً حسيراً يرجعه كرتين اثنتين ؟ قلت : معنى التثنية التكرير بكثرة ، كقولك : لبيك وسعديك تريد إجابات كثيرة بعضها في أثر بعض))[٢] .

وإليه ذهب القرطبيّ أيضاً ، إذ قال : ((والمراد بـ((كَرَّتَيۡنِ)) هاهنا التكثير ، والدليل على ذلك (يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٞ) وذلك دليل على كثرة النظر))[٣] .

---

(١) الإعجاز البياني في العدول النحوي السياقي في القرآن الكريم ، الدكتور عبد الله علي الهتاري : ٢٤٣ .

(٢) الكشاف : ١٣٣/٤ ، وينظر : مفاتيح الغيب : ٥٨٢/٣٠ ، والبحر المحيط : ٢١٨/١٠ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن : ٢١٠/١٨ .

وقال ابن كثير : ((ومعنى الآية : إنّك لو كررت البصر مهما كررت لآنقلب إليك أي لرجع إليك البصر خاسئاً عن أن يرى عيباً أو خللاً وهو حسير أي كليل قد انقطع من الإعياء من كثرة التكرار ولا يرى نقصاً))[١] .

وجاء في أسرار التكرار للكرماني ما نصُّه : ((قوله ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ﴾ وبعده ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ﴾ أي مع الكرّة الاولى . وقيل : هي ثلاث مرات ، أي ﴿ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ﴾ وهذه مرّة ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ﴾ فمجموعهما ثلاث مرات . قلت : يحتمل أن يكون أربع مرّات ، لأنّ قولهِ ﴿ٱرۡجِعِ﴾ يدلُّ على سابقه مرّة))[٢] .

وعلى الرغم من أنّ الكرماني قد دخل في مسألة حسابية أصلها الجمع لهذهِ النظرات ، وإحصاء عددها ، إلاّ إنّه انتهى إلى أن المجموع أربع نظرات . وهذا يعني أنّه متفق مع المفسرين في أنّ المقصود بالتثنية التكثير والتكرر وليست حقيقة التثنية ، وأنّ السياق هو مَنْ حدّد تلك الدلالة .

ويمكن أن يقال : كرتين تثنية (كرّة) وهي المرّة ، وعبر عنها بالكرة مشتقة من (الكَرِّ) وهو (العَوَد) لأنها عَودٌ إلى شيءٍ بعد الإنفصال عنه مثل : كَرّ المقاتل يحمل على العدو بعد أن يفرّ فِراراً مصنوعاً ، وإيثار لفظة (كرتين) في الآية من دون مرادفهِ نحو (مرتين) و(تارتين) ؛ لأنَّ كلمة (كّرة) لم يغلب إطلاقها على عدد الأثنين ، فكان إيثارها في مقام لايُرَاد بهِ اثنين ، أظهرُ في أنها مستعملة في مطلق التكرير دون عدد أثنين أو زوج وهذا من خصائص الإعجاز في كتابِ الله تعالى .

---

(١) تفسير ابن كثير : ٣٩٧/٤ .

(٢) أسرار التكرار في القرآن : ٢٠٦/١ .

المبحث الثاني

الإيثار الدلالي بين المبني للمعلوم والمبني للمجهول :

قد يأتي الفعل في القرآن الكريم مبنيّاً للفاعل ، ويأتي مبنيّاً للمفعول أيضاً بحسب مايقتضيه السياق .

ومن البديهي أن يكون لهذا الانتقال والتغيير معان وأغراض ، منها : العلم الواضح بالفاعل ، أو الجهل بهِ ، أو الإيجاز والاختصار ، أو التعظيم والتفخيم[١] . فما يقع من حدث على المفعول بهِ هو محل العناية والاهتمام ، مما يجعله ذا فائدة تفوق فائدة الفاعل وذكره ، فيقع المفعول محلّه ليكون مسنداً إليه تأكيداً وإهتماماً . نحو قولهم – مثلاً – ((قُتِلَ حمزة)) فإن الغرض من حذف الفاعل وإقامة المفعول مقامه ((ليسَ لكون الفاعل معلوماً أو مجهولاً ، أو حُذِفَ إيجازاً واختصاراً ، أو تعظيماً وتفخيماً ، ولكن لأنّ ماعناهم من شأن المفعول وما وقع بهِ من حدث عظيم هو أشدّ بكثير من ذكر الفاعل عندهم ، ولذا أسقطوا الفاعل وأقاموا المفعول بهِ مقامه ليكون الإسناد والتعبير والقصد متوجهاً إليهِ فحسب دون العناية بالفاعل أيًّا كان))[٢] .

وقد وردت في القرآن الكريم آيات بُنيَ فيها الفعل للمفعول مرّة ، وللفاعل مرّة أخرى ، بحسب قصد معناه لما يبنى له ولما يسند إليه ، والسياق هو من يحدد المعنى المقصود منه .

---

(١) ينظر : اللباب في علل البناء والأعراب : ١٠٧/٢ ، وشرح المفصل : ٦٩/٧ ، وهمع الهوامع : ١٦١/١-١٦٢ .

(٢) البنى النحوية وأثرها في المعنى ، أحمد عبدالله حمود العاني ، أطروحة دكتوراه ، جامعة بغداد – كلية الآداب ، ٢٠٠٣ م : ٢٦٥ .

ومن أمثلة تلك الآيات :

١. قوله تعالى : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ الحج: ٤٢ – ٤٤ .

فقد ورد الفعل (كُذِّبَ) مَبْنيّاً للمجهول ، في حين أنّ السياق في الآيات الكريمة السابقة ، جَرَى على ذكر الفاعل ، قال تعالى (وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ... وَقَوْمُ... ، وَقَوْمُ ، ... وَأَصْحَابُ ...) ثم قال (وَكُذِّبَ مُوسَىٰ) ، ولم يقل (وَكُذِّبَ قومُ موسى) .

وعللّ الزمخشري ذلك بقوله : ((فإنْ قُلْتَ : لِمَ قيل (وَكُذِّبَ مُوسَىٰ) ولم يقل : وقوم موسى ؟

قلت : لأنّ موسى ماكذّبَهُ قومه بنو إسرائيل ، وإنّما كذّبَهُ غير قومهِ وهم القبط وفيه شيءٌ آخر ، كأنّه قيلَ بعدَ ماذكر تكذيب كلّ قومٍ رسولهم ، وكُذِّبَ موسى أيضاً مع وضوح آياتهِ وعظم معجزاتهِ فما ظنّك بغيرهِ))[١] .

ويبدو – والله أعلم – وكأنّه آثر ذكرَ الفعل مبنيّاً للمجهول بدلاً من بنائهِ للمعلوم ، للدلالةِ على أنّ المبالغة في التكذيب لموسى (عليه السلام) مع ظهور معجزاتهِ ، وآياتهِ الظاهرة ، فهو أكثر الرسل السابقين معجزات وآيات ، ومع ذلك كُذِّب ، وفي هذا مزيد إيناسٍ للنبي (ﷺ) وتسلية له[٢] .

---

(١) الكشاف : ٣/١٦-١٧ .

(٢) ينظر : البحر المحيط : ٦/٣٤٨ .

٢. قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ هود: ١٠٥ ــ ١٠٨ .

وردَ الفعل (سُعِدُواْ) مبنيّاً للمجهول ، وكان السياق يقتضي أن يكون مبنيّاً للمعلوم (سُعِدُواْ) ؛ لأن الفعل (شَقُواْ) – في الآية السابقة – كان مبنيّاً للمعلوم .

وقيل إنّ بناء الفعل (سُعِدُواْ) للمجهول إنّما جاء في قراءة حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ، وَقرأها الباقون بفتح السين أي البناء للمعلوم[١] .

قال الكسائي : ((سُعِدُواْ ، وأسعدوا لغتان ، ومن ذلك رجل مسعود من سُعِدَ))[٢] .

ونقل الطبري اختلاف القرّاء في (سُعِدُواْ) ، إذ قال : ((اختلفتِ القرَأةُ في قراءةِ ذلك ؛ فقرأته عامةُ قرأة المدينةِ والحجاز والبصرة وبعض الكوفيين : (وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ) بفتح السين . وقرا ذلك جماعة من قرأةِ الكوفيين : (وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ) بضمّ السين ، بمعنى : ((رُزِقوا السعادة ، والصوابُ من القول في ذلك أنهما قراءتان معروفتان ، فبأيتهما قرَأ القاريءُ فمصيبٌ الصوابَ))[٣] . فالقراءتان صحيحتان عند الطبري .

وذكر القرطبي بعد أنْ نقلَ اختلاف القُرّاء في قراءة (سعدوا) ، أنّ الدليل على أنّه (سَعِدوا) بفتح السين ، أنّ الأول شقُوا ، ولم يقل أشقوا ، وأنهم تعجبوّا من قراءة الكسائي : (سُعِدُوا) بضم السين ، مع علمه بالعربية ! حتى عدّه بعضهم لحناً لايجوز ، ((لأنّه إنما يُقال : سَعِدَ فلانٌ وأسعده الله ، وأُسعد مثل أُمرِض ، وإنّما احتجَّ الكسائي بقولهم : مسعود ، ولاحجَّة له فيه ، لأنّه يقال : مكان مسعودٌ فيه ، ثم يُحذَف فيهِ ويسمّى به ... ومَنْ ضَمَّ السين من ((سُعدوا)) فهو محمولٌ على قولهم : مسعود ، وهو شاذٌ قليل ؛ لأنّه

---

(١) ينظر : السبعة في القراءات – ابن مجاهد – : ٣٣٩ ، والكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها : ٥٣٦ .

(٢) معاني القرآن : ١٦٥ .

(٣) جامع البيان : ٥٨٤/١١ .

لايقال : سعده الله ، إنما يقال : أسعده الله ، وقال الثعلبي : ((سُعِدُوا)) بضمّ السين ، أي : رُزقوا السَّعادة ، يقال : سُعِدَ وأُسعِد بمعنى واحد))[١] .

ويبدو – والله أعلم – أنّ البناء للمجهول في هذ الفعل إنّما جاءَ للتفخيم والتعظيم ، بدليل أنهم قرأوا (سُعِدُوا) بضم السين بمعنى أسعدهم الله ، فأخفى الفاعل وهو لفظ الجلالة للدلالة على تعظيمه جَلَّ شأنه . في حين بُنيَ الفعل (شَقُوْا) للمعلوم ؛ لأنّ الشقاء ناتج عن أفعالهم وأعمالهم بأنفسهم لارتكابهم السيئات والمعاصي ، فشقاء هؤلاء كان من عمل أيديهم ، وسعادة أهل الجنّة إنما هو من إسعاد الله لهم ، وفي هذا إشارة إلى أنّ دخول أهل النار النار بمحض عدل الله تعالى ، ودخول أهل الجنّة الجنة بمحض تفضلهِ وسعة رحمته .

٣. قوله تعالى :﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ۝١٥ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ۝١٦ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۝١٧ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ۝١٨ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ الإنسان: ١٥ – ١٩ .

يلحظ هنا مجيء الفعل (يطافُ) مبنيّاً للمجهول إبتداءً ، فقال (وَيُطَافُ عَلَيْهِم ...) ثُمَّ بنى الفعل للمعلوم وذكر الفاعل في الآية اللاحقة ، فقال (وَيَطُوفُ عَلَيْهِم) . وتنبّه الكرماني على ذلك بقولهِ : ((وقوله (وَيُطَافُ عَلَيْهِم) وبعده (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ) ، إنّما ذكر الأول بلفظ المجهول ، لأن المقصود مايُطاف به إلاّ الطائفون ، ولهذا قال (بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ) ، ثمَّ ذكر الطائفين ، فقال : (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ)))[٢] .

والسياق هو الذي اقتضى الحذف أولاً ، والذكر ثانياً ، فهو في الآية السابقة (وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ۝١٥ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا) ، يركز على المطوف به لا على الطائفين ، فالمهم في السياق هو ذكر مايطاف به ؛ ولذلك أسهب في وصف الآنية وأنّها من فضة ووصف الأكواب ، وكذلك حذف الفاعل وبنى الفعل للمجهول في الآية

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٢١٧/١١ . وينظر : مشكل إعراب القرآن : ٣٧٤/١ ، والمحرر الوجيز : ٢٠٩/٣ ، وروح المعاني : ١٤٥/١٢ .

(٢) البرهان في توجيه متشابه القرآن : ١٩٢ ، وينظر : البحر المحيط : ٣٨٩/٨ .

التالية لها فقال (وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا) ، لأنّه ليس هو المهم في السياق إذ المهم هو الشراب الذي يُسْقَونَه لا الساقي لهم ، ولذلك ذكر الكأس التي يُسْقَون بها ، وأنّهم يُسْقَونَ شراباً ممزوجاً بالزنجبيل من عين تسمى سلسبيلاً ، ولكنه بعد ذلك بنى الفعل للمعلوم فذكر الفاعل في قوله :﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ الإنسان: ١٩ – ٢٠ ، لأنّ التركيز والاهتمام في هذا السياق منصبٌ على الفاعل نفسه وهم الولدان المخلدون ، فوصفهم أنّهم ولدانٌ ، وأنّهم مخلّدون ، وأنّ الرائي لهم يحسبهم من حسنهم ، وجمالهم وبهاء طلعتهم ، كأنّهم لؤلؤٌ منثور[١] .

ولو سأل سائل ، لماذا قُدّمَ ذكر المبني للمجهول على المبني للمعلوم في هذا السياق ، فقال (ويطاف ... ويطوف) ؟ والمعهود في الاستعمال اللغوي أنْ يَرد المبني للمعلوم قبل المبني للمجهول عندما تكون مادة الفعل واحدة في المرتين والفاعل واحداً ؛ لأنّ ذكر الفاعل في المرة الأولى يغني عن ذكره في المرّة الثانية ؟

فالجواب – والله أعلم – أن السياق الأول (وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ) كان المقصود به التركيز إبتداءً على النعمة التي يتنعم بها أهل الجنة ، وذكر وصف أوانيهم وأكوابهم وشرابهم ، ثم بعد ذكر نعمة الله على وجه التفصيل والتفضيل ناسب ذكر الخدم والحشم ووصفهم ، ((فذكر النعم سابق لذكر الخدم ، وهم تبع لها وليسوا أصلاً لها ، ولا محل الإهتمام الأول ابتداءً ؛ لذا ناسب مجيء مَنْ يطوف عليهم ، فقال (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ) . ثم في ذلك أيضاً شَدٌّ للإنتباه عند بناء الفعل إبتداءً للمجهول ، إذ قال : (وَيُطَافُ عَلَيْهِم) فيضلّ التساؤل وارداً مفاده هذا وصف المطوف بهِ فمن الطائِفونَ وما وصفهم ؟ فيأتي ذكرهم بعد ذلك تبعاً ، وهذهِ من لطائف الكتاب العزيز))[٢] .

---

(١) ينظر : جامع البيان : ٢٣/٥٦٤-٥٦٥ ، والمحرر الوجيز : ٥/٤١٣ ، والجامع لأحكام القرآن : ٢١/٤٧٩ .

(٢) الأعجاز البياني في العدول النحوي السياقي في القرآن الكريم ، للدكتور عبدالله علي الهتاري : ٢٢٧ .

٤. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ آل عمران: ١٤ .

وردَ الفعل (زُيِّنَ) مبنيّاً للمجهول ، بدلاً من بنائه للمعلوم ، وقد ذكر القرطبي قراءتين في (زُيِّنَ) ، قال : ((قرأ الجمهور (زُيِّنَ) على بناء الفعل للمفعول ، ورفع (حُبُّ) ، وقرأ الضحّاك ومجاهد : (زُيِّنَ) على بناء الفعل للفاعل ، ونصب (حُبَّ)))[١] .

وقال الطبري : (((زُيِّنَ لِلنَّاسِ) مَحَبّةُ ما يَشْتَهُون من النساء والبنين وسائِر ما عَدَّ . وإنَّما أراد بذلك توبيخ اليهود الذين آثروا الدنيا وحُبّ الرِّياسة فيها على إتباع مَحّمِد (ﷺ) بعدَ علمهم بصدقهِ ، وكانَ الحسنُ يقولُ : مَنْ زَيَّنَها ؟ ما أحدٌ أَشدَّ لها ذمَّاً مِن خالِقها))[٢] .

واختلف المفسرون فيمن زَيّنَ للنّاس محبّة ذلك ، ونقل الرازي هذا الاختلاف متسائِلاً : إن كانَ الشيطان هو من زيّنَ ذلك ، فمن الذي زينَ الكفر والبدعة للشيطان ؟! . ثم أوردَ ثلاثة أقوال للمعتزلة فيما يخصّ هذا الأمر[٣] :

الأول : ما حُكيَ عن الحسن البصري قوله : إنّ الشيطان زيّن لهم ، وكان يحلف على ذلك بالله ، وأنّه تعالى أطلق حُبّ الشهوات ، فيدخل فيه الشهوات المحرّمة ، ومزين ما حُرِّم من الشهوات هو الشيطان .

والثاني : قول قومٍ من المعتزلة : إنَّ المزيّن لهذهِ الأشياء هو الله ؛ لأنّ الله تعالى كما رغّبَ في منافع الآخرة فإنّه خلق ملاذ الدنيا وأباحها لعبيده ، وهذه الأباحة هي تزيين لها . ثمَّ إنّ الإنتفاع بهذهِ المشتهيات وسائل إلى منافع الآخرة ، والله تعالى قد ندبَ إليها فكانَ مزيناً لها ، والإنتفاع يكون على وجوه : الأول : أن يتصدّق بها . و(الثاني) : أن يتقوى بها على طاعة الله تعالى . و(الثالث) أنه إذا انتفع بها وعلم أنّ تلك المنافع إنما

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٤٣/٥ ، وينظر : المحتسب : ١٥٥/١ ، والمحرر الوجيز : ٤٠٨/١ .
(٢) جامع البيان : ٢٥٤/٥ .
(٣) ينظر : مفاتيح الغيب : ٢٠٩/٧-٢١٠ .

تيسرت بأمر الله وإعانته سيكون ذلك سبباً لإشتغال العبد بالشكر العظيم لخالقها وميسرها له .

والثالث : إنّ كُلّ ما كانَ من هذا الباب واجباً ، أو مندوباً كانَ التزيين فيه من الله تعالى ، وكلّ ما كانَ حراماً كان التزيين فيه من الشيطان .

وذهبَ الآلوسي إلى أنَّ ((الشهوات زّينت في أعينهم لنقصانهم ، ولا زينة لها في الحقيقة من غير أن يكون هناك مزيّن ، إلاّ أنّه أثبت مزيّن مبالغة في الزينة وتنزيلاً لسبب الزينة منزلة الفاعل فقد تعسف وتصلّف ، ومن قال : المزين في الحقيقة هو الشيطان ؛ لأنّ التزيين صفة تقوم به))[1] .

ويبدو – والله أعلم – أن الفعل (زُيِّنَ) قد بُنيَ للمجهول ليدلّ على نيتين متضادتين ، فإذا أحسنَ الإنسان النية في التمتع بهذهِ الشهوات من إعفاف النفس وتكثير النسل وإعانة الفقراء والمساكين ، ومن إقتناء الخيل والأنعام وحراثة الأرض لينفع العباد والبلاد بها ، كان فاعل ذلك الفعل هو الله تعالى بدليل قوله جلّ وعلا : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ الأعراف : ٣٢ ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ الكهف: ٧ . فهذهِ الشهوات زيّنها الله تعالى للعباد لتكون وسيلة تحث على الحصول على ماهو خير منها وأبقى .

وبما أنّ هذهِ الشهوات من النساء والبنين والذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام كلّها موجودة في الجنة ، فقد بيّنَ الله تعالى أنّها متاعٌ قليلٌ في الدنيا ، فلا تركنوا إليها ، وإنما اجعلوها وسيلة لإرضائهِ سبحانه ، كي تعود إليكم في حياتكم الأبدية .

أمّا النيّة الأخرى التي يريدها فهي نيّة سوء للتمتع بها لذاتها ، والإبتعاد عن الغاية التي وجدت لها أو أُنيطت بها ، وهذا من الشيطان لأنّه هو فاعل (زُيِّنَ) عندئذٍ ، بدليل قولهِ تعالى : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ

(١) روح المعاني : ٩٩/٣ .

أَعۡمَـٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ﴾ العنكبوت: ٣٨ ، وقوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ الحجر: ٣٩ .

وإذا ما ابتعدَ الأنسان عن النية السليمة وانحرف إلى النيّة السيئة ؛ كان التزيين من الشيطان ، ومن ثمَّ أراد الله تعالى أن يبعد هؤلاء المغرورين بهذهِ الأمتعة من النية السيئة الخبيثة والقصد القصير إلى متاع أبدي أجمل ممّا سبق وأحسن ، ولمّا كانت هذهِ الأمتعة زائلة والدنيا فانية ، فلا بُدّ من الرجوع إليه سبحانه ليروا المتاع الحسن والمآب الأفضل عند الله[١] .

٥. قوله تعالى : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّـٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَـٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴾ الكهف: ٣١ .

جاءَ الفعل (يُحَلَّوْنَ) في الآية الكريمة مبيّناً للمفعول[٢] ، في حين ذكر القرطبي أنّ الفرّاء حكى (((يُحَلَّوْنَ) بفتح الياء وسكون الحاء وفتح اللام خفيفة ، يقال : حَلِيت المرأة تَحْلى فهي حالية إذا لبست الحَلْي ، وحَلِيَ الشيء بعيني يَحْلَى ، ذكره النحاس))[٣] .

وبيّن السمين الحلبي ، لِمَ بُنيَ الفعل للمجهول ؟ قال : ((بُنيَ الفعل في التحلية للمفعول إيذاناً بكرامتهم ، وأنَّ غيرَهم يفعل لهم ذلك ويُزَيِّنُهم بهِ ، كقول ٱمريء القيس :

غرائرُ في كُنٍّ وَصَوْنٍ ونعمةٍ يُحَلَّيْنَ ياقُوتاً وَشَذْراً مُفَقَّراً

بخلاف اللبس فإنَّ الأنسان يتعاطاه بنفسهِ ، وقُدِّمَ التحلّي على اللباس لأنّه أشهى

---

(١) ينظر : الأعجاز البلاغي لتحولات النظم القرآني ، للدكتور : أحمد محمد أمين اسماعيل : ١٦٥-١٦٦ .

(٢) كذلك ورد هذا الفعل مبنيّاً للمفعول في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَـٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴾ الحج: ٢٣ ، وقوله تعالى : ﴿ عَـٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا ﴾ الإنسان: ٢١ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن : ٢٦٥/١٣ ، وينظر : إعراب القرآن (النحاس) : ٤٥٥/٢ .

للنفسِ))[١] .

فبناء الفعل للمجهول في ذكر التحلية بالذهب ، إنّما هو إشارة إلى أنهم ملوك الآخرة ، والملوك يُلْبَسِون الذهب من قبل الخدم والحشم ، وفي هذا مزيدٌ من التكريم لهم .

بينما يكون لبس الثياب من قبل صاحبها ، فلا يُلبَّس ثيابه إلاّ مَنْ كان مريضاً أو بهِ علّة تمنعه من ذلك ، لذلك لم يرد تحلية أهل الجنّة بالذهب إلاّ مبنيّاً للمجهول للدلالة على علّو منزلتهم عند ربّهم[٢] .

٦. قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ الجن: ٩ – ١٠ .

جاءَ الفعل (أُرِيدَ) مبنيّاً للمجهول ، في حديث الجن الذينَ كانوا يسترقون السمع على الملائكة ؛ ليعرفوا أخبار السماء وما أمر الله بهِ ملائكته ليقوموا بتدبيره ، وعندما منعوا من الاسترق والتجسس على أهل السماء ؛ وذلك برجمهم وتسخير الشهب لتحرقهم قالوا : ((إنّا لانَدْري أعذاباً أرادَ الله أن يُنزله بأهل الأرض ، بمنعه إيّانَا السمعَ من السماءِ ، ورجمهِ من استمعَ منّا بالشَّهب ، (أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا) ، يقول : أم أراد بهم ربّهم الهُدَى بأن يبعثَ فيهم رسولاً مُرْشِداً يُرْشدُهم إلى الحق))[٣] . وهذا كُلّه من علامات نبوّة محمّد (ﷺ)[٤] .

وقال أبو حيّان الأندلسي : ((حين ذكروا الشرّ لم يسندوه إلى الله تعالى ، وحين ذكروا الرشد أسندوه إليه تعالى))[٥] .

وذكرَ الدمشقي (ت٨٨٠هـ) ، أنّ حديث الجنّ هذا ، كان فيما بينهم من قبل أن يسمعوا قراءة النبي (ﷺ) للقرآن ، فقالوا ((لاندري أشرٌّ أريدَ بمن في الأرض بإرسال محمد(ﷺ) إليهم يكذبونه ويهلكون بتكذيبهِ كما هلك مَنْ كَذّبَ من الأمم ، أم أراد أن يؤمنوا

---

(١) الدّر المصون : ٤٨٣/٧ ، وينظر : اللباب في علوم الكتاب : ٤٨١/١٢ .
(٢) ينظر : الإعجاز البياني في العدول النحوي السياقي في القرآن الكريم : ٢٢٧ .
(٣) جامع البيان : ٣٢٩/٢٣ .
(٤) ينظر : الهداية إلى بلوغ النهاية : ٧٧٦٨/١٢ . والجواهر الحسان في تفسير القرآن : ٤٩٦/٥ .
(٥) البحر المحيط : ٣٤٣/٨ ، وينظر : المحرر الوجيز : ٣٨٠/٥ .

فيهتدوا ، فالشرّ والرشد على هذا الكفر والإيمان ، وعلى هذا كان عندهم علم بمبعث النبي (ﷺ) ولمّا سمعوا قراءته علموا أنّهم منعوا من السماء حراسةً للوحي))[١] .

وذهبَ البقاعي إلى أنَّ التعبير بالملأ يدلّ على أنَّ السماء كانت قبل ذلك تحرس – أيضاً – لكن ليس على هذا الوجه ، حتى قيل : إنّها حُرِست لنزول التوراة ، ثم اشتدّ الحرس للأنجيل ، ثم ملئِت بالحرس الشدِاد استعداداً لنزول القرآن ، وأنّ الجنّ اشتبه عليهم أمر هذا المنع ولم يعلموا سرَه ، وفي هذا دلالة على جهلهم ببعض المسائل وأنّهم لايعلمون الغيب ، لذلك فوّضوا هذا الأمر إلى علاّم الغيوب ، فقالوا : (وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ) أي : بوجه من الوجوه ، وإنْ دافعنا واجتهدنا (أَشَرّٞ) وَلمّا كان المحذور نفس الإرادة الماضية لا كونها من معروف مع أَنّ الفاعل معروف ، وهو الفاعل المختار الذي له الإرادة الماضية النافذة ، بنوا للمفعول قولهم : (أُرِيدَ) معلمين للأدب في أَنّ الشرَّ يتحاشى من إسنادِهِ إليه سبحانه حيث لا إشكال في معرفة أنه لايكون شيءٌ إلاّ بهِ (بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ) أي بهذهِ الحراسة فينشأ عنها الغيّ ، (أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ) أي المحسن إليهم المدبر لهم ، بنوه للفاعل في جانب الخير إعلاماً مع تعليم الأدب بأنَّ رحمته سبقت غضبه ، وإشارةً إلى أنّه قد يكون أراد بهذا المنع الخير))[٢] .

والذي يبدو أنّ إسناد فعل الشرّ إلى المجهول ، إنّما هو من قبيل التأدب مع الله تعالى في تحاشي إسناد الشر إليه[٣] .

أمّا قوله (أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا) ؛ فهو من ناحية أخرى أدب مع الله وتعظيم لشأنه في إسناد الرشد إليه[٤] .

إنّ حذف الفاعل في هذا السياق ونظائرهِ تأدباً مع المولى –ﷻ– من أُن تسند أفعال الشرّ إليه ، في حين اسندت أفعال الخير إليه ، وهذهِ ظاهرة تكاد تطّرِد في السياق القرآني.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب : ٤٢٢/١٩ .

(٢) نظم الدرر : ٤٧٨/٢٠–٤٧٩ .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير : ٢٣١/٢٩ .

(٤) ينظر : البرهان : ٤ / ٥٩ .

٧. قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ النحل: ١١٠ .

وردَ الفعل (فُتِنُواْ) مبنيّاً للمفعول ، ويقصد بهم الذين ((عذبوا ومنعوا من الأسلام ، فَتنتهم المشركون ، (ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ) على الإيمان والهجرة والجهاد ، (إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا) من بعد تلك الفتنة والغفلة (لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ)))[١] .

قال الزمخشري : ((وقرئ (فَتَنُوا) على البناء للفاعل ، أي : بعدما عذبوا المؤمنين كالحضرمي وأشباهه))[٢] .

وذكر العكبري معنى قراءة هذا الفعل على البناء للمفعول ، إذ قال : ((يُقْرَأ عَلى مالم يُسَمَّ فاعله ؛ أي : فَتنهم غيْرُهم بالكفر فأجابوا ؛ ويُقْرَأ بفتح الفاء والتاء ، أي : فَتَنُوا أنفسهم أو فَتَنُوا غيرهم ثم أسلموا))[٣] .

واختلفوا في سبب نزول هذه الآية الكريمة ، قال القرطبي : ((هذا كلّه في عَمّار ، والمعنى : صبروا على الجهاد ... وقال قتادة : نزلت في قومٍ خرجوا مهاجرين إلى المدينة بعد أن فتنهم المشركون وعذّبوهم ... وقيل : نزلت في ابن أبي سَرْح ، وكان قد ارتدَّ وَلَحِقَ بالمشركين فأمر النبي (ﷺ) بقتله يوم فتح مكة ، فآستجار بعثمان ، فأجاره النبي (ﷺ)))[٤] .

كذلك بيّن السمين الحلبي معنى قراءة هذا الفعل على البناء للفاعل ، والبناء للمفعول ، بقوله : ((قرأ ابن عامر (فَتَنُوا) مبنيّاً للفاعل ، أي : فَتَنُوا أنفُسَهم ، فإن عاد الضمير على المؤمنين فالمعنى فَتَنُوا أنْفَسهم بما أَعْطَوا المشركين من القول ظاهراً ، أو أنهم لمّا صبروا على عذاب المشركين فكأنّهم فتنوا أنفسهم ، وإنْ عادَ على المشركين فهو واضح ، أي : فَتَنُوا المؤمنين ، والباقون (فُتِنُواْ) مبنيّاً للمفعول ، والضمير في (بعدها)

---

(١) معالم التنزيل (تفسير البغوي) : ٤٧/٥ .
(٢) الكشاف : ٦١٣/٢ ، وينظر : السبعة في القراءات : ٣٧٦ .
(٣) التبيان عن إعراب القرآن : ٨٠٨/٢ ، وينظر : السبعة في القراءات : ٣٧٦ ، والتيسير : ٣٩٥ .
(٤) الجامع لأحكام القرآن : ٤٥٠/١٢ ، وينظر : معاني القرآن : ١١٣/٢-١١٤ ، والدر المنثور في التفسير بالمأثور : ١٢٤/٩ .

للمصادر المفهومة من الأفعال المتقدمة ، أي : مِنْ بعد الفتنة والهجرة والجهاد والصبر))[١] .

ويبدو –والله أعلم– أنّ أولئك المفتونين هم المستضعفون الذين حملهم أقوياء المشركين على الرّدة والرجوع عن الإيمان فبيّن سبحانه وتعالى أنّهم لمّا هاجروا وجاهدوا وصبروا فإنّ الله غفرَ لهم تكلمهم بكلمة الكفر ، لأنّهم عُذِّبوا في الله وأكرهوا على الأرتداد عن دينهم فأعلمهم الله تعالى بالمغفرة بدليل قولهِ تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ النحل: ١٠٦ ، فقد عفى عنهم سبحانه ، لأن لسانهم هو مَنْ نطق كلمة الكفر نتيجة مالاقوه من العذاب والإكراه ، أمّا قلوبهم فقد بقيت مطمئنة بما يملأها من الإيمان بوحدانيتهِ سبحانه وتعالى[٢] .

(١) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون : ٢٩٢/٧-٢٩٣ ، وينظر : المحرر الوجيز : ٥٢٥/٨ .
(٢) ينظر : تفسير الرازي : ١٣٧/٢٠ ، وفتح القدير : ٢٣/٣ .

المبحث الثالث

ومن ذلك الإيثار الدلالي مايأتي :-

١. إيثار صيغة (فِيعَال) على صيغة (تفاعل) :

قال تعالى : ﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ الأنفال: ٤٢ .

قال الطبري في تفسير هذهِ الآية الكريمة ، والتي يخاطبُ فيها الله (ﷻ) المؤمنين ، بأنّه : ((لو كانَ اجتماعكم في الموضع الذي اجتمعتم فيه ، أنتم أيّها المؤمنون وعدّوكم من المشركين ، عن ميعادٍ منكم ومنهم (لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ) لكثرةِ عدد عدوّكم ، وقلّة عددكم ، ولكِنَّ اللهَ جمعكم على غير ميعاد بينكم وبينهم (لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا) وذلك القضاء من اللهِ كانَ نصرهُ أولياءه من المؤمنين بالله ورسولهِ ، وهلاك أعدائهِ وأعدائكم ببدر بالقتل والأسر))[١] .

فالخلاف الحاصل سيكون في الميعاد ، أي : لاختلفتم في زمان القتال ، حتى وإن ((أعلم كُلٌّ منكم الآخر بالخروج للقتال (لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ) ، أي لتخلّفتم عن الميعاد أي المواعدة أي التواعد بمعنى أنّكم لم توفوا بما أعلمتم به بل تتخلفون عن الخروج ، فالميعاد معناه التواعد))[٢] ، والميعاد في اللغة : المواعدة ووقتها ومكانها[٣] . وبذلك يتبين أَنَّ الاختلاف يكون في زمان المواعدة ، وليس الاختلاف في أنهم يتواعدون أو لا يتواعدون ، ولذا قيل : إنّهم لو تواعدوا القتال بعدما عَلِمَ كُلَّ طرفٍ حالَ الطرف الآخر ، لحدث الاختلاف في الميعاد ، هيبة من العدوّ ، ويأساً من الظفر عليهم[٤] .

إذن فمجيء (الميعاد) بدلاً من (التواعد) إنما هو للدلالة على أنَّ المراد زمان الوعد ، لا حقيقة التواعد ، فالمراد زمان وقوع الحدث ، وهو التواعد ، لا وقوع الحدث مجرّداً من الزمان ، ولذا وردَ بصيغة (الميعاد) الدالة على توكيد زمان الوعد ، إذ لم يأتِ في القرآن

---

(١) جامع البيان : ٥٦٥/١٣ .
(٢) حاشية الجمل : ٢٤٦/١ .
(٣) ينظر : اللسان : (وعد) ٤٧٨/٤ .
(٤) ينظر : روح المعاني : ٧/١٠ .

الكريم إلاّ للدلالة على الزمان[١] .

٢. إيثار صيغة (فُعُول) على صيغة (تفاعل) :

قال تعالى في تنزيهِ ذاتهِ العليّة :﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾الإسراء: ٤٣ ، فقد جاء مصدر الفعل تعالى (عُلُوًّا) وليس (تعالياً)[٢] .

والمراد بهِ المبالغة في البراءة والنزاهة ممّا وصفوه بهِ جَلَّ في عُلاَهُ[٣] .

قال البقاعي : ((و(تَعَالى) أي عَلاَ وَعَظُمَ العلو بصفات الكمال (عَمَّا يَقُولُونَ) من هذهِ النقائض التي لايرضاها لنفسه أحدٌ من عُقلاء خلقه ، فضلاً عن رئيس من رؤسائكم ، فكيف بالعليّ الأعلى))[٤] . والنكتة في هذا الإيثار بين المصدر المقيس (تعالياً) ومصدر الفعل الثلاثي (عُلُوًّا) لأرادة تحقق المعنيين ، معنى المبالغة في (تعالى) ، ومعنى التجرّد في (عُلُوًّا) ، إذ أنّه قد ((أتى بالمصدر المجرّد في قولهِ (عُلُوًّا) إيذاناً بأنَّ الفعل مجرّد في الحقيقة وإن أُتيَ بهِ على صيغة التفاعل إيذاناً بالمبالغة))[٥] . فمجيء (عُلُوًّا) – إذن – بدلاً من (التعالي) ((للدلالة على أنّ التعالي هو للأتصاف بالعلوّ بحِقّ لابمِجرّد الأدّعَاء))[٦] .

---

(١) ينظر : سرّ الأعجاز في تنوّع الصيغ المشتقة من أصل لغوّي واحد في القرآن ، د.عودة الله منيع القيسي : ١٩٢ .

(٢) ينظر : معاني القرآن ، الأخفش : ٣٩٠/٢ .

(٣) ينظر : الكشاف : ٦٦٩/٢ .

(٤) نظم الدرر : ٤٢٢/١١-٤٢٣ .

(٥) المصدر نفسه : ٤٢٣/١١ .

(٦) التحرير والتنوير : ٢٣/٢٠ .

٣. إيثار صيغة (فَعَال) على صيغة (إِفْعَال) :

قال تعالى : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ آل عمران: ٣٧ . يلحظ هنا مجيء (أفعل) في (وأنبتها) ومجيء مصدر الثلاثي (نَبَتَ) وهو (النبات) في (نباتاً) ، قال الطبري : ((معناه : وأنبتها رَبُّها في غذائِهِ ورزقهِ نباتاً حسناً))[١] . وهو في الحقيقة ((مجاز عن التربية الحسنة العائدة عليها بما يُصْلحها في جميع أحوالها))[٢] .

ومن بركة هذا النبات الحسن الذي أنبتها الله أيّاه في الدنيا ، أنها تنبت في اليوم مثل ما ينبت المولود في عام واحد ، وأمّا في الدين فلأنَّها نبتت في الصلاح والسداد والعفة والطاعة[٣] .

وذلك من الأعلام ((بكمال الأمرين من إمدادها في النمو الذي هو غيب عن العيون وكمالها في ذاتية النبات الذي هو ظاهر للعين ، فكَمُلَ في الإنبات والوقوع حسن التأثير وحسن الأثَر ، فأعرب عن إنباتها ونباتها معنى حسناً))[٤] .

وعزا ابن عاشور مجيء (نباتاً) بدلاً من (إنباتاً) لكون (نباتاً) أخفّ من (إنباتاً) ، ((فلما تسنى الإتيان به لأنّه مستعمل فصيح لم يعدل عنه إلى الثقيل كمالاً في الفصاحة))[٥] ، وهو تعليل لفظي ، والصحيح أَنّ العلّة في هذا الإيثار معنوية وهي كون ((الإنبات إنما يُنْظرُ فيه إلى صنع الله ﷻ وهو خفيّ ، فعدلت الآية عنه إلى ماهو ظاهر وهو النبات حيث تتجلّى فيه مظاهر الإبداع والقدرة ، فكان ذلك أقوى مناسبة لمقام بيان قدرة الله تعالى ولطف صنعهِ ، والإمتنان على عبادِهِ بنِعمِهِ))[٦] .

وقد ورد إيثار هذه الصيغة في سورة نوح ، قال تعالى:﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ نوح :١٧، وأشار الرازي إلى السرّ في هذا الإيثار حين قال وفيه : ((دقيقة لطيفة وهي أنّه لو قال إنباتاً كان المعنى : أنبتكم إنباتاً عجيباً غريباً ، ولما قال أنبتكم نباتاً كان

---

(١) جامع البيان : ٣٤٤/٦ .
(٢) الكشاف : ٣٥٨/١ .
(٣) ينظر : التفسير الكبير : ٣١/٨ .
(٤) نظم الدرر : ٣٥٦/٤ .
(٥) التحرير والتنوير : ٢٠٤/٢٧ .
(٦) الأعجاز الصرفي في القرآن الكريم ، د.عبد الحميد أحمد يوسف هنداوي : ١٦٨ .

المعنى: أنبتكم فنبتم نباتاً عجيباً ، وهذا أولى لأنّ الإنبات صفة الله تعالى ، وصفة الله غير محسوسة لنا ، فلا نعرف أنَّ ذلك الإنبات إنبات عجيب ، وهذا المقام مقام الاستدلال على كمال قدرة الله تعالى فلايمكن إثباته بالسمع ، وامّا لما قال : (أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا) على معنى : أنبتكم فنبتم نباتاً عجيباً كاملاً كان ذلك وصفاً للنبات بكونهِ عجيباً كاملاً ، وكون النبات كذلك أمراً شاهداً محسوساً ، فيمكن الاستدلال بهِ على كمال قدرة الله تعالى ، فكانَ هذا موافقاً لهذا المقام ؛ فظهر أَنّ العدول من تلك الحقيقة كان لهذا السرّ اللطيف))[١] .

ومثل هذا الإيثار بين (فَعَال) و(إفعال) ماجاء في قوله تعالى :﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ﴾ النساء: ٦٠ . فقد جاء المصدر على وزن (ضلال) وليس (إضلال) ، وقد انتصب ((على المعنى أي فيضلون ضلالاً))[٢] . قال أبو حيّان : ((ضلالاً ليسَ جارياً على يُضلّهم ، فيحتمل أَنْ يكون جُعِلَ مكان إضلال ، ويحتمل أَنْ يكون مصدراً مطاوع يضلّهم أي فيضلون ضلالاً بعيداً))[٣] . وهو يرى أنّ ضلالاً في الآية يحتمل أَنْ يكون مصدراً لفعل محذوف مطاوع أضلَّ ، أي يريد الشيطان أن يضلهم فيضلون ضلالاً بعيداً . والأرجح أنّه بدلٌ من المصدر القياسي (إضلال) .

وأمّا (ضلال) فهو مصدر (ضلَّ) ، قال تعالى : ﴿ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾ النساء: ١١٦، ((والمعنى : أَنّ الشيطان يريد أن يُضلّهم ثم يريدُ بعد ذلك أن يضلّوا هم بأنفسهم ، فالشيطان يبدأ المرحلة وهو يتمونها ، فهو يريد منهم المشاركة في أن يبتدعوا الضلال ويذهبوا فيه كلّ مذهب ، يريد أن يطمئن إلى أنهم يقومون بمهتهِ هو))[٤] .

---

(١) التفسير الكبير : ٣٠/١٤٠ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن : ٥/١٧١ .
(٣) البحر المحيط : ٣/٢٨٠ .
(٤) معاني النحو ، د. فاضل صالح السامرائي : ٢/٥٨٩ ، وينظر : التعبير القرآني ، د. فاضل السامرائي : ٣٦ .

٤. إيثار صيغة (فَعُول) على صيغة (تَفَعُّل) :

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ آل عمران : ٣٧ .

يُلْحَظ أنّ المصدر من (تقبّلَ) خرج على غير لفظه ، إذ القياس (فَتَقَبّلها رَبُّها بتقّبلٍ) ، والعرب تأتي بالمصادر على أصول الأفعال وإن آختلفت ألفاظها في الأفعال بالزيادة [١].

وقد ذكر الزمخشري في (قبول) وجهان[٢] :

أحدهما : أَنْ يكون آسم ما تقبّل بِهِ الشيء كالسَّعُوط لما يُسْعَطُ بهِ .

والثاني : أن يكون مصدراً على تقدير حذف المضاف ، أي : فتقبّلها بذي قبول أي بأمرٍ ذي قبول ، في كلا الوجهين يكون معنى الاختصاص ، وهو : إقامتها مقام الذكر في النذر .

والصحيح أَنّ (قَبول) مصدر (قَبِلَ) وهو مذهب سيبويه في أَنَّ هناك مصادر جاءت على وزن (فَعُول) وهي : قَبُول ، وطَهُور ، ووَضُوء ، ووَقُود ، ووَلُوع ، ولكنّ الراجّح أَنّه جاءَ بدلاً من المصدر المقيس (تَقَبُّل) ، فهو مصدر الثلاثي (قَبل) ، ومجيئه هنا لإرادة الإشارة إلى معنى صيغتي (تَفَعَّل) و (فَعَّلَ) ، ففي معنى (التفعّل) دلالة على شدّة اعتناء الفاعل بإظهار الفعل ، يقال : تَصَبّر ، أي : جَدَّ واجتهدَ في إظهار الصبر ، وكذلك (التَقَبُّل) يَدلّ على المبالغة في إظهار القبول[٣] . قال الرازي : ((فإن قيل لِمَ لَمْ يَقُل : فتقّبلها رَبُّها بتقبّل حَسَن حتى تصير المبالغة أكمل ؟ والجواب أنّ اللفظ وإن أفاد ما ذكرنا إلاّ أنّه يفيد نوع تكلّف على خلاف الطبع ، أمّا القبول فإنّه يفيد معنى القبول على وفق الطبع ، فذكر التقبّل ليفيد الجدّ والمبالغة ، ثُمَّ ذكرَ القبول ليفيد أَنّ ذلك ليس خلاف الطبع بل على وفق الطبع ، وهذهِ وإن كانت ممتنعة في حَقّ الله تعالى ، إلاّ أنّها تدلّ من حيث العناية على حصول العناية العظيمة في تربيتها))[٤] . هذا فضلا عن ما في صيغة (التفعّل) من معنى التدرّج والتتابع ، ففي استعمال صيغة (التفعّل) : إشعارٌ في معنى

---

(١) ينظر : جامع البيان : ٣٤٤/٦ .

(٢) ينظر : الكشاف : ٣٥٧/١ .

(٣) ينظر : التفسير الكبير : ٢٩/٨ .

(٤) ينظر : المصدر نفسه : ٣٠/٨ .

التدرّج والتطوّر ، والزيادة في كلّ طور تتطوّر إليه ، فضلاً عن معنى التواصل والتتابع ، حتى ظلّ بركة تحريرها – أي مريم العذراء – عليها السلام – متجدداً لها في نفسها وعائداً بركته على أمّها ، حتى ارتقت إلى العلوِّ المحمدي فكانت من أزواجه ، ومن يتصل به[١] .

٥. إيثار صيغة (أفاعيل) على صيغة (تفعّلات) :

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾ الحاقة: ٤٤ - ٤٧ .

قال الزمخشري : ((التقوّل : افتعالُ القولِ ، كأنّه فيهِ تكلّفاً من الُمفْتَعِل ، وتسمّى المتقوّلة (أقاويل) تصغيراً لها وتحقيراً ، كقولك : الأعاجيب والأضاحيك ، كأنّها جمع أفعولة من القول ، والمعنى : لو أدّعى علينا شيئاً لم نقله لقتلناهُ صبراً ، كما يفعل الملوك بمن يتكذّب عليهم معالجة بالسخط والإنتقام))[٢] . والمقصود بالخطاب النبي (ﷺ) أنّه لو تَقَوّلَ على الله شيئاً من غير القرآن لعاقبه[٣] ، ومعنى (تقوّل) : تَكلّفَ وأتى بقول من قبل نفسه[٤] ، أي افتراه ((وسميَّ الإفتراءُ تقوّلاً لأنّه قولٌ مُتَكَلّف وَكُلُّ كَاذِبٍ يتكلّف ما يكذبه))[٥] ، ولما كان التقوّل بمعنى (الكَذِب) عُدِّيَ بـ(على)[٦] .

وأمّا (الأقاويل) فقد قيل : إنّها جمع الجمع[٧] ، وهو (أقوال) التي هي جمع (قول) ،

وقد رجّحه البقاعي ((لأنّه يلزم أن لا يعاقب بما دون ثلاثة أقوال))[٨] ، على اعتبار دلالة (الأقاويل) على الكثرة ، قال آبن عاشور : ((الأقاويل : جمع أقوال الذي هو جمع

---

(١) ينظر : نظم الدرر : ٣٥٦/٤ .
(٢) الكشاف : ٦٠٧/٤ ، وينظر : التفسير الكبير : ١١٨/٣٠ .
(٣) ينظر : المحرر الوجيز : ٨٠/١٥ .
(٤) ينظر : الجامع لأحكام القرآن : ١٨٧/١٨ .
(٥) فتح البيان : ٣٠٣/١٤ .
(٦) ينظر : التحرير والتنوير : ١٤٥/٢٩ .
(٧) ينظر : البحر المحيط : ٣٢٩/٨ ، ونظم الدرر : ٣٨٠/٢٠ .
(٨) نظم الدرر : ٣٨٠/٢٠ .

قول ، أي بعضاً من جنس الأقوال التي هي كثيرة فلكثرتها جيء لها بجمع الجمع الدال على الكثرة ، أي : لو نسب إلينا قليلاً من أقوال كثيرة صادقة ، يعني لو نَسَبَ إلينا شيئاً قليلاً لم نُنزّله لأخذنا منه باليمين))[١] .

وقيل : إنَّ (الأقاويل) جمع (أقوولة) على مثال أضحوكة مفرد أضاحيك ، ((وسمّيَ الأقوال المتقوّلة (أقاويل) تصغيراً لها وتحقيراً))[٢] ، فيكون المعنى : انّه لو نسب إلينا قولاً صغيراً في القرآن لَمْ نَقُلْهُ ، وَلَمْ نأذن في قولهِ لأخذنا منه باليمين ، أي بالقوّة [٣] .

٦. إيثار صيغة (استفعال) على صيغة (تفعيل) :

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۚ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ يونس : ١١ .

إذ يقتضي القياس أن يكون المصدر على (تفعيل) أي : تعجيل ، ((فَوضِعَ (ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ) موضع تعجيله لهم بالخير إشعاراً بسرعة إجابته لهُم وإسعافهِ بطلبهم ، حتى كَأنَّ أستعجالهم بالخير تعجيل لهم))[٤] ، ومعناه أنَّ الله تعالى لو أجابَ دُعاء النّاس بالشرِّ لِمَا لهم فيه مَضَرَّة ومكروه في نفسٍ أو مَالٍ أو وَلد مثل مَا يريدون فعله معهم في إجابتهم إلى الخير لأهلكهم[٥] .

قال الرازي : ((إنّ كُلَّ مَنْ عَجَّلَ شيئاً فقد طلب تعجيله ، وإذا كان كذلك ، فكلَّ مَنْ كانَ معجِّلاً كانَ مُسْتعجلاً ، فيصير التقدير ، ولو استعجل الله للنّاسِ الشرّ استعجالهم بالخير إلاّ أنّه تعالى وصفَ نفسه بتكوين العجلة وصفهم بطلبها لأنّ اللائق به تعالى هو التكوين ، واللائق بهم هو الطلب))[٦] . فيكون ((التعجيل من الله ، والاستعجال من العبد))[٧] ، وذلك لأنّ ((مدلول عَجَّلَ غير مدلول آستعجل ؛ لأنّ عَجّلَ يدلُّ على الوقوع ،

---

(١) التحرير والتنوير : ١٤٥/٢٩ .
(٢) الكشاف : ٦٠٧/٤ .
(٣) ينظر : حاشية الجمل : ٤٠٣/٤ .
(٤) الكشاف : ٣٣١/٢ ، وينظر : التفسير الكبير : ٥١/١٧ .
(٥) ينظر : المحرر الوجيز : ١١٣/٧ .
(٦) التفسير الكبير : ٥١/١٧ .
(٧) الجامع لأحكام القرآن : ٢٢/٨ .

، واستعجل يدلُّ على طلب التعجيل وذلك واقعٌ من الله تعالى ، وهذا مضافٌ إليهم))[١] ، أي ان الاستعجال مضافٌ إلى الخلقِ .

فتبيّن بذلك أن هذا الإيثار وقع للدلالة على الطلب والمبالغة الكامنة في صيغة (استفعل) ، المنسجمة مع السياق في محاكاة الطبيعة البشرية ، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ ﴾[٢] ، وعلى هذا الأساس ((ذكرَ في جانب الشرّ (يُعَجّل) الدال على أصل جنس التعجيل ولو بأقلّ ما يتحقق فيه معناه ، وعَبَّر عن تعجيل الله الخيرَ لهم بلفظ (استعجالهم) الدال على المبالغة بما تفيده زيادة السين والتاء لغير الطلب إذ لا يظهر الطلبُ هنا وهو نحو قولهم : أستأخر واستقدم واستجلب وأستقام واستبان واستجاب واستمتع واستكبر واستخفى وقوله تعالى ((واستغشوا ثيابهم)) ، ومعناه : تعجّلهم الخيرَ ، كما حمله عليه في الكشاف للإشارة إلى انّ تعجيل الخير من لدْنه))[٣] .

وقد علل ابن عاشور ذلك ، أي : أنه ليس بمعنى طلب التعجيل ، قال : ((فليس الاستعجال هنا بمعنى طلب التعجيل ؛ لأنّ المشركين لم يسألوا تعجيل الخير ولاسألوه فحصل ، بل هو بمعنى التعجل الكثير))[٤] .

٧. إيثار صيغة (فِعّال) على صيغة (تَفْعِيل) :

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴾ النبأ: ٢٨ . فقد جاءَ المصدر على (فِعّال) بدلاً من المصدر القياسي (تفعيل) ؛ للدلالة ((على أنّهم كَذّبوا بجميع دلائل الله تعالى في التوحيد والنبوة والمعاد والشرائع والقرآن ، وذلك يدلُّ على كمال حال القوّة النظرية في الرداءة والفساد والبعد عن سواء السبيل))[٥] ، فيكون معنى (كذّاباً) : التكذيب الكبير الشديد[٦] ، ، فضلاً عن تضمنه معنى كَذّبُوا ؛ لأنّ كلّ مُكَذّب بالحق كاذب ؛ ((لأنّهم كانوا عند

---

(١) حاشية الجمل : ٣٣٦/٢ .
(٢) الأنبياء / ٣٧ .
(٣) التحرير والتنوير : ١١ / ١٠٧ .
(٤) المصدر نفسه : ١١ / ١٠٧ .
(٥) التفسير الكبير : ١٨/٣١ .
(٦) ينظر : الجامع لأحكام القرآن : ١١٨/١٩ .

المسلمين كاذبين ، وكانَ المسلمون عندهم كاذبين فبينهمِ مكاذبة))[١] ، وهذا هو السرّ في إقامة (الكِذّاب) مقام التكذيب[٢] . ((ويجوز أن يكون الكذّاب للمبالغة وصفاً لمصدر محذوف فالمعنى تكذيباً بالغاً ذلك التكذيب الى نهاية الكذب))[٣] .

ولعلَّ تضعيف العين في بناء (فِعَّال) هو الذي أكسبه الدلالة على معنى (المبالغة) ، بخلاف بناء (تفعيل) الذي لاتضعيف فيه ، ودلالة التضعيف – ولاسيمّا تضعيف العين – على المبالغة والتكثير حقيقةٌ أشار إليها الكثيرُ من علماءِ اللغةِ والصرف والتفسير [٤] .

ويستعملُ بناءُ (فِعَّال) آستعمالين :

الأوّل : اَنْ يوافق بناءَ (تَفْعِيْل) في الدلالة على معنى المصدريَّة الخاصة ببناء (فَعَّل) ، لكن مع الدلالة على معنى المبالغة تنصيصاً ، فـ (الكِذّاب) أَبْلَغ من (التَّكذيب) ، ففي قوله تعالى :﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّاغِينَ مَئَابًا ﴿٢٢﴾ لَّابِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ يتضح من السياق والمقام انّ المرادَ وصفهم بأشدِّ صورة من صور التكذيب بآيات الله .

والثـــاني : أَنْ يُسْتَغْنَى بـه عن بناء (تَفْعيل) ، وذلك أنَّ بعضَ العرب يستعملون بناءَ (فعَّال) دونَ بناء (تفعيل) ؛ وذلك لغةٌ لبعض العرب[٥] ، قال سيبويه : ((وأمَّا (فَعّلْتُ) فالمصدر منه على (التفعيل) ، جعلوا التاءَ التي في أوّلهِ بدلاً من العين الزائدة في(فَعَّلْتُ) ، وجعلوا الياءَ بمنزلة ألف (الأفْعَال) ، فغيّروا أوّلَه كَمَا غَيّرُوا آخِرَهُ ، وذلك قولُكَ : (كَسَّرْتَهُ تَكْسِيْرًا ، وعَذّبْتُهُ تَعْذِيْباً) . وقد قالَ ناسٌ : (كَلَّمْتُهُ كلاّماً ، وَحَمَّلْتُهُ

---

(١) المصدر نفسه : ١١٩/١٩ .

(٢) ينظر : تفسير البيضاوي : ٢٤٠/٤ .

(٣) حاشية الكازروني على تفسير البيضاوي : ٢٤٠/٤ .

(٤) ينظر : الخصائص : ٤٦/٣ ، وشرح الشافية ، الرضي الأستراباذي : ١٣٦/٢ ، والبحر المحيط : ٣٠٣/٥ ، وإرشاد العقل السليم : ١٣٩/٤ ، وروح المعاني : ١٠٧/١١ .

(٥) ينظر : المفتاح في الصرف ، عبد القاهر الجرجاني : ٦٤ .

حِمَّالاً) ، أرادوا أنْ يجيئوا بـهِ على (الإِفْعَال) ، فكسروا أوَّلَهُ ، وألَحقُوا الألف قبلَ آخِر حرفٍ فيهِ ، ولم يُريدوا أنْ يُبدِلوُا حَرْفًا مَكانَ حرفٍ ، ولم يحذفوا))[١] .

٨. إيثار اسم المصدر (فَعْل) على المصدر (مُفَاعَلَة) :

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُمْۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ البقـــرة: ١٠٠ ، إذ وردَ (العَهْدَ) بـدلاً مـن (المُعَاهـدة) ، وإن كـان أقـرب إلـى الأسـمية منهـا إلـى المصـدرية ؛ ولـذا قيـل : هـو آسـم مصـدر ولـيس بمصـدر ، وقـد جـاءَ نصـبه علـى أنّـه مصدر ، أو تَضَمُّن (عاهدَ) معنـى (أعطـى)[٢] . والصـحيح أنّـه مصـدر انتقلَ معنـاه مـن المصـدرية إلـى الأسـمية ، فَالعَهْد : حفظ الشـيء ومراعاتـهِ حـالاً بعد حـال ، مـن قولهم : للمطر : عَهْدٌ ، وَعِهَاد ، وللروضـة التـي أصـابها المطـر روضـةِ معهـودة ، علـى إعتبـار معنى التفقد والمراعاة ، ومنه سُمّيَ الَموْثِق الذي يلزم مراعاته وحفظه عَهْدَاً[٣] .

والعهد المقصود هو العهد الذي كانَ بينهم وبين الله تعالى ، كانَ قد أخذه عليهم إن خـرجَ النبـيّ العربـي آمنـوا بـهِ ، وأخرجـوا المشـركين مـن ديـارهم ، وأن لايعينـوا أحـداً مـن الكافرين عليه ، ولكنهم نقضوا العهد ، مع ما أظهرَ الله ﷻ من الدلائل على نبوّة محمّد (ﷺ) ، وعَلـى صـحة شـرعهِ ، ((فكـان ذلـك كالعهـد منـه سـبحانه وقبـولهم لتلـك الـدلائل كالمعاهد منهم لله سبحانه وتعالى))[٤] ، وسمة نقض العهود والغدر سمَة اليهود ، وفـي ذكر ذلك تسلية لرسول الله (ﷺ) ؛ لأنَّ مَنْ يعتاد منـه طريقة معينـة ، لا يكون فيـه صـعوبة على النفس من مخالفته ، كصعوبة مَنْ لم تجد عادته بذلك[٥] .

وقد حصل هذا الإيثار للدلالة على كون هذا الموثق المأخوذ عليهم عهداً لازماً للحفظ والرعايـة فـي ذمتهم ، فـلا مجـال لـديهم لنقضـهِ ، فهـو لـيس معاهدة وإنمـا هـم عاهـدوا أي تكلفوا بحفظ عهدٍ واحدٍ من العهود ورعايته وهو الإيمان بالنبي (ﷺ) ، وقد أخذَ عليهم هذا العهد فـي التوراة حتـى سميت التوراة بالعهد ؛ قـال ابن عاشور : ((والمراد بالعهد عهد

---

(١) الكتاب : ٧٩/٤ .

(٢) ينظر : المحرر الوجيز : ٤١٢/١ ، والبحر المحيط : ٣٢٤/١ ، وتفسير أبي السعود : ١٣٥/١.

(٣) ينظر : المفردات : ٥٩١-٥٩٢ .

(٤) التفسير الكبير : ١٨٣/٣ .

(٥) ينظر : تفسير القرآن وغرائب الرَّحمن ، النيسابوري : ٣٤٤/١ .

التوراة أي ما اشتملت عليه من أَخْذِ العهد على بني إسرائيل بالعمل بما أُمروا به أخذاً مكرراً حتى سُمّيت التوراة بالعهد ، وقد تكرر منهم نقض العهد مع أنبيائهم ومن جملة العهد الذي أُخِذَ عليهم ، أَن يؤمنوا بالرسول المُصدِّق بالتوراة))[١] .

ولعلَّ في هذا الإيثار سرّاً لطيفاً ، وهو أَنّ النقض الذي نقضوه هو العهد نفسه ، فكأنّهم ناقضين لحقيقة العهد بحيث لايؤمنون بوجودِ عهدٍ أصلاً ؛ ولذا عُبِّر عن عَدِّ إعتقادهم بِهِ بقولهِ تعالى (نَبَذَهُ) ، ومعنى النبذ ((إلقاء الشيء وطرحه لقلّة الإعتداد بهِ ، ولذلك يقال : نبذه نَبْذَ النَعْل الخَلِق))[٢] . وقطعاً فالمعاهدة هذهِ ليست كالعهد ، فهم يدخلون في المعاهدة ولايلتزمون بالعهد ، وينبغي التنبيه على أَنّ من العلماء مَنْ أعربَ (عهداً) هنا مفعولاً بهِ ، على إعتبار أَنّ معنى عاهدوا أعطوا[٣] ، ولذلك قيل إنَّ (عهداً) هنا أقرب إلى الأسمية .

٩. إيثار اسم الهيأة (فِعْلَة) على المصدر (فَعْل) :

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ الروم: ٢٨ .

ورد اسم الهيأة (خِيفَة) بدلاً من المصدر (خَوْف) في الآية الكريمة ، إذ ضربَ الله مثلاً لقوم يعقلون في معرض الردّ على المشركين الذين يعبدون من دون الله من مخلوقاتهِ ، بأنّهم لايرضون أن يشاركهم مَمَالِيكهم في الأموال ونحوها ، وهو مثلهم في البشرية ، لكنهم يرضون بأن يجعلوا لله شركاء من خَلْقِهِ سبحانه وتعالى[٤] .

وهذا الخوف وعدم الرضا ، حاصل منهم بسبب الخشية من أن يرثوهم بعد موتهم ، أو أنّ الخوف حاصل بسبب خشيتهم من أن يقاسموهم الأموال[٥] . والخوف في اللغة :

---

(١) التحرير والتنوير : ١٠٠/١ .
(٢) المفردات : ٧٨٨ .
(٣) ينظر : حاشية الجمل : ٨٤/١ .
(٤) ينظر : جامع البيان : ٣٨/٢١ ، وروح المعاني : ٥٩/٧ .
(٥) ينظر : جامع البيان : ٣٩/٢١ .

((توقّع مكروهٍ عن أمارة مظنونة أو معلومة ، وأما الخيفة : فهي الحالة التي عليها الأنسان من الخوف))[١] ، أي هي اسم هيأة على نحو الجِلْسَة والقِعْدة ، إذ يقال : فلان حَسَنُ الجِلْسَة والقِعْدة ، أي أنَّ جلسته وقعدته حسنة لاتكاد تفارقها هذهِ الهيأة الحسنة[٢]، فيكون معنى الخيفة حالة الخوف الدائمة ، قال الراغبِ : ((قوله تعالى : ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي : كخوفكم ، وتخصيص لفظ الخيفة تنبيهاً أنَّ الخوفَ منهم حالةٌ لازمةٌ لاتفارقهم))[٣] . ومثله قوله تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ طه: ٦٧ – ٦٨ لما لازم من حالة الخوف والرهبة موسى (عليه السلام) عندما رأى عِصِيَّ السحرة وَحِبَالهم أنّها تسعى ، فتبيّن أَنّه آثر مجيء (الخيفة) بدلاً من (الخوف) للدلالة على إرادة معنى آسم الهيأة ، وهي ملازمة لاطارئة على نحو الخوف .

---

(١) المفردات : ٣٠٣ .

(٢) ينظر : معاني الأبنيّة في العربية : ٣٨ .

(٣) المفردات : ٣٠٣ .

المبحث الرابع

الإيثار الدلالي بين صيغ المشتقات :

ومنه : -

أولاً : الإيثار بين صيغة اسم الفاعل وصيغ المشتقات الأخرى :

١. إيثار (اسم الفاعل) على (اسم المفعول) :

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾ الطارق: ٥ – ٧ ، ومعنى دافق : مدفوق على أنّه فاعل بمعنى مفعول على مذهب أهل الحجاز في النعت إذ يقولون هذا سرٌّ كاتم ، وهَمٌّ ناصب ، أي مكتوم ، ومنصوب[١] . وأجاز الخليل مجيء (فاعل) بمعنى (مفعول) وجعل منه قوله تعالى : ﴿ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ القارعة : ٧ ، فـ(راضيّة) عنده بمعنى (مرضيّة)[٢] .

وللفراء ثلاثة آراء تدلُّ جميعاً على أنّه يقول بوقوع (فاعل) موقع (مفعول) :

الرأي الأول : إنّ مجيء (فاعل) بمعنى (مفعول) استعمال لهجي مطرّد عند أهل الحجاز خاصة ، وذلك عندما يكون في مذهب نعت ، وإنّ من أسباب مجيئهِ في القرآن الكريم مراعاة الفواصل[٣] .

الرأي الثاني : إنّه ليس من اختصاص لهجة دون أخرى ، بل هو مستعمل عند عامة العرب إلاّ أنّه مقيّد عندهم بإفادة المدح أو الذم[٤] . وهذا يذكرنا بقوله السابق (إن كان في مذهب نعت) ، فقد اتفق الشرطان عنده إلاّ انّه كثر عند أهل الحجاز في الرأي الأول.

الرأي الثالث : إنّ دلالة فاعل على المفعول دلالة مطلقة غير مقيّدة بلهجة او مدح أو ذم ، وإنما هي كدلالة (فعيل) وغيره على مفعول مستدلاً على ذلك بأنَّ ما ورد

---

(١) ينظر : جامع البيان ، الطبري : ١٤٣/٣٠ .

(٢) ينظر : العين ، الخليل بن أحمد الفراهيدي : ٨٦/١ ، ١٣٦ ، ٦٥/٢ ، ٤١٠/٣ .

(٣) ينظر : معاني القرآن ، الفراء : ٢٥٥/٣ ، والبناء اللغوي في الفواصل القرآنية ، د.علي عبد الله العنبكي : ٤٥-٤٦ .

(٤) ينظر : معاني القرآن ، الفراء : ١٨٢/٣ .

من هذا القبيل ليس له فعل مبني للفاعل ، وإنما هو فعل مبني للمفعول ، قال : ((ولا تنكرنّ أن يخرج المفعول إلى فاعل ، ألا ترى قوله (مِن مَّآءٍ دَافِقٍ) فمعناه والله أعلم : مدفوق ، وقوله (فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ) معناها مرضيّة .. تستدلّ عل ذلك انك تقول : رضيت هذه المعيشة ، ولا تقول : رضيت ، ودفق الماء ، ولا تقول : دفق))[١] .

وللفعل المجرد (دَفَقَ) استعمالان :

الأول : استعمال الفعل المتعدِّي ، تقولُ : (دَفَقْتُ الَماءَ)، فَأَنَا دافِقٌ ، والماءُ مَدْفُوقٌ[٢] .

والثاني : استعمال الفعل اللازم ، تقولُ : (دَفَقَ الَماءُ) ، بالرفع ، فالماءُ دَافِقٌ ، كَأَنّكَ قُلْتَ : مُنْدَفِقٌ أو مُنْدَفِعٌ[٣] .

واسم الفاعل (دَافِق) في قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ ﴾[٤] ، إنَّما هو من الفعل المجرّد اللازم (دَفَقَ) لا من الفعل المجرد المتعدي ، والفرق بينهما – وهو ما أثبته البحث العلمي الحديث[٥] – انّ الدافق يدلُّ على الحركة الذاتيَّة بخلاف (المَدفُوقِ) ، ويُؤيِّدُ ذلك قوله تعالى : (يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ) ، فأسنِدَ إلى هذا (الماءِ الدافِق) فِعلُ الخروج ، فهو خارجٌ لامُخْرَجٌ ، وهذا يدلُّ على الحركة الذاتية ؛ لأنّه ماءٌ حيٌّ يخرجُ لهَدَفٍ ، ويَسعَى الى غايةٍ عظيمة (خلق الأنسان) ، فليس ماءً عاديّاً مألوفاً كماءِ البَحْر والنهرِ ، بل إنّهُ مادَّةُ الحَيَاةِ والتكاثر . قال البغوي : ((مدفوق مصبوب في الرحم وهو المني ، فاعل بمعنى مفعول كقوله تعالى : (فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ) ، والدفق : الصبّ ، وأراد ماء الرجل وماء المرأة لأنّ الولد مخلوقٌ منهما وجعله واحداً لامتزاجهما))[٦] .

---

(١) المصدر نفسه : ٢/١٥-١٦ .
(٢) ينظر : الصحاح ، الجوهري : (دفق) ٤/١٤٧٥ .
(٣) ينظر : العين ، الخليل الفراهيدي : (دفق) ٥/١٢٠ .
(٤) الطارق : ٥-٧ .
(٥) ينظر : مقدمة للتكوين الجنينّي ، ستيفن ب ، أوبنهايمر : ٥٣-٥٨ .
(٦) تفسير البغوي : ٤/٢٧٣ .

وكانَ سيبويه قد ذهب إلى أنّ (دافق) على النسب أي : ذو دفق ؛ على إعتبار أنّ معنى الدّفق في اللغة : دفق الماء بعضه لبعض كَدَفْع الوادي والسيل إذا جاء يركب بعضه بعضاً ، وعلى هذا يصحّ أنْ يكون الماءُ دافقاً لأنّ بعضه يدفع بعضاً ، فمنه دافق ومدفوق[١] . وقيل إنّ الأصل في الدَّفق : أن يكون بمعنى الصب ويكون لصاحبهِ ، وأسنادهُ إلى الماء مجاز[٢] .

فقد تقع أحدى هاتين الصيغتين (فاعل ومفعول) موقع الأخرى فيكون ذلك ضرباً من المجاز العقلي ، لأن الفعل في (راضية) ونحوها أسند إلى غير فاعلهِ الحقيقي ، وأسند ما بني للمفعول إلى الفاعل ، قال الشريف الرضي : ((... وكان الوجه أن يقال في (عيشةٍ راضية) مرضية ، ولكنّ المعنى خرّج على مخرج قولهم : شعر شاعر ، وليل ساهر ، إذا شعر في ذلك الشعر ، وسهر في ذلك الليل ، فكأنهما وصفا بما يكون فيْهما لابما يكون منهما ، فبانَ أنّ تلك العيشة لما كانت بحيث يرضى الأنسان فيها حال ، جاز أن توصف هي بالرضا ، فيقال (راضية) على المعنى الذي أشرنا إليه))[٣] ، وهو كذلك عند الخطيب القزويني[٤] ، وعدَّ آخرون ما جاء على (فاعل) بمعنى (مفعول) ضرباً من المجاز المرسل لعلاقة الأشتقاق[٥] .

وقد رفض ابن القيم أن يكون (دافق) بمعنى (مدفوق) عاداً القول بذلك تكلّفًا ، إذ قال : ((... وليس الماء الدافق بمعنى المدفوق بل هو فاعل على بابِهِ ، كما يقال ماءٌ جارٍ ، فدافق كجار ، فما الموجب للتكلّف البارد))[٦] .

---

(١) ينظر : الكتاب : ٣/ ٢٨١-٢٨٢ ، والمقتضب ، المبرد : ١٦١/٣ ، والخصائص ، ابن جني : ١٥٢/١-١٥٣ ، والمحرر الوجيز ، ابن عطيّة : ٣٩٨/١٥ .

(٢) ينظر : تفسير النسفي : ٣٣١/٤ .

(٣) تلخيص البيان في مجازات القرآن : ٣٤٤ .

(٤) ينظر : التلخيص في علوم البلاغة : ٤٥ ، وأساليب المجاز في القرآن الكريم ، أحمد حمد محسن الجبوري ، أطروحة دكتوراه ، جامعة بغداد – كلية الآداب ، ١٤١٠هـ-١٩٨٩م : ١٦٠-١٦١ .

(٥) ينظر : أساليب المجاز في القرآن : ١٦٢ .

(٦) بدائع الفوائد : ٦٨/٣ .

وجاء مثل هذا الإيثار الدلالي بين صيغتي (اسم الفاعل)و(اسم المفعول) في قوله تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ هود: ٤٢ – ٤٣ ، أي : إنّ مَعناه : لامعصوم[١] . إذ لايُنكر أن يخرج المفعول على فاعل ، فيكون المعنى : لامعصوم اليوم من أمر الله[٢] . قال الأصمعي وهو يتحدّث عن قوله تعالى : (لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ) ((أي لا ذا عصمة ، وذو العصمة يكون مفعولاً كما يكون فاعلاً ، فمن هنا قيل : إنّ معناه لامعصوم ... وذو الشيء قد يكون مفعولاً كما يكون فاعلاً))[٣] . وقد أراد هنا تخريجه على النسب .

ومن الملاحظ أنّ مَنْ قالَ : (يأتي العَاصِمُ بمعنى المعصوم) إنَّما قال بذلك في آيةِ هود فقط ، ولم يَقُل أحدٌ بذلك في الآيتين الأُخرَيَين اللَّتَين وَرَدَتْ فيهما كلمةُ (عَاصِم)، وهما : قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾[٤] ، وقولُهُ تعالى : ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ ﴾[٥] ، ، وإنّما قيلَ بأنّ (العَاصمَ) بمعنى (المَعصُوم) في آية هودٍ فقط ؛ لوجود الاستثناءِ بعدَها : (إلاَّمَنْ رَحِمَ) فالمُستثنى ليس من جنس العَاصمِ ، بل هو من جنس المعصوم ؛ لأنَّ معنى (مَنْ رَحِمَ) : (المرحوم) ، والمرحومُ لايكونُ عَاصماً ، بل يكون مَعْصُوماً[٦] ، ولكي يُسَوّغ الأستثناء قيل : إنّ المراد بـ (العَاصِمِ) هو (المعصوم) .

وثمّةَ حقيقةٌ صرفيّة دلاليَّة مفادها أنّ اسمي الفاعل والمفعول من الفعل المتعدّي متلازمان ، وهو ماتنبّه إليه الراغب الأصفهاني إذ قال : ((وَمَنْ قالَ : مَعناهُ (لامعصوم)

---

(١) ينظر : تفسير غريب القرآن ، أبن قتيبة : ٢٠٤ .
(٢) ينظر : معاني القرآن ، الفراء : ١٥/٢ .
(٣) الخصائص : ١/ ١٥٢-١٥٣ .
(٤) يونس / ٢٧ .
(٥) غافر / ٣٣ .
(٦) ينظر : المقتضب : ٤/ ٤١٣-٤١٨ ، والتبيان في إعراب القرآن ، العكبري : ٢/ ٧٠ .

فليس يعني أن العاصم بمعنى المعصوم وإنما ذلك تثنية منه على المعنى المقصود بذلك ، وذلك أنَّ العَاصِم والمَعْصُوم يتلازمانِ ، فأيُّهمَا حَصَلَ ، حَصَلَ مَعَهُ الآخَرُ))[١] .

يبقى أَن يُقَالَ : لِمَاذا لم يأتِ السياق او النظم القرآني ببناء المفعول : (لَا مَعْصُوْمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ) ؟

والجواب : إنّ نَفَيَ المعَصوم يدلُّ عَلى نفي العَاصِم ، لكنَّ السياق القرآني آثرَ بناء اسم الفاعلِ (العَاْصِمِ) ؛ لأنّه أبلغ في نفي العصمة عن العاصين[٢] ولأنّ هذا الكلام (لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ) رَدُّ نوح (عليه السلام) على ابنهِ الذي أدّعى وجود (العاصم) ، بقوله (سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي) ، فأدّعى انَّ الجَبَلَ عَاصِمٌ لهُ من الماء ، فَكانَ مُرادُ نوح (عليه السلام) يتألف من جُزأينِ :

الأول : الردّ على دَعوى وُجُود عَاصِمَ مِنْ عذاب ذَلِكَ اليَوم غير الله تعالى .

والثاني : الدلالة على عدم وُجودِ المعصومِ ؛ لانتفاءِ العاصم من غير الله تعالى .

ولايمكن أنْ يحقق السياق ببناء المفْعُول (معصوم) هذين الجزأين معاً بالوضوح نفسه الذي حققه التعبير ببناء الفاعل (عَاصِم) ، وقد ألتفت ابن القيم(ت٧٥١هـ) الى أثر السياق في أكتساب لفظة (عاصم) لدلالتين (الفاعل والمفعول) إذ قال : ((فإنّه تعالى لمّا ذكرَ العاصم استدعى معصوماً مفهوماً من السياق فكأنّه قيل لامعصوم اليوم من أمرهِ إلاّ مَنْ رحمه فإنّه لمّا قالَ (لاعاصمَ اليومَ من أمرِ الله) ، بقيَ الذهنُ طالباً للمعصوم فكأنّه قيل فمن الذي يُعْصَم ؟ فأجيْبَ بأنّهُ لايُعْصَمُ إلاّ مَنْ رَحِمَهُ الله ، وَدَلَّ هذا اللفظ باختصار وجلالته وفصاحته على نفي كلّ عاصم سواه ، وَعَلى نَفي كُلِّ مَعْصُوم سِوَى مَنْ رَحِمَهُ اللهُ ، فدَلَّ الأستثناءُ عَلى أمْرَينِ : عَلى المعُصَومِ مَنْ هُوَ وَعلى العَاصِمِ ، وهُوَ ذُو الرَّحَمةِ ، وهذا مِن أبْلَغِ الكلامِ وأفَصحهِ وأوجزَهِ))[٣] .

---

(١) المفردات : ٣٣٧ ، ونقل الطوسيّ عن ابن كيسان (ت٢٢٩هـ) قريباً من هذا القول ، ينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٤٩١/٥ .

(٢) ينظر : التبيان في إعراب القرآن ، العكبري : ٧٠/٢ .

(٣) بدائع الفوائد : ٥٧٤/٣ .

٢. إيثار صيغة (اسم الفاعل) على (الصفة المشبهة) :

قال تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِۦ صَدْرُكَ ﴾ هود: ١٢، إذ جاءت ضائق بمعنى ضيَّق ، لأنّ الوصف من الفعل ضَاقَ – يَضيقُ هو (ضيّق) ، وهو من ألفاظ الصفة المشبهة التي تدلُّ على الثبوت[١] ، إلاّ أنّه لمّا أُرِيدَ في الآية الكريمة حدوث صفة الضيق وعرضها اختار بناء اسم الفاعل فقيل (ضائق) بدلاً من (ضيّق) ، قال الزمخشري (ت٥٣٨هـ) : ((إن قُلتَ : لمَ عُدلَ عن ضيّق إلى ضائق ، قلتُ : ليدلّ على انّه ضيقُ عارضٌ غَيرُ ثابتٍ ، لأنّ رسول الله (ﷺ) كان أفسح الناس صدراً ، ومثله قولك : زيدٌ سيّد وجواد ، تريد السيادة والجود الثابتين المستقرين ، فإذا أردت الحدوث قلت : سائِد وجائِد))[٢] .

والملاحظ – أيضاً – في ورود (ضائق) بدل (ضيّق) موافقته لـ(تارِك) ، فكلاهما على البناء نفسه والمعنى الحادث ، قال ابن عاشور : ((وضائِقٌ : اسم فاعل من ضاقَ ، وإنّما عُدل عن أن يقال (ضيّق) هنا إلى (ضائق) لمراعاة النظير مع قوله (تارك) ؛ لأنّ ذلك أحسن فصاحة ، ولأنَّ (ضائق) لا دلالة فيه على تَمُكّنِ وصفِ الضيقِ بصدره ، بخلاف ضيّق ، إذ هو صفة مشبهة وهي دالة على تمكّن الوصف من الموصوف إيماءً إلى أنّ أقصى ما يتوهم توقعه في جانبهِ (ﷺ) هو ضيقٌ قليلٌ يعرض له ، والضيق يستعمل مجازاً في الغَمِّ والأسف ، كما استعمل ضدّه وهو الأنشراح في الفرح والمسرّة))[٣].

وعلى هذا فإنّ ضيق صدر النبي (ﷺ) إنما هو ضيق طارئ ممّا يعرض له –أحياناً– في تبليغ الرسالة من الشدائد[٤] . فالمقام هنا مقام الدلالة على الحدوث والعوارض ، وليس مقام الدلالة على الثبوت والاستقرار ، لذا استدعى السياق اختيار اسم الفاعل (ضائق) بدل الصفة المشبهة (ضيّق) .

---

(١) ينظر : الشافية في علم الصرف ، ابن الحاجب : ١/ ٢٥ ، والتطبيق الصرفي ، عبده الراجحي : ٧٩ .

(٢) الكشاف : ٢/ ٣٨٢ .

(٣) التحرير والتنوير : ١١/ ١٦ .

(٤) ينظر : روح المعاني : ١٩/١٢ .

ثانياً : الإيثار بين صيغة المبالغة والمشتقات الأخرى :

١. إيثار صيغة المبالغة على اسم الفاعل :

ورد لفظ (كَظِيمٌ) في القرآن الكريم ثلاث مرّات ، في قوله تعالى : ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾يوسف: ٨٤ ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ النحل: ٥٨ و الزخرف /١٧ .

وقد ذُكِرَ في (كظيم) في سورة يوسف قولان[١] :

الأول : إنّه فعيل بمعنى مفعول .

والثاني : إنّه صيغة مبالغة في الفاعل ، ومعنى كظيم شديد الكظم الممسك لغيظهِ وحزنهِ فلا يظهره لأحد .

وقد رَجّحَ أبو حيّان القول الثاني ؛ لأنّه اللائق بحال يعقوب (عليه السلام)[٢] . وكذلك رَجّحه الآلوسي[٣] . إذ يبدو من سياق الآية أنّها جاءت في بيان حال يعقوب (عليه السلام) بعد فقده ولده يوسف (عليه السلام) لمدة (أربعين) عاماً[٤] ، ولم يشكُ يعقوب (عليه السلام) حزنه إلاّ إلى الله طيلة هذهِ المدّة ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ يوسف: ٨٦ ، فكان يكتمه في نفسه ويمسك همّه ولا يرسله بالشكوى والضجر ، فالموضع موضع مبالغة فجاءت (فعيل) مناسبة لتأكيد هذا المعنى .

وكذلك يترجح في لفظ (كظيم) في قوله تعالى : (ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ) ، ان يكون فعيلاً بمعنى فاعل ، وقد ذُكِرَ فيه القولان أيضاً : الدلالة على المفعول والدلالة على الفاعل[٥] ؛ لأنّهم في الجاهلية كانوا يُعدّون ولادة الإناث عَاراً ومنقصة لهم ، لذلك كان يحاول مَن يبشر بالأنثى أن يخفي حزنه عن الناس لكي لا يكون حزنه وغيظه دليلاً على أنّه قد وُلِدَت لَهُ أنثى فهو يجهد نفسه في كظم غيظهِ لئلا يراهُ احد : ﴿ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن

---

(١) ينظر : الكشاف : ٤٩٨/٢ ، وزاد المسير : ٤ / ٢٧١ .
(٢) ينظر : البحر المحيط : ٣٣٨/٥ .
(٣) ينظر : روح المعاني : ٣٧/١٣ .
(٤) ينظر : المصدر نفسه : ٣٧/١٣ .
(٥) ينظر : المصدر نفسه : ١٥٣/١٤ .

سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴾ النحل: ٥٩ . وأمّا ما أستدلوا به على دلالة (كظيم) على (مكظوم) وهو قوله تعالى : ﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴾ القلم: ٤٨، نجد فيه دليلاً على أَنَّ (كظيماً) فاعلٌ لا مفعول ؛ لأنّ مَنْ وُصف بـ (مكظوم) وهو النبي يونس (عليه السلام) لم يكظم غيظه بل كان مملوءاً غيظاً من قولهم : كظم السقاء إذا ملأه ، ولذلك أمرَ الله رسوله الكريم محمد (ﷺ) بان لا يكون كصاحب الحوت أي : ((لا يوجد منك ما وجد منه من الضجر والمغاضبة فتبتلى ببلائهِ))[١].

٢. إيثار صيغة المبالغة على اسم المفعول :

ورد لفظ (الركام) في القرآن الكريم مرّة واحدة ، في قوله تعالى : ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا ﴾ النور: ٤٣، إذ جاء صفة مشبهة بمعنى اسم المفعول (مركوم) ، قال ابن عاشور : ((وزن فُعَال وفُعَالة يدلُّ على معنى المفعول ، فالركام بمعنى المركوم كَمَا جَاءَ في قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ ﴾))[٢] .

ولفظة (ركام) من الألفاظ التي تفيد معنى التجمع وهي من الركم ، والركم في اللغة جمع الشيء بعضه فوق بعض حتى يُجْعَلُ ركاماً ، أي : مركوماً[٣] .

وكما أفادت صيغة (فعال) المبالغة في الألفاظ الدالة على التفرّق والتحطم ، أفادت المبالغة في هذا اللفظ أيضاً ، إذ المراد بالركام السحاب الكثير المتراكم بعضه فوق بعض[٤] ، لذا يستحيل السحاب المركوم لتثاقله مطراً ﴿ فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾

---

(١) ينظر : الكشاف : ٥٩٦/٤ .

(٢) التحرير والتنوير : ٢٦١/١٨ .

(٣) ينظر : اللسان (ركم) .

(٤) ينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٤٤٦/٧ ، والكشاف : ٢٤٥/٣ ، وزاد المسير : ٥٢/٦ .

النور: ٤٣ ، والودق المطر[١] ، ولمّا كانَ النازِلُ مِنَ السّماَءِ قِطعة واحدة (كسفاً)[٢] ، شُبِّهَ بما هُوَ أقل من (ركام) وهُوَ (مركوم) على خلاف الآية الأولى ، إذ أُرِيدَ المبالغة والتكثير فقيل (ركام) .

٣. إيثار صيغة المبالغة على الصفة المشبهة :

وردَ في القرآن الكريم على بناء (فُعّال) الذي يفيد المبالغة ، لفظٌ واحدٌ هو (كُبّار) ، في قوله تعالى : ﴿ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ﴾ نوح: ٢٢ ، وهي مشتقة من الفعل اللازم (كَبُرَ) وهي تفيد المبالغة أكثر من كبير وكُبَار ، قال الطبري : ((والكُبّار هو الكبير ... تقول العرب : أمرٌ عجيب ، وَعُجَاب – بالتخفيف – وَعُجّاب بالتشديد ، ورجلٌ حُسَان ، وحُسّان ، وجُمَال ، وجُمّال ... وكذلك كبير ، وكُبّار))[٣] .

والمقصود بالمكر الكُبّار هو قولهم لأتباعهم : ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ﴾ نوح: ٢٣ فهم ((منعوا القومَ عن التوحيد وأمروهم بالشرك ، ولمّا كان التوحيد أعظم المراتب ، لاجَرَمَ أنّهُ كَانَ المنْعُ منه أعظم الكبائر . فلهذا وصفه الله تعالى بأنّه كُبّار ، والأستدلال بهذا من فضل علم الكلام على سائر العلوم ، فقال : الأمرُ بالشرك كُبّار في القبح والخزي ، فالأمر بالتوحيد والأرشاد وجبَ أن يكونَ كُبّار في الخير والدين))[٤] ، وعليه يكون مكر هؤلاء متناهياً في الكبر ؛ لأنّه دعوةٌ إلى الضلال والشرك باللهِ ونبذ فكرة التوحيد التي قامت عليها الأديان السماوية ، فمجيئه بلفظ المبالغة هنا بدلاً من الصفة المشبهة (كبير) أو (كُبَار) بالتخفيف ؛ لأنّ الموضع يستدعي الغاية في المبالغة .

وعليهِ فإنّ (كُبَّاراً) هي مبالغةٌ في بناء الصفة المشبهة ، وليست من أبنية المبالغة في اسم الفاعل ، يقول آبن عاشور : ((وكُبّار : مبالغة أي كبير جداً ، وهو وارد بهذهِ

---

(١) ينظر : تفسير غريب القرآن ، أبن قتيبة : ٣٠٦ .

(٢) جاءَ في لسان العرب ، مادة (كسف) : الكسف والكسفة والكسيفة القطعة ممّا قطعت .

(٣) جامع البيان : ٦٢/٢٨ ، وينظر : المفردات في غريب القرآن : ٤٣٤ .

(٤) التفسير الكبير ، الرازي : ٣٠٥/٣٠ .

الصيغة في ألفاظ قليلة مثل : طُوّال أي طويل جداً ، وَعُجّاب : أي عجيب ، وحَسّان ، وجَمّال أي جميل ، وقرّاء لكثير القراءة))[١] .

ثالثاً : الإيثار بين صيغة اسم المفعول والمشتقات الأخرى :

إيثار اسم المفعول على اسم الفاعل :

ففي قوله تعالى : ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴾ مريم : ٦١ ، جاء اسم المفعول (مأتياً) بدلاً من اسم الفاعل (آتياً) ، قال ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) : ((ومنه أن يأتي الفاعل على لفظ المفعول به ، وهو قليل ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴾ أي : آتياً))[٢] .

ولكنّ ثمة آراء أخرى خالفت ماذهب إليه ابن قتيبة ، وهي على النحو الآتي :

ا. **ذهب الطبري** (ت٣١٠هـ) إلى أَنَّ وَعْدَ الله في هذا الموضع هو مَوْعَودَهَ ، وَهُوَ الجَنّةُ ، فهوَ مَأتِيٌّ يَأتِيه أولِيَاؤُهُ وَأهَلُ طاعتِهِ الذينَ يَدْخَلونَهَا[٣] .

ب. **وذكر السمرقندي** (ت٣٧٥هـ) : أنّ مَا أَتَيتَهُ فَقَد أَتَاكَ ، ومَا أَتَاكَ فَقَد أَتيتَهُ ، كما يُقَال : أَتَيْتُ عَلَى خمسين سَنَةً ، وَأَتَتْ عَلَيَّ خَمْسُونَ سَنَةً . وقيلَ : إنّه كقولِكَ : أتيتُ خَيْرَ فُلانٍ ، وَأتانِي خَيرُ فُلانٍ[٤] .

ج. **وذهبَ الرضي** (ت٦٨٦هـ) إلى أَنّه مِنْ (أَتَيْتُ الأَمرَ) ، أي : فَعَلْتُهُ ، فالمعنى : إِنّ وَعْدَ اللهِ كَانَ مَفْعُولاً[٥] .

والرأي الأول هو الصواب ؛ لأنّ هذا الإتيان يمتازُ بأمرين :

الأول : أنّه في الآخرة لا في الدنيا .

الثاني : أنّه في الثواب لا في العقاب .

---

(١) التحرير والتنوير : ٢٠٧/٢٩ .

(٢) تأويل مشكل القرآن ، ابن قتيبة : ٢٩٨ ، وينظر : الصاحبي ، ابن فارس : ٢٢٠ .

(٣) ينظر : جامع البيان ، الطبري : ١٢٧/١٦-١٢٨ ، والتفسير الكبير ، الرازي : ٢٣٦/٢١ .

(٤) ينظر : بحر العلوم ، السمرقندي : ٣٨١/٢ ، والتبيان في تفسير القرآن ، الطوسي : ١٣٨/٧ .

(٥) ينظر : شرح الرضي على الكافية : ٤١٥/٣ .

والوعيد بإتيان الساعة – كَمَا يُفْهَمُ من سياق الآية الكريمة – إنّما يدلُّ على أنّ المقصود بها الآخرة ، فالمؤمنُ ينتظرُ السَّاعة لينال الثوابَ ، وعليه اختصَّ نعيمُ الآخرة بأنّه يُؤتى لايأتي ، فيكون مأتياً لا آتياً ؛ وذلك ((أَنّ الوعدَ هُوَ الجَنّة وَهُمْ يأتونها))[١] .

وقد وقع مثلُ هذا الإيثار بين صيغة اسم المفعول (مستوراً) ، واسم الفاعل (ساتراً) في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ الإسراء: ٤٥ ، قال الأخفش (ت٢١٥هـ) معللاً وقوع (مستوراً) موقع (ساتراً) : ((لأنّ الفاعلَ قد يكون في لفظ المفعول ، كما تقول : إنّكَ مشؤوم علينا وميمون ، وإنَّما هو : شائم ويامن ؛ لأنّه من : شأمهم ويمنهم ، والحجاب –هاهنا– هو الساتر ، وقال : (مستوراً)))[٢] .

وجوّز الزجاجي (ت٣٣٧هـ) : ((أن يكون (مستوراً) على غير معنى (ساتر) ، فيكون الحجاب ما لايرونه ولا يعلمونه من الطبع على قلوبهم))[٣] .

وَعَدَّ ابن خالويه (ت٣٧٠هـ) هذا الإيثار في المعنى وأمثاله من باب المجاز[٤] .

وذكر ابن منظور (ت٧١١هـ) بأنّ معنى (مستوراً) : مَانعًا ، قال : ((وجاءَ على لفظ (مفعول) ؛ لأنّه سُتِرَ عن العَبدِ ، وقيل : ((حجاباً مَسْتُوراً) أي : حِجَاباً ، والأوّلُ مَستورٌ بالثاني ، يراد بذلك كثافة الحجاب ، لأنه جَعَلَ على قُلُوبِهم أَكِنّةً وفي آذانهم وَقْرَا))[٥] .

ولاشَكّ في أنّ المقصود من بناءِ (مَسْتُور) هو الدلالةُ على (المفعوليّة) فهذا الحجابُ مستورٌ ، وثمَّة سَاتِرٌ له ، وليسَ المقصود بهِ حِجَاباً ماديّاً ، إذ المقامُ ليسَ مَقَامَ تَغْطيّة المادِّيَّات أو حَجْبَها ، وإنّما المرادُ أَنَّ ثَمَّةَ حِجَاباً خفيّاً لاتَرَاهُ العينُ ، جَعَلَهُ الله تعالى بين النبي (ﷺ) حينَ كانَ يقرأ القرآن وبين الكُفّار ، كَمَا جَعَلَ عَلى قُلُوبِهم أكنّةً لاتُرى ، تَمْنَعُهُم مِنْ فقهِ القرآن الكريم ، وفي آذانِهم وَقراً يَمْنَعُهُم مِنْ سَمَاعِهِ ، قال سيّد قطَب : ((فَهكَذا كانَ القومُ تتأثرُ بالقرآن فِطرَتُهُم فَيَصُدَّونَها ، وَتُجاذِبُهُم إليهِ قُلُوبُهُم

(١) الكشاف ، الزمخشري : ٢٧/٣ ، وينظر : المفردات في غريب القرآن ، الراغب الأصفهاني : ٩ .
(٢) معاني القرآن ، الأخفش : ٣٩١/٢ .
(٣) معاني القرآن وإعرابه ، الزجاجي : ٢٤٢/٣ .
(٤) ينظر : ليس في كلام العرب ، ابن خالويه : ٣١٨ .
(٥) لسان العرب ، ابن منظور : (ستر) ٣٤٤/٤ .

فَيُمَانعونها ، فَجَعل اللهُ بينهم وبَيْنَ الرَّسُولِ حِجَاباً خَفِيّاً ، لايَظهرُ للعيُونِ ، وَلكِنْ تُحِسُّهُ القُلوبُ ، فإذَا هُم لاينتَفِعُونَ بِهِ ، ولايَهْتَدونَ بالقرآنِ الذي يَتلوه))[١] .

ومن ثَمَّ فإنَّ سياق الآية الكريمة هو مَنْ حَددَّ وقوع لفظة (مَسْتُوراً) ؛ لتكونَ فاصِلةً مناسِبةً للفواصل السابقة واللاحقة في سورة الأسراء : (غفوراً – مستوراً – نفوراً ...) ، والتي تنتهي بحرف الراء المتبوع بالألف المنقلبة عن التنوين عند الوقف[٢] .

رابعاً : الإيثار بين الصفة المشبهة وصيغ المشتقات الأخرى :

١. إيثار الصفة المشبهة على اسم الفاعل :

من ذلك قوله تعالى : ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴾ النازعات : ١١ ، فقد وردت الصفة المشبهة (نخرة) بدلاً من صيغة اسم الفاعل (ناخرة) على الرغم من مجيء فواصل الآي التي قبلها ، والتي بعدها على صيغة اسم الفاعل (الراجِفَة ، الرّادِفَة ، وَاجِفة ، خاشِعَة ، الحافِرة ، نَخِرة ، خاسِرَة)[٣] فواصل الآيات (٦-١٢) .

يقال : نَخرَ الشيء إذا بَلِيَ وتفتت فَهُوَ نَخِرٌ[٤] ، وهناك مَنْ عَدّ صيغة (نخرة) بناء مبالغة والمعنى شديدة البلِي[٥] ، قال الزمخشري : ((يقال : نَخِرَ العَظْمُ فَهُوَ نَخِر وناخِر كقولك في طَمِعٌ وطامع ، وفَعِل أبلغ من فاعل ... وهوَ البالي الأجوف الذي تمرَّ فيه الريح فيسمع له نخير))[٦] .

وقد وردت في الآية الكريمة قراءتان : (نخرة) و (ناخرة) ، ((وفرّقوا بينهما فقالوا : النخرة : البالية ، والناخرة : المجوّفة التي تمرّ بها الريح فتنخر فيها ، أي : تصوّت))[٧] ، ، وقيل : ((الناخرة التي أكِلَت أطرافها وبقيت أوساطها ، والنخرة : التي فسدت كلّها))[٨] ،

---

(١) في ظلال القرآن ، سيد قطب : ٢٢٣٢/٤ .

(٢) ينظر : البناء اللغوي في الفواصل القرآنية ، د.علي عبد الله العنبكي : ٣٥ .

(٣) ينظر : جامع البيان : الطبري : ٣٠ / ٣٥ .

(٤) ينظر : معجم مقاييس اللغة ، الأزهري : ٤٠٥/٥ .

(٥) ينظر : الكليات ، أبو البقاء العكبري : ٩١٠/٤ .

(٦) الكشاف ، الزمخشري : ٢١٢/٤ .

(٧) تفسير البغوي : ٤٤٣/٤ ، وينظر : الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي : ١٩٧/١٩ .

(٨) ينظر : تفسير البيضاوي : ٤٤٦/٥ .

، وإنما جاء وصف العظام بالصفة المشبهة (نخرة) لأنَّ الآية في معرض إنكار المشركين وتكذيبهم لفكرة البعث لزعمهم أنّ حجّة استحالة البعث قائمة وهي صيرورتهم عظاماً متفتتة شديدة البلي بعد الموت ، دلَّ على ذلك الاستفهام الذي جاء في سياق الإنكار ﴿ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ ، لذا فالتعبير بالصفة المشبهة (نخرة) أبلغ من التعبير باسم الفاعل (ناخرة) ، ذلك أنّ صيغة (نخرة) تدلّ على الثبوت ، في حين تدلُّ صيغة (ناخرة) على الحدوث[١] . فالمعنى مختلف بين الصيغتين ، وقد قيل : أن (النخرة) التي بليت ، أما (الناخرة) فهي التي لم تُنخر بعد[٢] .

ومنه أيضا مجيء (حفيظ) وهي صفة مشبهة ، بدلاً من اسم الفاعل (حافِظ) في قولهِ تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ﴾ ق: ٤ ، وذكر فيه المفسرون وَجهين[٣] :

الأول : أنْ يكونَ بمعنى (محفوظ) أي ممتنع من الذهاب بالبلى والدروس فهو محفوظ من التغير أو محفوظ من الشياطين ، والمراد بالكتاب ، اللوح المحفوظ الوارد ذكره في قوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ البروج: ٢١ – ٢٢.

الثاني : أن يكون بمعنى فاعل أي حافظ لِمَا أودع وكَتَبَ فيه .

وعَدَّ الرازي الوجه الثاني هو الأرجح وذلك لأنَّ ((الحَفِيظ بمعنى الحافظ وارد في القرآن الكريم ، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾[٤] ﴿ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ﴾[٥] .. وهو مستغن عن أَنْ يُحْفَظَ))[٦] .

---

(١) ينظر : العدول الصرفي في القرآن الكريم : ٦٣ .

(٢) ينظر : روح المعاني ، الآلوسي : ٣٠ / ٢٨ .

(٣) ينظر : جامع البيان : ١٤٩/٢٦ ، والتبيان في تفسير القرآن : ٣٥٨/٩ ، والكشاف : ٣٨٠/٤ ، ، وأنوار التنزيل : ٤٢١/٢ .

(٤) الأنعام / ١٠٣ ، هود / ٨٦ .

(٥) الشورى / ٦ .

(٦) التفسير الكبير : ٢٨ / ١٥٢ .

ولو نظرنا إلى سياق الآيات التي ورد فيها (كتابٌ حفيظٌ) لرأينا أن تأويل حفيظ بالفاعل أنسب من تأويله بالمفعول ، فسياق هذهِ الآيات ورد في تعجب الكافرين من البعث وأستبعادهم له بزعمهم أنهم سيؤولون بعدَ الموتِ إلى تراب مختلط بتراب الأرضِ ، فقالوا : ﴿ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾ ق: ٢ – ٣ ، فجاء الردّ عليهم بدحض هذه الحجّة بقوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ﴾ ، أي قد علمنا ما تأكل الأرضُ من أجسادهم[١]، وما اختلط منها بترابها إذا ماتوا وجميع ذلك محفوظ في كتاب (وعندنا كتاب حفيظ) ، فالكتاب حافظ لأعمالهم ولأجزاء أجسادهم المتفتتة فهو لاينسى شيئاً منها ، فتأويل حفيظ بالحافظ أنسب في الرّد على زعمهم أنهم لايبعثون لما في ذلك من الوعيد فإنّما يكون الوعيد بما له الأثر لابما عليه ، فلو أريد أنّه محفوظ لما كان فيه ما يخيف .

كذلك وقع مثل هذا الإيثار بين أليم ومؤلم في قوله تعالى : ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾ البقرة: ١٠، وقد وُصِف العذاب بكونهِ أليماً في مواضع عدّة في القرآن الكريم ، و(أليم) صفة مشبهة مشتقة من ألمَ يَألَمُ فهو آلِم ، والألم : الوجع الشديد[٢] ، كما يقال : ضَرْبٌ وجيعٌ بمعنى موجع ، وعلى نحوه جاء قوله تعالى : (وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)[٣] .

وذهبَ الزمخشري إلى عَدّ وصف العذاب بكونه (أليماً) للمفعول وليس للفاعل على طريقة قولهم : جَدّ جِدَّه ، وكذلك الألم في الحقيقة للمؤلم كما أنّ الجِدّ للجادّ[٤] . على اعتبار أنّه مجاز في التركيب ((للمبالغة فيكون محوّلاً من فعل لها ، ونسبته الى العذاب مجازٌ ؛ لأنّ العذاب لايألم ، إنّما يَألمُ صاحبه فصار نظير قولهم شعر شاعر والشعر لايشعر إنّما الشاعر ناظمه))[٥] .

---

(١) ينظر : تفسير غريب القرآن ، ابن قتيبة : ٤١٦ .
(٢) ينظر : المفردات : ٨٢ .
(٣) ينظر : جامع البيان : ١٢٣/١ ، والجامع لأحكام القرآن : ١/ ١٩٨ .
(٤) ينظر : الكشاف : ١/ ٦٠ ، وتفسير أبي السعود : ٤٢/١ .
(٥) البحر المحيط : ١/ ٥٩ .

ويبدو أنّه مجاز في الإفراد ((فأليم فعيل من الألم بمعنى مُفْعِل كالسميع بمعنى المسمع))[١] . فيكون (أليم) صفة مشبهة يدلُّ على المبالغة لشدّة عذاب الله للمنافقين في الآخرة فضلاً عن كونه لازماً ، ومعنى (أليم) شديد الألم وهو الوجع اللازم الذي يخلص الى قلوبهم[٢] . ودلالة وقوع الصفة المشبهة (أليم) بدلاً من اسم الفاعل (مؤلم) هي إثبات كون الألم دائماً ، وكأنّ الوجع فيه صفة لازمة له لا تغيّر فيها ولا تبديل .

٢. إيثار الصفة المشبهة على صيغة المبالغة :

وردت لفظة (عُجَاب) على صيغة (فُعَال) التي عُدّت من أبنية الصفة المشبهة في قوله تعالى : ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ ص: ٥ .

ولفظة (عُجَابٌ) هنا على صيغة (فُعَال) جاءت مبالغة في فعيل أي أنّ (عجاباً) مبالغةً في (عجيب) ، فكثيراً ما يأتي الوصف على (فُعَال) مبالغة في (فعيل) كطوال بمعنى طويل إلاّ أنَّ طوالاً أبلغ من طويل ، قال الرضي الأستراباذي : ((الغالب في باب فعل فعيل ، ويجيء (فعال) – بضم الفاء وتخفيف العين – مبالغة فعيل في هذا الباب كثيراً ، لكنه غير مطرد ، نحو طويل وطوال ، وشجيع وشجاع ...))[٣].

وهذا يعني أَنّ الموضع الذي استعملت فيه (عجاب) أفادت المبالغة ممّا يتطلب استعمال (فعال) دون (فعيل) ، ولكي نتبيّن وجه المبالغة نرجع الى السياق القرآني الذي وردت فيه (عجيب) و(عجاب) .

وردت لفظة (عجيب) في موضعين الأول : في قول زوجة إبراهيم (عليه السلام) لمّا بُشّرَتْ بولادتها لغلام ، قال تعالى : ﴿ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ هود: ٧٢ ، أمّا الموضع الثاني فقد كان تعجب الكافرين من أَن يأتيهم الله بمنذر منهم ينذرهم ، قال تعالى : ﴿ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ ق : ٢ .

---

(١) البحر المحيط : ٥٣/١ .

(٢) ينظر : نظم الدرر ، البقاعي : ١/ ١٠٩ .

(٣) ينظر : شرح الشافية : ١٠٩/١ .

والملاحظ أنّ الأمرين المتقدمين ممّا يثير العجب ، ففي سياق الآية الأولى توافرت كلّ دواعي العجب ، إذ كيف تلد إمرأة عجوز وبعلها شيخٌ كبير ، ففي ذلك غاية الغرابة والعجب ، فالمعهود أنّ العجوز لا تلد فإذا كانت عقيماً ، كانت الولادة أبعد ، فإذا أجتمع كلّ ذلك أنّ بعلهَا بلغ من الكبر عتيّاً كانَ الأمر أشد ، ولذا أكّدَ بناء (عجيب) بـ(أن واللام) وفي سورة (ق) كان الأمر عجيباً أيضاً ، إذ كيف يكون المنذر والرسول من عامة البشر يأكل ويشرب ويمشي في الأسواق ، ولهذا أكّدت آياتٌ كثيرة أنّ الرسول بشر ، وأنّه ليس من الملائكة .

أمّا الآية التي وردت فيها لفظة (عُجَاب) ، فقد جاءت في سياق أمر هو أكثر خطورة وأعظم وهو ما قامت عليه نبوّة الرسول(ﷺ) ذلك أنّه طالبهم بتوحيد الله ونبذ عبادة الأصنام والنهي عن الأشراك بهِ وهذا ما أنكروه غاية الإنكار ولم يقبلوه ، قال ابن كثير : ((أَنكرَ المشركون ذلك – قبحهم الله – وتعجبوا من ترك الشرك بالله ، فإنّهم كانوا قد تلقوا من آبائهم عبادة الأصنام وأشربته قلوبهم ، فلما دعاهم رسول الله إلى قلع الأوثان وإفراد الآله بالوحدانية أعظموا ذلك وتعجبوا وقالوا :(أجعل الآلهة إلهاً واحداً إنّ هذا لشيء عُجَاب))[١] .

فلما كان الموضع أكثر مبالغة آثر مجيء صيغة (عُجَاب) بدلاً من صيغة (عجيب) ، لأنّ هذا الإيثار لابُدَ أن يكمن وراءه أثرٌ يقتضيه السياق – والله أعلم– .

(١) مختصر تفسير ابن كثير : ٣/ ١٩٧ ، وينظر : الجامع لأحكام القرآن : ١٥/١٥٠ .

الخاتمـــــــة

بعد هذهِ الصحبة الشاقة والشيقة في رحاب القرآن الكريم ، أحمد الله على ما أَنعمَ ويسر وألهم ، وفتح لي آفاقاً كنت أجهلها ، فكان لابُدّ لي أن أحدّد أهمّ النتائج التي توصلت إليها في دراستي ، وهي كالآتي :

١. يُعَدّ الإيثار الدلالي نمطاً أسلوبياً راقياً في التعبير ، يمثل الجانب الإبداعي في الأداء ، ويهدف إلى خلق ألوان متنوعة من التغيير في الشكل والمضمون .

٢. أنّ الإيثار في اللغة العربية بمدلولهِ العام مصدر للفعل (آثر) وهو ثلاثي مزيد على زنة (أَفْعَلَ) ، وهو بمعنى التفضيل ، يقال : آثرتك إيثاراً أي : فضّلتُكَ ، وهو في الإصطلاح : آختيار لفظ وتفضيله على آخر بحسب مايقتضيه السياق أو المقام .

٣. وجد البحث أنّ هناك عدّة مصطلحات انطوت على مفهوم الإيثار ، وإن كانت فيها فروق وآختلافات يسيرة ، نذكر منها : (الاختيار) : وهو عملية إنتقاء المفردات من مجموعة من البدائل في رصيد المتكلّم المعجمي التي يمكن أن يتبادل بعضه مع بعض .

ومفهوم (التفضيل) الذي يكون بين شيءٍ وآخر ، ومفهوم (الاصطفاء) وهو بمعنى التفضيل والأختيار ، ومفهوم (الترجيح) الذي يعني التفضيل أيضاً .

كذلك الحال مع المصطلحات الأخرى التي تقرب من معنى الإيثار أو الآختيار ، ومنها : العدول ، والاستغناء ، والإجتباء ، والاستحباب ، والخفة ، وغيرها .

٤. تُعَدّ خصيصة الإيثار في القرآن الكريم لوناً من ألوان الإعجاز الذي تتجلى آثاره في النظم ، وقد تحققت هذهِ الخصيصة بمراعاة الأساليب والإلمام الدقيق بأصولها ، والتمكن من حسن صوغها ؛ ودقة ترتيبها على نحو لايتأتى إلاّ في أسلوب القرآن الكريم الذي عُرِف بنسجه البليغ على مستوى الأصوات والصيغ والتراكيب .

٥. أثبت البحث وجود الإيثار الدلالي بين الصوائت بعضها مع بعض ، وبين الصوامت أيضاً ، إذ إنّ إيثار صوت على آخر له أثر في تغير المعنى ، سواء ما كان منه

داخل تركيب الكلمة مثل الصوامت والصوائت ، أو ما كان خارجها مثل التنغيم ، وبذلك كان للإيثار أثره في الدلالة الصوتية في إضفاء صفة التميز الفني والتلاؤم الموسيقي .

٦. أنّ للفاصلة بنية معنوية وجمالية في آنٍ واحد ، إذ إنّ العلاقة الدلالية التي تربط الفاصلة بالآية التي تسبقها حتى وإن كانت من حيث الشكل معها ، تشكل البنية المعنوية لها ، امّا بوصفها بنية جمالية فانه يكمن في هذهِ القدرة الإيحائية على تجسيد دلالتها الصوتية .

٧. أنّ التكرار في القرآن الكريم ظاهرة أسلوبية لها خصائصها الفنية التي يظهر فيها الإعجاز واضحاً جليًّا لما يحوي من وظيفة مزدوجة فهو يعمل على إغناء الجانبين اللغوي والدلالي ، وقد يؤثر القرآن تكرار صوت على آخر ، أو صوتين مؤتلفين ، أو مختلفين بحسب ما يتطلبه السياق ، لذا جاء في النص القرآني متنوعاً شاملاً تعددت فوائده وتباينت أغراضه من تأكيد ووعد ووعيد وتهديد وغيرها .

٨. جاء الإيثار الدلالي بين المشتقات في القرآن الكريم بصور مختلفة ومتعددة ، إذ وقع الإيثار بين اسم الفاعل ، واسم المفعول ، والصفة المشبهة ، وصيغة المبالغة ، والمصادر مع المشتقات الأخرى ، وهذه المشتقات لها صيغٌ خاصة بها ، قد تكون قياسية أَو سماعية وقد يحصل الإيثار بينها ، فيحل بعضها محل الآخر ، فتختلف دلالتها بحسب ورودها في سياق النص القرآني .

٩. وقع الإيثار الدلالي بين صيغ الإفراد والتثنية والجمع ، وللسياق القرآني أثره الواضح في توجيه تلك الدلالة ، إذ لايأتي لفظ في القرآن مكان لفظ مراعاةً للشكل فقط ، من دون مراعاة المعنى أَو المضمون .

١٠. وردت في القرآن الكريم آياتٌ بُنيَ فيها الفعل للمفعول مرّة ، وللفاعل مرّة أخرى ، بحسب قصد معناه لما يبنى له ولما يسند إليه ، والسياق هو مَنْ يحدد المعنى المقصود منه ، فقد يكون لهذا الإنتقال والتغيير معانٍ وأغراض ، منها العلم الواضح بالفاعل ، أو الجهل به ، أو الإيجاز والإختصار ، أو التعظيم والتفخيم ، وغيرها .

١١. تبيّنَ أنّ الدلالة التركيبية تقوم على ثلاثة جوانب دلالية ، نحوية وسياقية وبلاغية ، وهي تتآزر بعضها مع بعض في منحها النص حيويَتُهُ وفاعليتهُ في التعبير عن المعنى المراد . كما أنّ معاني التراكيب النحوية تنقسم على قسمين : أحدهما وظيفي ، قائم على الوضع الأول للألفاظ إسناداً أو تعليقاً ، والآخر : مزيدٌ على الأول يتناسب مع الموقف والسياق ، وهو ما بينه الإيثار الدلالي الواقع بين التراكيب النحوية ، كما في الإيثار بين التقديم والتأخير ، والذكر والحذف ، والتذكير والتأنيث ، والإيثار الواقع بين الأساليب النحوية وغيرها مما مرّ ذكرها في موضعهِ من هذا البحث .

١٢. ظهرَ أنَّ للإيثار الدلالي أثره في التضمين والإنابة ، ويتوقف هذا الأثر على وجود قرينة تشير إلى المعنى الذي استعمل ، وتسويغ إيقاع لفظ معين موقع غيرهِ لتضمنه معناه .

١٣. وأخيراً ، فإنّ للقرآن نظمه الخاص المميّز إذ تترابط آياتُهُ وألفاظهُ ترابطاً معنويّاً وثيقاً يقوم على أساس التناسب الدلالي الذي يكون بين الألفاظ والفواصل القرآنية والآيات التي ترد فيها ، وبين الآيات أنفسها في السورة الواحدة ، وإن الإيثار الدلالي في القرآن الكريم جاء على وفق مسوغات خاضعة لمعايير معينة ، جعلت منه فناً راقياً يلهب الحسّ الوجداني عند الإنسان .

وآخر دعوانا أنِ الحمدُ لله رب العالمين

أولاً : الكتب المطبوعة

القرآن الكريم

(أ)

- أبنية الصرف في كتاب سيبويه : خديجة الحديثي ، منشورات مكتبة النهضة – بغداد ، ط(١) ، ١٣٨٥هـ – ١٩٦٥م .
- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر : أحمد بن عبد الغني الدمياطي الشهر بالبناء (ت١١١٧هـ) ، رواه وصححه وعلّق عليه : علي محمد الضباع ، دار الندوة الجديدة ، بيروت –لبنان ، ١٣٥٩هـ .
- الإتقان في علوم القرآن : جلال الدين عبد الرّحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ) بهامشه إعجاز القرآن للقاضي أبي بكر الباقلاني ، المكتبة الثقافية ، بيروت – لبنان ، ١٩٧٣م .
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: لأبي السعود محمد بن محمد العمادي (ت٩٨٢هـ) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان ، ط(٤) ، ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م .
- أسرار البلاغة : عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) ، تعليق : أحمد مصطفى المراغي ، مطبعة الإستقامة – القاهرة ، ١٩٣٢م .
- أسرار التكرار في القرآن : محمود بن حمزة بن نصر الكرماني (ت٥٠٥هـ) ، تحقيق : عبدالقادر أحمد عطا ، دار الاعتصام – القاهرة ، ط(٢) ، ١٣٩٦م .
- أسرار العربية : كمال الدين أبو البركات الأنباري (ت٥٧٧هـ) ، تحقيق : محمد بهجت البيطار ، مطبعة الترقي – دمشق ، ١٣٧٧هـ – ١٩٥٧م .

📖 الأسس الجمالية في النقد العربي – عرض وتفسير ومقارنة : الدكتور عزالدين أسماعيل ، دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد ، ١٩٨٦م .

📖 أسلوب الألتفات في البلاغة العربية : الدكتور حسن طبل ، دار الفكر العربي – القاهرة ، ١٩٩٨م .

📖 الأسلوبية والأسلوب : الدكتور عبدالسلام المسدي ، الدار العربية للكتاب – الرباط ، ط(٢) ، ١٩٨٢م .

📖 إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز : بديع الزمان سعيد النورسي ، تحقيق : إحسان قاسم الصالحي ، دار الأنبار للطباعة والنشر ، مطبعة الخلود ، ط(١) ، ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م .

📖 الأشباه والنظائر في النحو : جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ) ، تحقيق : عبدالعال سالم مكرم ، مؤسسة الرسالة – بيروت ، ط(١) ، ١٩٨٥م .

📖 إصلاح المنطق : لأبي يوسف يعقوب بن إسحاق بن السكيت (ت٢٤٤هـ) ، شرح وتحقيق : أحمد محمد شاكر ، وعبدالسلام محمد هارون ، دار المعارف – القاهرة ، ط(٣) ، ١٩٧٠م .

📖 أصوات العربية بين التحول والثبات : حسام سعيد النعيمي ، سلسلة بيت الحكمة – بغداد ، ١٩٨٩م .

📖 الأصوات اللغوية : إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية ، مصر ، ط(٥) ، ١٩٧٥م .

📖 الأصوات اللغوية : الدكتور محمد علي الخولي ، مكتبة الخانجي ، د.ت .

📖 الأصول في النحو : لابن السّراج أبي بكر بن محمد بن سهل البغدادي (ت٣١٦هـ) ، تحقيق : الدكتور عبدالحسين الفتلي ، مطبعة النعمان ، النجف الأشرف ، ١٩٧٣م .

📖 الأضداد في اللغة : محمد حسين آل ياسين ، مطبعة دار المعارف ، بغداد ، ط(١) ، ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م .

📖 أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة : الدكتور نايف خرما ، مطابع اليقظة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون ، الكويت ، ١٣٩٨هـ – ١٩٧٩م .

📖 الإعجاز البلاغي لتحولات النظم القرآني في المتشابه من الألفاظ والتراكيب : الدكتور أحمد محمد أمين أسماعيل ، دار الكتب العلمية ، لبنان – بيروت ، ط(١) ، ٢٠١١م .

📖 الإعجاز البياني في العدول النحوي السياقي في القرآن الكريم : الدكتور عبدالله علي الهتاري ، دار الكتاب الثقافي ، الأردن ، ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م .

📖 الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم .. دراسة نظرية تطبيقية : الدكتور عبدالحميد أحمد يوسف هنداوي ، المطبعة العصرية ، بيروت ، ط(١) ، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م .

📖 إعجاز القرآن : أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت٤٠٣هـ) ، تحقيق : السيد أحمد صقر ، دار المعارف – مصر ، ط(٣) ، ١٩٥٤م .

📖 إعجاز القرآن الكريم : الدكتور فضل حسن عباس ، وسناء فضل عباس ، مكتبة دار الفرقان – إربد ، عمّان – الأردن ، ١٤١٢هـ – ١٩٩١م .

📖 إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : مصطفى صادق الرافعي ، راجعه وصححه وضبطه : محمد سعيد العريان ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، ط(٧) ، ١٩٦١م .

📖 إعراب القراءات السبع وعللها وحججها : الحسين بن أحمد بن خالويه (ت٣٧٠هـ) ، تحقيق : الدكتور عبدالرحمن العثيمن ، مطبعة المدني ، المؤسسة السعودية بمصر ، ط(١) ، ١٩٩٢م .

📖 إعراب القرآن : لأبي جعفر أحمد بن محمد بن اسماعيل النحاس (ت٣٣٨هـ) تحقيق : زهير غازي زاهد ، مطبعة العاني – بغداد ، ١٩٧٧م .

📖 إعراب القرآن المنسوب (خطأً) للزجاج (الجواهر في شرح جمل عبدالقاهر) ، علي بن الحسين الباقولي (ت حوالي ق ٦هـ) ، تحقيق ودراسة : إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب اللبناني – بيروت ، ط(٣) ، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م .

📖 الأفكار والأسلوب (دراسة في الفن الروائي ولغته) : أ.ف تشيتشرين ، ترجمة : الدكتورة حياة شرارة ، دار الشؤون الثقافية العامة (آفاق عربية) ، بغداد ، د.ط ، ١٩٧٨م .

📖 أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة : الدكتور فاضل مصطفى الساقي ، مكتبة الخانجي – القاهرة ، ١٩٧٧م .

📖 الأقصى القريب في علم البيان : زين الدين بن عمرو التنوخي (ت٧٤٩هـ) ، مطبعة السعادة – مصر ، ط(١) ، ١٣٣٧هـ .

📖 الألسنية التوليدية والتحويلية (النظرية اللسانية) : ميشال زكريا ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر – بيروت ، ط(١) ، ١٩٨٢م .

📖 إملاء ما منّ بهِ الرّحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن : لأبي البقاء عبدالله بن الحسين بن عبدالله العكبري (ت٦١٦هـ) ، دار مكتبة الهلال ، بيروت – لبنان ، د.ت .

📖 الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين : لأبي البركات بن الأنباري (ت٥٧٧هـ) ، تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد ، دار الفكر ، د.ت .

📖 أنوار التنزيل وأسرار التأويل المسمى بتفسير البيضاوي : لأبي الخير ناصر الدين عبدالله بن عمر بن محمد البيضاوي (ت٦٩١هـ) ، إعداد وتقديم :

محمد عبدالرحمن المرعشلي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان ، ط(١) ، د.ت .

(ب)

- البحث النحوي عند الأصوليين : الدكتور مصطفى جمال الدين ، دار الرشيد للنشر ، العراق ، ١٩٨٠م .
- بحر العلوم (تفسير السمرقندي) : لأبي الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي (ت٣٧٥هـ) ، تحقيق وتعليق : الشيخ علي محمد معوض ، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود والدكتور زكريا عبدالمجيد النوتي ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط(١) ، ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م .
- البحر المحيط : محمد بن يوسف الشهير بأبي حيّان الأندلسي (ت٧٤٥هـ) ، دراسة وتحقيق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض ، وآخرون ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط(١) ، ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م .
- بحوث ومقالات في اللغة : الدكتور رمضان عبدالتواب ، مطبعة المدني ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط(٢) ، ١٩٨٨م .
- بدائع الفوائد : للشيخ أبي عبدالله محمد بن أبي بكر الدمشقيّ ابن قيم الجوزية (ت٧٥٠هـ) ، مكتبة الرياض الحديثة ، الرياض ، د.ت .
- البديع : عبدالله بن المعتز (ت٢٩٦هـ) ، شرحه وعلّق عليه : محمد عبدالمنعم خفاجي ، مطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر ، ١٣٦٤هـ – ١٩٤٥م .

📖 البرهان في توجيه متشابه القرآن : برهان الدين أبو القاسم محمود بن حمزة بن نصر الكرماني ، تاج القرّاء (ت٥٠٥هـ تقريباً) ، تحقيق وشرح وتعليق : الدكتور السيد الجميلي ، مركز الكتاب للنشر ، القاهرة – مصر ، د.ت .

📖 البرهان في علوم القرآن : بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي (ت٧٩٤هـ) ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، مصر ، ط(١) ، ١٩٥٨م .

📖 بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز : مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت٨١٧هـ) تحقيق : محمد علي النجار ، القاهرة ، ١٩٦٩م .

📖 البلاغة فنونها وأفنانها : الدكتور فضل حسن عباس ، دار الفرقان – الأردن ، ط(٢) ، ١٩٨٩م .

📖 البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية : محمد حسنين أبو موسى ، دار الفكر العربي – بيروت ، د.ت .

📖 بلاغة الكلمة في التعبير القرآني : الدكتور فاضل السامرائي ، دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد ، ط(١) ، ٢٠٠٠م .

📖 البلاغة والأسلوبية : الدكتور محمد عبد المطلب ، مطابع الهيأة المصرية العامة للكتاب – مصر ، ١٩٨٤م .

📖 بنى البديع في القرآن الكريم (دراسة فنية) : الدكتورة أميرة جاسم خلف العتابي ، مؤسسة البديل للدراسات والنشر ، بيروت – لبنان ، ط(١) ، ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م .

📖 البناء الصوتي في البيان القرآني : محمد حسن شرشر ، دار الطباعة المحمدية ، ط(١) ، ١٩٨٨م .

البناء اللغوي في الفواصل القرآنية : الدكتور علي عبدالله حسين العنبكي ، مؤسسة دار الصادق الثقافية ، طبع – نشر – توزيع ، ط(١) ، ١٤٣٢هـ – ٢٠١١م .

البيان في روائع القرآن (دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني) : الدكتور تمام حسان ، عالم الكتب – القاهرة ، ط(٢) ، ٢٠٠٠م .

البيان والتبيين : لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ) ، تحقيق وشرح : عبدالسلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة ، ١٩٨٥م .

(ت)

تاج العروس من جواهر القاموس : لمحب الدين أبي الفيض محمد بن مرتضى الزبيدي (ت١٢٠٥هـ) ، دار صادر – بيروت ، ١٣٨٦هـ – ١٩٦٦م .

تاريخ آداب العرب : مصطفى صادق الرافعي ، دار الكتاب العربي ، بيروت–لبنان ، ط(٢) ، ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م .

تأويل مشكل القرآن : لابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) ، شرح ونشر : السيد أحمد صقر ، دار إحياء الكتب العربية ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، د.ت .

التبيان في إعراب القرآن : لأبي البقاء العكبري (ت٦١٦هـ) ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، دار إحياء الكتب العربية ، د.ت .

التبيان في تفسير القرآن : لأبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت٤٦٠هـ) ، تحقيق وتصحيح : أحمد شوقي الأمين ، وأحمد حبيب قصير ، المطبعة العلمية ومطبعة النعمان – النجف ، ١٩٥٧م ، ١٩٦٥م .

التحرير والتنوير : للشيخ محمد الطاهر بن عاشور (ت١٩٧٣م) ، الدار التونسية للنشر – تونس ، ١٩٨٤م .

التركيب اللغوي للأدب ، بحث في فلسفة اللغة والأستطيقا : الدكتور لطفي عبدالبديع ، دار المريخ للنشر – الرياض ، ١٩٨٩م .

التصوير الفني في القرآن الكريم : سيد قطب ، دار الشروق – بيروت ، ط(٤) ، ١٩٧٨م .

التطبيق الصرفي : عبدة الراجحي ، دار النهضة – بيروت ، ١٩٧٤م .

التعبير الفني في القرآن : الدكتور بكري شيخ أمين ، دار الشروق – بيروت ، ط(١) ، ١٣٩٣هـ – ١٩٧٣ .

التعريفات : لأبي الحسن علي بن محمد بن علي المعروف بالسيد الجرجاني (ت٨١٦هـ) ، تحقيق : إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب العربي – بيروت ، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م .

التعبير القرآني : الدكتور فاضل صالح السامرائي ، دار عمار ، عمان ، الأردن ، ط(١) ، ١٤١٨هـ–١٩٩٨م .

تفسير غريب القرآن : لأبي محمد عبدالله مسلم بن قتيبة ، تحقيق : السيد احمد الصقر ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ١٣٩٨هـ –١٩٧٨م .

تفسير القرآن العظيم : اسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت٧٧٤هـ) ، دار الفكر – بيروت ، ١٤٠١هـ .

تفسير غرائب القرآن ورغائب الرحمن : نظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين القمي النيسابوري (ت٧٢٨هـ) ، تحقيق : الشيخ زكريا عميرات ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط(١) ، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م .

📖 التفسير القيّم : ابن القيّم الجوزية (ت٧٥١هـ) ، جمعهُ محمد أوس الندوي ، مطبعة السنة المحمدية ، ١٩٤٩م .

📖 تفسير مجاهد بن جبر المخزومي (ت١٠٤هـ) ، تحقيق : عبدالرحمن الطاهر محمد السورتي ، المنشورات العلمية – بيروت ، د.ت .

📖 تفسير مفردات الفاظ القرآن الكريم ، مجمع البيان الحديث : سميح عاطف الزين ، الشركة العالمية للكتاب ، دار الكتاب العالمي ، ط(٣) ، ١٩٩٤م .

📖 التفكير الصوتي عند الخليل : حلمي خليل ، دار المعرفة الجامعية – الاسكندرية ، ط(١) ، ١٩٨٨م .

📖 التكرير بين المثير والتأثير : الدكتور عزالدين علي السيد ، عالم الكتب ، بيروت – لبنان ، ط(٢) ، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٦م .

📖 التكملة : لأبي علي الحسن بن أحمد بن عبدالغفار الفارسي (ت٣٧٧هـ) ، تحقيق : كاظم بحر المرجان ، دار الكتب للطباعة والنشر ، جامعة الموصل ، ١٤٠١هـ – ١٩٨١م .

📖 تلخيص البيان في مجازات القرآن : الشريف الرضي (ت٤٠٦هـ) ، تحقيق : محمد عبدالغني حسن ، دار إحياء الكتب العربية – القاهرة ، ط(١) ، ١٩٩٥م .

📖 التلخيص في علوم البلاغة : للإمام جلال الدين محمد بن عبدالرحمن القزويني الخطيب (ت٧٣٩هـ) ، ضبطه وشرحه الأديب عبدالرحمن البرقوقي ، المطبعة الرحمانية بمصر ، ط(٢) ، ١٩٣٢م .

📖 التنغيم اللغوي في القرآن الكريم : سمير إبراهيم وحيد العزاوي ، دار الضياء للنشر والتوزيع ، ط(١) ، ٢٠٠٠م .

تنوير المقباس في تفسير آبن عباس : محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت٨١٧هـ) ، مطبعة الاستقامة – القاهرة ، ط(١) ، ١٩٦٠م .

(ج)

جامع البيان عن تأويل آي القرآن : لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ) ، دار الفكر – بيروت ، ١٤٠٥هـ .

الجامع لأحكام القرآن : محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي (ت٦٧١هـ) ، تحقيق : الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي ، مؤسسة الرسالة ، ط(١) ، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م .

جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب : الدكتور ماهر مهدي هلال ، دار الرشيد – بغداد ، ١٩٨٠م .

جمالية المفردة القرآنية في كتب الإعجاز والتفسير : أحمد ياسوف ، دار المكتبي – دمشق ، ط(١) ، ١٩٩٤م .

جمهرة اللغة : لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي البصري (ت٣٢١هـ) ، طبعة بالأوفسيت ، دار صادر – بيروت ، د.ت .

الجواهر الحسان في تفسير القرآن : عبدالرّحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (ت٨٧٥هـ) ، تحقيق : الشيخ علي محمد معوض ، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان ، ط(١) ، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م .

(ح)

حاشية الجمل على الجلالين المسمّاة بالفتوحات الألهية بتوضيح الجلالين للدقائق الخفية : سليمان الجمل ، مطبعة مصطفى محمد ، صاحب المكتبة التجارية الكبرى بمصر ، ١٣٥٢هـ-١٩٣٣م .

📖 حاشية الكازروني على تفسير البيضاوي : لأبي الفضل منصور بن الحسن بن علي القرشي الصدِّيقي الخطيب المعروف بالكازروني (ت٨٦٠هـ) ، وهو مطبوع بهامش تفسير البيضاوي ، المكتبة التجارية الكبرى ، مطبعة محمد – مصر ، د.ت .

📖 الحجة في علل القراءات السبع : لأبي علي الحسن بن أحمد الفارسي (ت٣٧٧هـ) تحقيق : علي النجدي ناصف ، وعبد الحليم النجار ، وعبد الفتاح شلبي ، القاهرة ، ١٩٦٥م .

📖 حجّة القراءات : عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة أبو زرعة (القرن الرابع الهجري) ، تحقيق : سعيد الأفغاني ، مؤسسة الرسالة – بيروت ، ط(٢) ، ١٩٨٢م .

📖 حول إعجاز القرآن : علي العماري ، سلسلة الثقافة الاسلامية ، دار الثقافة العربية للطباعة ، القاهرة ، د.ت .

(خ)

📖 الخصائص : لأبي الفتح عثمان بن جني (ت٣٩٢هـ) ، تحقيق : محمد علي النجار وآخرين ، عالم الكتب ، بيروت – لبنان ، د.ت .

📖 خصائص التعبير القرآني وسماتهِ البلاغية : الدكتور عبدالعظيم المطعني ، مكتبة وهبة – القاهرة ، ١٩٩٢م .

📖 خصائص الحروف العربية ومعانيها : حسن عباس ، إتحاد الكتاب العرب – دمشق ، د.ت .

(د)

📖 دراسات في اللغة والنحو : عدنان محمد سلمان ، مطابع دار الحكمة للطباعة والنشر ، ١٩٩١م .

📖 دراسات لأسلوب القرآن الكريم : محمد عبدالخالق عضيمة ، دار الحديث – القاهرة ، المركز الاسلامي للطباعة ، ١٩٨٠م .

📖 دراسة الصوت اللغوي ، أحمد مختار عمر ، عالم الكتب – القاهرة ، ط(١) ، ١٩٧٦م .

📖 دراسة المعنى عند الأصوليين : طاهر سليمان حمودة ، الدار الجامعية للطباعة والنشر ، الأسكندرية – مصر ، ١٩٨٣م .

📖 دراسة نصيّة أدبية في القصة القرآنية : الدكتور سليمان الطراونة ، ط(١) ، ١٩٩٢م .

📖 درّة التنزيل وغرّة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز : لأبي عبدالله محمد بن عبدالله ، الخطيب الأسكافي (ت٤٢٠هـ) ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ١٩٩٥م .

📖 الدر المصون في علوم الكتاب المكنون : أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي (ت٧٥٦هـ) ، تحقيق : الدكتور أحمد محمد الخراط ، دار القلم – دمشق ، د.ط ، د.ت .

📖 الدر المنثور في التفسير بالمأثور : جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ) ، تحقيق : الدكتور عبدالله بن عبد المحسن التركي ، مكتب هجر للبحوث والدراسات العربية الأسلامية – القاهرة ، ط(١) ، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م .

📖 دفاع عن البلاغة : أحمد حسن الزيات ، مطبعة الرسالة – القاهرة ، ١٩٤٥ .

📖 دلائل الأعجاز : عبدالقاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) ، حققه وقدّم له : الدكتور رضوان الداية ، والدكتور فايز الداية ، دار الفكر – دمشق ، ط(١) ، ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م .

📖 دلالة الألفاظ : الدكتور إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط(١) ، ١٩٥٨م .

📖 الدلالة الإيحائية للصيغة الإفرادية : الدكتورة صفية مطهري ، منشورات إتحاد الكتاب العرب – دمشق ، ٢٠٠٣م .

📖 الدلالة اللغوية عند العرب : الدكتور عبدالكريم مجاهد ، دار الضياء ، ١٩٨٥م .

📖 دور الكلمة في اللغة : ستيفن أولمان ، ترجمة : الدكتور كمال محمد بشر ، ط(١٠) ، مكتبة الشباب – القاهرة ، ١٩٨٦م .

📖 ديوان امرىء القيس ، تحقيق : محمد أبي الفضل إبراهيم ، دار المعارف – القاهرة ، ١٩٦٤م .

📖 ديوان كثير عزّة : تحقيق : إحسان عباس ، بيروت ، ١٣٩١هـ .

📖 ديوان النابغة الذبياني ، تحقيق وشرح : كرم البستاني ، دار صادر–بيروت ، ١٩٦٣م .

(ر)

📖 روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي (ت١٢٧٠هـ) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان ، د.ت .

(ز)

📖 زاد المسير في علم التفسير : لأبي الفرج جمال الدين عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت٥٩٧هـ) ، المكتب الأسلامي – بيروت ، ط(٣) ، ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م .

(س)

السبعة في القراءات : لأبي بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد (ت٣٢٤هـ) ، تحقيق : الدكتور شوقي ضيف ، دار المعارف ، ١٩٧٢م .

سر الإعجاز في تنوّع الصيغ المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن : الدكتور عودة الله منيع القيسي ، دار البشير – عمان ، ١٩٩٦م .

سر صناعة الإعراب : لأبي الفتح عثمان بن جني (ت٣٩٢هـ) ، تحقيق : مصطفى السقا وآخرين ، مطبعة مصطفى البابي ، ط(١) ، ١٣٧٤هـ-١٩٥٤م .

سر الفصاحة : لأبي عبدالله محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي (ت٤٦٦هـ) ، شرح وتصحيح : عبد المتعال الصعيدي ، مطبعة محمد علي صبيح ، ١٩٩٦م .

(ش)

الشافية : جمال الدين أبو عمرو عثمان بن عمر المعروف بآبن الحاجب (ت٦٨٦هـ) ، تحقيق : أحمد عثمان ، المكتبة المكيّة ، مكة المكرمة ، ١٩٩٥م .

شرح آبن عقيل على ألفية آبن مالك : بهاء الدين عبدالله بن عقيل (ت٧٦٩هـ) ، تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد ، مطبعة السعادة – مصر ، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤م .

شرح الأشموني على ألفية آبن مالك : الأشموني (ت٩٢٩هـ) ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، مطبعة السعادة ، مصر ، ط(١) ، ١٩٥٥م .

📖 شرح جمل الزجاجي : لآبن عصفور الأشبيلي (ت٦٦٩هـ) ، تحقيق : صاحب جعفر أبو جناح ، دار الكتب للطباعة والنشر ، الموصل ، ١٩٨٠م .

📖 شرح شافية آبن الحاجب : رضي الدين محمد بن الحسن الأستراباذي النحوي (ت٦٨٦هـ) ضبط وشرح : محمد نواف الحسن ، ومحمد الزقزاق ، ومحمد محيي الدين عبدالحميد ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م .

📖 شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب : لأبي محمد عبدالله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبدالله بن هشام الأنصاري (ت٧٦١هـ) ، تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد ، د.ت .

📖 شرح المفصل : يعيش بن علي بن يعيش (ت٦٤٣هـ) ، صححه وعلق عليه : مشيخة الأزهر ، إدارة الطباعة المنيرية – مصر ، د.ت .

(ص)

📖 الصاحبي : لأبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا (ت٣٩٥هـ) ، تحقيق : السيد احمد صقر ، مطبعة عيسى البابي الحلبي – القاهرة ، د.ت .

📖 الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية : لأبي نصر اسماعيل بن حماد الجوهري (ت٣٩٣هـ) ، تحقيق : أحمد عبدالغفور عطار ، دار الكتاب العربي بمصر ، د.ت .

📖 صحيح مسلم : لمسلم بن الحجاج أبي الحسين القشيري النيسابوري (ت٢٦١هـ) ، تحقيق : محمد فؤاد عبدالباقي ، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، د.ت .

📖 الصرف والنظام اللغوي : حسن قراقيش ، دار الكرمل – عمان ، ط(١) ، ١٩٩٠م .

📖 صفوة التفاسير (تفسير للقرآن الكريم) : محمد علي الصابوني ، الأفق للطباعة والنشر ، بيروت –لبنان ، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت – لبنان ، ط(١) ، ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م .

📖 الصوت اللغوي في القرآن الكريم : محمد حسين علي الصغير ، دار المؤرخ العربي – بيروت ، ٢٠٠٠م .

📖 الصورة الفنية في المثل القرآني – دراسة نقدية وبلاغية – : محمد علي حسين الصغير ، د.ط ، د.ت .

(ظ)

📖 ظاهرة التأويل وصلتها باللغة : الدكتور السيد أحمد عبدالغفار ، دار المعرفة الجامعية – الاسكندرية ، د.ط ، ١٩٨٠م .

📖 ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي : الدكتور طاهر سليمان حمودة ، الدار الجامعية للطباعة والنشر والتوزيع – الإسكندرية – ، ١٣٧٣هـ – ١٩٥٤م .

ظواهر أسلوبية في القرآن الكريم ، التركيب والرسم والإيقاع : الدكتور عمر عبدالهادي عتيق ، عالم الكتب الحديث ، أربد – الأردن ، ط(١) ، ١٤٣١هـ – ٢٠١٠م .

(ع)

العدد في العربية : علي بن اسماعيل بن سيده ، تحقيق : عبد الله بن حسن ناصر ، وعدنان بن محمد الظاهر ، ط(١) ، ١٩٩٣م .

العربية الفصحى ، دراسة في البناء اللغوي : هنري فليش ، تعريب وتحقيق وتقديم : عبد الصبور شاهين ، مكتبة الشباب – القاهرة ، ط(٢) ، ١٩٩٧م .

علم الأصوات العام ، أصوات اللغة العربية : الدكتور بسام بركة ، مركز الإنماء القومي – بيروت ، ١٩٨٨م .

علم الدلالة : أحمد مختار عمر ، دار العروبة للنشر والتوزيع ، ط(١) ، ١٩٨٢م .

علم الدلالة : جون لاينز ، ترجمة : مجيد عبدالحليم الماشطة ، وحليم حسين فالح ، وكاظم حسين باقر ، مطبعة جامعة البصرة – البصرة ، ١٩٨٠م .

علم الدلالة دراسةً وتطبيقاً : الدكتورة نور الهدى لوشن ، منشورات جامعة قاريونس – بنغازي ، ط(١) ، ١٩٩٥م .

علم الدلالة : كلود جرمان ، ريمون لوبلان ، ترجمة : الدكتورة نور الهدى لوشن ، دار الفاضل – دمشق ، ١٩٩٤م .

📖 علم الصرف الصوتي : الدكتور عبدالقادر عبدالجليل ، دار أزمنة للنشر والتوزيع ، عمان – الأردن ، ط(١) ، ١٩٩٨م .

📖 علم اللغة ، مقدمة للقارىء العربي : الدكتور محمود السعران ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٢م .

📖 العين : لأبي عبدالرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ) ، تحقيق : مهدي المخزومي ، وإبراهيم السامرائي ، دار الرشيد ، وزارة الثقافة والإعلام – بغداد ، ١٩٨١م .

(غ)

📖 غرائب التفسير وعجائب التأويل : للشيخ تاج القراء محمود بن حمزة الكرماني (ت٥٠٥هـ) ، تحقيق : الدكتور شمران سركال يونس العجلي ، دار القبلة للثقافة الإسلامية –جدّة ، ومؤسسة علوم القرآن –بيروت ، د.ط ، د.ت .

(ف)

📖 الفاصلة في القرآن : محمد الحسناوي ، المكتب الإسلامي – بيروت ، ط(٢) ، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م .

📖 فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن : لأبي يحيى زكريا الأنصاري (ت٩٢٦هـ) ، تحقيق : محمد علي الصابوني ، دار القرآن الكريم – بيروت ، ط(١) ، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م .

📖 فتح القدير الجامع بين فني الراوية والدراية من علم التفسير : محمد بن علي بن محمد الشوكاني (ت١٢٥٠هـ) ، دار الفكر – بيروت ، د.ت .

📖 الفروق في اللغة : لأبي هلال العسكري (ت بعد ٣٩٥هـ) ، دار الافاق الجديدة – بيروت ، ط(١) ، ١٩٧٣م .

📖 فقه اللغة العربية : كاصد ياسر الزيدي ، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر ، ط(٧) ، ١٩٨١م .

📖 فقه اللغة المقارن : الدكتور إبراهيم السامرائي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط(٣) ، ١٩٨٣م .

📖 فقه اللغة وخصائص العربية : محمد المبارك ، دار الفكر للطباعة والنشر ، ط(٧) ، ١٩٨١م .

📖 الفكر البلاغي عند النحويين العرب : الدكتور عزّام عمر الشجراوي ، دار البشير – عمّان ، ط(١) ، ٢٠٠٢م .

📖 فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم : الدكتور فتحي أحمد عامر ، المجلس الأعلى للشؤون الأسلامية – لجنة القرآن والسنة ، يشرف على إصدارها : محمد توفيق عويضة ، مطابع الأهرام التجارية – القاهرة ، ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م .

📖 الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية : جرجي زيدان ، مراجعة وتعليق : الدكتور مراد كامل ، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع ، ط(٢) ، ١٩٨٢م .

📖 في ظلال القرآن : سيد قطب (ت١٩٦٦م) ، دار الشروق – بيروت ، ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م .

(ق)

القاموس المحيط والقابوس الوسيط في اللغة : مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت٨١٧هـ) ، دار العلم للجميع ، بيروت – لبنان ، د.ت .

قصص القرآن في منطوقه ومفهومه : الدكتور عبدالكريم الخطيب ، مطبعة السنة المحمدية ، ط(١) ، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤م .

قضايا الشعر المعاصر : نازك الملائكة ، دار العلم للملايين – بيروت ، ط(٦) ، ١٩٨١م .

(ك)

الكتاب : سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (ت١٨٠هـ) ، تحقيق : عبدالسلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط(٢) ، ١٩٨٣م .

كتاب الصناعتين : أبو هلال العسكري(ت٣٩٥هـ) ، تحقيق وضبط : الدكتور مفيد قيمجة ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط(٢) ، ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م .

كشاف اصطلاحات الفنون : محمّد بن علي الفاروقي التهانويّ (ت١١٥٨هـ) ، تحقيق : الدكتور لطفي عبدالبديع ، الهيأة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٧م .

الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل : لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٣٨) ، رتبه وضبطه وصححه :

محمد عبدالسلام شاهين ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط(٥)، ٢٠٠٩م .

📖 الكشف عن وجوه القراءات وعللها وحججها : لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي (ت٤٣٧هـ) ، تحقيق : الدكتور محيي الدين رمضان ، مطبعة مؤسسة الرسالة ، ١٩٨١م .

📖 كشف المعاني في متشابه المثاني : بدر الدين بن جماعة ، تحقيق : الدكتور محمد محمد داود ، دار المنار – بيروت ، ط(١) ، ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م .

📖 الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية) : لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي (ت١٠٩٤هـ) ، قابله على نسخة خطية وأعده للطبع ووضع فهارسه الدكتور عدنان درويش ومحمد المصري ، مؤسسة الرسالة ، ط(٤) ، ١٩٩٨م .

(ل)

📖 اللباب في علل البناء والإعراب : لأبي البقاء العكبري (ت٦١٦هـ) ، تحقيق : غازي مختار طليمات ، دار الفكر – دمشق ، ط(١) ، ١٩٩٥م .

📖 اللباب في علوم الكتاب : ابن عادل الدمشقي الحنبلي (ت٨٨٠هـ) ، تحقيق وتعليق : عادل أحمد عبدالموجود ، وعلي محمود معوض ، ومحمد سعد رمضان حسن ، ومحمد المتولي الدسوقي حرب ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط(١) ، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م .

📖 لسان العرب : جمال الدين بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري (ت٧١١هـ) ، دار صادر– بيروت ، د.ت .

📖 لطائف قرآنية : صلاح عبدالفتاح الخالدي ، دار القلم – دمشق ، ط(١) ، ١٩٩٢م .

📖 اللغة : جوزيف فندريس ، تعريب : عبدالحميد الدواخلي ، ومحمد القصاص ، مكتبة الأنجلو المصرية ، مطبعة لجنة البيان العربي ، ١٩٥٠م .

📖 اللمع في العربية : لأبي الفتح عثمان بن جني (ت٣٩٢هـ) ، تحقيق : حامد المؤمن ، مطبعة العاني ، بغداد ، ط(١) ، ١٩٨٢م .

📖 ليس في كلام العرب : الحسين بن أحمد بن خالويه ، تحقيق : أحمد عبدالغفور عطا ، مكة المكرمة ، ط(٢) ، ١٩٧٩م .

(م)

📖 المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : ضياء الدين نصر الله بن محمد المعروف بابن الأثير (ت٦٣٧هـ) ، تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد ، المكتبة العصرية – بيروت ، ١٩٩٥م .

📖 مجاز القرآن : لأبي عبيدة معمر بن المثنى التيمي (ت٢١٠هـ) ، تحقيق وتعليق : محمد فؤاد سزكين ، مكتبة الخانجي ، دار الفكر ، ط(٢) ، ١٩٧٠م .

📖 مجمع البيان في تفسير القرآن : أمين الدين أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت٥٤٨هـ) ، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ١٣٧٩هـ .

📖 المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها : لأبي الفتح عثمان ابن جني ، تحقيق : علي النجدي ناصف وآخرين ، لجنة إحياء التراث الإسلامي – القاهرة ، ١٣٨٦هـ .

📖 المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : لأبي محمد عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي (ت٥٤٦هـ) ، تحقيق : عبدالسلام عبدالشافي محمد ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط(١) ، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م .

📖 المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها : محمد الأنطاكي ، مكتبة دار الشرق – بيروت ، ط(١) ، ١٩٧٢م .

📖 مختار الصحاح : محمد بن أبي بكر عبدالقادر الرازي (٧٢١هـ) ، تحقيق : محمود خاطر ، مكتبة لبنان ناشرون – بيروت ، ١٩٩٥م .

📖 مختصر تفسير ابن كثير : عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت٧٧٤هـ) ، اختصار وتحقيق : محمد علي الصابوني ، دار القرآن الكريم – بيروت ، ط(٢) ، ١٩٨١م .

📖 مدارك التنزيل وحقائق التأويل : لأبي البركات عبدالله بن احمد النسفي (ت٧٠١هـ) ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه – مصر ، د.ط ، د.ت .

📖 المدخل إلى دراسة البلاغة العربية : أحمد خليل ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر – لبنان ، ١٩٦٨م .

📖 المدخل إلى علم أصوات العربية : الدكتور غانم قدوري الحمد ، منشورات المجمع العلمي ، مطبعة المجمع العلمي ، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م .

المزهر في علوم اللغة وأنواعها : جلال الدين عبدالرحمن السيوطي (ت٩١١هـ) ، تحقيق : محمد أحمد جاد المولى ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، وعلي محمد البجاوي ، دار الجيل ودار الفكر للطباعة والنشر – بيروت ، د.ت .

مشكل إعراب القرآن : مكي بن أبي طالب القيسي (ت٤٣٧هـ) تحقيق : حاتم صالح الضامن ، بغداد ، ١٩٧٥م .

مصطلحات الدلالة العربية – دراسة في ضوء علم اللغة الحديث : الدكتور جاسم محمد عبدالعبود ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط(١) ، ٢٠٠٧م .

المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث : محمد أحمد أبو الفرج ، دار النهضة العربية – مصر ، ط(١) ، ١٩٩٦م .

معالم التنزيل : الحسين بن مسعود الفداء البغوي أبو محمد (ت٥١٦هـ) ، تحقيق : محمد عبدالله النمر ، وعثمان جمعة ضميريّة ، وسليمان مسلم الحرش ، دار طيبة للنشر والتوزيع – الرياض ، ط(١) ، ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م .

معاني الأبنية في العربية : الدكتور فاضل صالح السامرائي ، جامعة الكويت – الكويت ، ط(١) ، ١٤٠١هـ – ١٩٨١م .

المعاني في ضوء أساليب القرآن : عبدالفتاح لاشين ، دار المعارف –مصر ، ط(٣) ، ١٩٧٨م .

📖 معاني القراءات : لأبي منصور الأزهري (ت٣٧٠هـ) ، تحقيق : أحمد فريد المزيدي ، تقديم : الدكتور فتحي عبدالرحمن حجازي ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط(١) ، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م .

📖 معاني القرآن : الأخفش الأوسط الإمام أبو الحسن سعيد بن مسعدة المجاشعي (ت٢١٥هـ) ، تحقيق : الدكتور فائز فارس ، دار البشير ، دار الأمل ، ط(٢) ، ١٤٠٢هـ- ١٩٨١م .

📖 معاني القرآن : لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت٢٠٧هـ) ، تحقيق : الدكتور عبدالفتاح اسماعيل شلبي ، الهيأة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٢م .

📖 معاني القرآن : علي بن حمزة الكسائي (ت١٨٩هـ) ، إعداد : الدكتور عيسى شحاتة عيسى علي ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٨٨م .

📖 معاني القرآن الكريم : لأبي جعفر النحاس (ت٣٣٨هـ) ، تحقيق : محمد علي الصابوني ، جامعة أم القرى – مكة المكرمة ، ط(١) ، ١٤٠٩م .

📖 معاني القرآن وإعرابه : لإبي إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج (ت٣١١هـ) ، شرح وتحقيق : الدكتور عبدالجليل عبدو شلبي ، عالم الكتب – بيروت ، ط(١) ، ١٩٨٨م .

📖 معاني النحو : الدكتور فاضل صالح السامرائي ، مطبعة التعليم العالي ، الموصل ، بيت الحكمة – بغداد ، ١٩٨٧م .

معترك الأقران في إعجاز القرآن : جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ) ، تصحيح وضبط : أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ١٩٨٨م .

معجم الصوتيات : الدكتور رشيد عبدالرحمن العبيدي ، مركز البحوث والدراسات الاسلامية – بغداد ، ط(١) ، ٢٠٠٧م .

معجم مفردات ألفاظ القرآن : لأبي القاسم الحسين بن محمد بن الفضل المشهور بالراغب الأصفهاني (ت٥٠٢هـ) ، تحقيق : نديم مرعشلي ، دار الكتاب العربي ، د.ت .

المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : محمد فؤاد عبدالباقي ، دار الفكر ، ط(١) ، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م .

المعجم الوسيط : اخراج الدكتور إبراهيم أنيس وآخرين ، دار الأمواج ، بيروت–لبنان ، ط(٢) ، ١٤١٠هـ–١٩٩٠م .

مغني اللبيب عن كتب الأعاريب : لابن هشام جمال الدين عبدالله بن يوسف بن أحمد الأنصاري (ت٦٧١هـ) ، قدّم له ووضع حواشيه : حسن حمد ، وأشرف عليه وراجعه : أميل بديع يعقوب ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط(١) ، ١٩٩٨م .

مفاتيح الغيب : الإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التميمي البكري الرازي الشافعي (ت٦٠٦هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط(١) ، ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م .

📖 المفتاح في الصرف : عبدالقاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) ، تحقيق : الدكتور علي توفيق الحمد ، مؤسسة الرسالة – بيروت ، ط(١) ، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م .

📖 المفردات في غريب القرآن : لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الاصفهاني (ت٥٠٢هـ) ، تحقيق : محمّد سيّد كيلاني ، دار المعرفة – بيروت ، د.ط ، د.ت .

📖 مفهوم المعنى بين الأدب والبلاغة : الدكتور محمد بركات ابو علي ، دار البشير – عمّان ، ط(١) ، ١٩٨٨م .

📖 مقاييس اللغة : لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت٣٩٥هـ) ، تحقيق : عبدالسلام محمد هارون ، دار إحياء الكتب العربية – القاهرة ، ط(٢) ، ١٣٦٦هـ .

📖 المقتضب : صنعة أبي العباس محمد بن يزيد المبرد (ت٢٨٥هـ) ، تحقيق : محمد عبدالخالق عضيمة ، صدر بإشراف محمد توفيق عويضة ، القاهرة ، ١٣٨٦هـ .

📖 مقدمة للتكوين الجنيني : ستيفن ب. أوبنهايمر ، ترجمة : الدكتور رمسيس لطفي ، مجمع اللغة العربية الأردني – عمّان ، ط(١) ، ١٤٠٣هـ – ١٩٧٧م .

📖 ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه متشابه اللفظ من آي التنزيل : أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي (ت٧٠٨هـ) ، تحقيق : سعيد الفلاح ، دار الغرب الإسلامي – بيروت ، ط(١) ، ١٩٨٣م .

📖 مناهل العرفان في علوم القرآن : الشيخ محمد عبدالعظيم الزرقاني ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه ، القاهرة ، ط(٣) ، ١٣٧٢هـ .

📖 من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم : الدكتور محمد الأمين الخضري ، مكتبة وهبة – القاهرة ، ١٩٨٩م .

📖 منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث : الدكتور علي زوين ، دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد ، ط(١) ، ١٩٨٦م .

📖 المنهج الصوتي للبنية العربية رؤية جديدة في الصرف العربي : الدكتور عبدالصبور شاهين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت –لبنان ، ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م .

📖 مواهب الرحمن في تفسير القرآن : عبدالكريم محمد المدرس ، عني بنشره : محمد علي القره داغي ، ط(١) ، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٧– ١٩٨٨م .

📖 موسيقى الشعر : الدكتور إبراهيم أنيس ، دار المعارف – مصر ، ط(٢) ، ١٩٧٢م .

📖 الميزان في تفسير القرآن : السيد محمد حسين الطباطبائي (ت١٤٠٢هـ) ، دار الكتب الإسلامية – طهران ، ط(٣) ، ١٣٩٧هـ .

(ن)

📖 نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي (ت٨٨٥هـ) ، دار الكتاب الإسلامي – القاهرة ، د.ت .

📖 النقد اللغوي عند العرب حتى نهاية القرن السابع الهجري : الدكتور نعمة رحيم العزاوي ، منشورات وزارة الثقافة والفنون – بغداد ، ١٩٧٨م .

📖 النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) : لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني (ت٣٨٦هـ) ، حققها وعلّق عليها : محمد خلف الله ، والدكتور محمد زغلول سلام ، دار المعارف بمصر – القاهرة ، ط(٢) ، ١٣٨٧هـ – ١٩٦٨م .

📖 النكت والعيون : لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري (ت٤٥٠هـ) ، راجعه وعلق عليه : السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، د.ت .

(هـ)

📖 الهداية إلى بلوغ النهاية : لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي (ت٤٣٧هـ) ، إصدار جامعة الشارقة ، الإمارات العربية المتحدة ، ط(١) ، ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م .

📖 همع الهوامع شرح جمع الجوامع : السيوطي (ت٩١١هـ) ، عني بتصحيحه : السيد محمد بدر الدين النعساني ، دار المعرفة – بيروت ، د.ت .

(و) .

📖 الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : علي بن أحمد الواحدي (ت٤٦٨هـ) ، تحقيق : صفوان عدنان داوودي ، دار القلم والدار الشامية – دمشق ، بيروت ، ط(١) ، ١٤١٥هـ .

ثانياً : الرسائل والأطاريح الجامعية :

- أساليب المجاز في القرآن الكريم : أحمد حمد محسن الجبوري ، أطروحة دكتوراه ، جامعة بغداد – كلية الآداب ، ١٤١٠هـ – ١٩٨٩م .
- البحث اللغوي والنحوي عند ابن تيمية : هادي أحمد فرحان الشجري ، أطروحة دكتوراه ، جامعة بغداد – كلية الآداب ، ٢٠٠٠م .
- البنى النحوية وأثرها في المعنى : أحمد عبدالله حمود العاني ، أطروحة دكتوراه ، جامعة بغداد – كلية الآداب ، ٢٠٠٣م .
- التأويل عند ابن قتيبة في كتابيه (تأويل مشكل القرآن) و(تأويل مشكل الحديث) : زينب عبدالحسين السلطاني ، رسالة ماجستير ، جامعة بغداد – كلية التربية للبنات ، ١٩٩٩م .
- التكرار اللفظي أنواعه ودلالاته قديماً وحديثاً : صميم كريم الياس ، رسالة ماجستير ، جامعة بغداد – كلية التربية (ابن رشد) ، ١٤٠٩هـ – ١٩٨٨م .
- خواتيم الآيات القرآنية : إنتصار خلف سلمان الشرع ، أطروحة دكتوراه ، الجامعة المستنصرية – كلية التربية ، ٢٠٠١م .
- دلالة الأنساق البنائية في التركيب القرآني : عامر عبد محسن السعد ، أطروحة دكتوراه ، كلية الاداب – جامعة البصرة ، ١٤١٦هـ – ١٩٩٥م .
- الدلالة النفسية في القرآن الكريم : محمد جعفر محيسن العارضي ، أطروحة دكتوراه ، جامعة القادسية – كلية الآداب ، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م .

📖 الظواهر اللغوية في كتب إعجاز القرآن حتى نهاية القرن الخامس الهجري : عادل عباس هويدي ، رسالة ماجستير – جامعة الكوفة – كلية الاداب ، ٢٠٠٦م .

📖 مستويات النظم في التركيب القرآني : عبدالواحد زيارة اسكندر المنصوري ، أطروحة دكتوراه ، جامعة البصرة – كلية الآداب ، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م .

ثالثاً : البحوث والدوريات :

📖 الألسنية بين عبدالقاهر والمحدثين : الدكتور رشيد عبدالرحمن العبيدي ، مجلة المورد ، المجلد (١٨) ، العدد (٣) ، ١٤١٠هـ – ١٩٨٩م .

📖 التناسب الدلالي في سورة الضحى ، دراسة في الإعجاز القرآني : محمد جعفر ، مجلة القادسية ، العدد (٤) ، ١٩٩٩م .

📖 الجملة العربية في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة : مقالة للدكتور نعمة رحيم العزاوي ، في كتاب (دراسات في اللغة) ، رقم (١) في سلسلة كتاب المورد ، دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد ، ط(١) ، ١٩٨٦م .

📖 حقيقة اللغة ومفرداتها : الدكتور عدنان محمد سلمان ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، الجزء (٤) ، ١٩٨٨م .

📖 الدلالة في البنية العربية ، السياق اللفظي والسياق الحالي : الدكتور كاصد ياسر الزيدي ، مجلة آداب الرافدين ، جامعة الموصل ، العدد (٢٦) ، ١٩٩٤م .

📖 العدول في البنية التركيبية ، قراءة في التراث البلاغي : الدكتور إبراهيم بن منصور التركي ، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها ، المجلد (١٩) ، العدد (٤٠) ، ربيع الأول ، ١٤٢٨هـ .

📖 علم الدلالة عند ابن جني : عبدالكريم مجاهد ، مجلة الدارة السعودية ، السنة (٩) ، العدد (١) لسنة ١٩٨٣م .

📖 عودة إلى موسيقى الشعر : نعيم اليافي ، مجلة التراث العربي ، العدد (٢٥) ، ١٩٨٦م .

📖 قضية التذكير والتأنيث في العربية : الدكتور طارق عبد عون الجنابي ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، المجلد (٣٨) ، الجزء (١) ، آذار ، ١٩٨٧م .

📖 من صور الأعجاز الصوتي في القرآن الكريم : محمد السيد سليمان العبد ، المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، الكويت ، المجلد (٩) ، العدد (٣٦) ، ١٩٨٩م .

ABSTRACT

Ministry of Higher Education and
Scientific Research
University of Diyala
College of Education for Human Sciences
Department of Arabic Language

Semantic Altruism in the Glorious Quran

A Dissertation submitted to the council of College of Education for Human Sciences, University of Diyala in partial fulfillment of the requirements of the degree Doctorate of Philosophy in Arabic Language and its Arts

By

Bushra Abdulmahdi Ibrahim Al Tamini

Supervised by

Prof. Leith As'ad Abdulhameed (Ph.D.)

1436 A. H. 2014 A.D.

Abstract

The Glorious Quran is the Ultimate script and the immortal marvel that overwhelmed the readers by its expressiveness and rhetoric. The best study is the one that is in its shadows because it is the script that can never be exhausted by the amount of interpretations. It is still that sea which is full of discoveries for scholars and learner. It still confuses human thinking with the precision of its expressions and the beauty of its style. scholars still search its verses and search for its secrets for centuries, but, trough those centuries, it is still fresh with its inimitability that steals the brains and surrendering them.

The language of this script is one of the aspects of its inimitability. Its words are not like any words and any discourse cannot reach its extent. it is the word of God. So, the word of the Creator is not like the words of the created is if the Creator is not like the created.

I was hoping that my study will be in this Glorious scrip. It was the favor of God that my study became entitled **"Semantic Altruism in the Glorious Quran"** to be the center of my research for more than two years. The reasons behind conducting this study were:

1. The topic was essentially connected with the Glorious Quran.
2. The subject has a wide scope. It is investigating how the Glorious Quran prefers a semantic sign rather than the others to suit the context in the verse of a certain Surah. This was referred to by the interpreters of the Quran and those who wrote in Quran inimitability. This will give the scholar knowledge and certainity as well as motivating the investigators in Islamic literature to reflect the words of God.

كلية التربية للعلوم الإنسانية
جامعة ديالى
المكتب الاستشاري للغات والترجمة

3. The Glorious Quran is an endless source of marvels. Consequently, this subject is moving the brains and full of discoveries.

The researcher has divided the study into three chapters proceeded by an introduction and followed by a conclusion and a bibliography. The introduction has dealt with the concept of semantic altruism in language and terminology.

The first chapter was entitled "Semantic Altruism in Phonological Level" in which the meaning of vocal semantics was discussed. Then, the chapter was subdivided into three sections. The first one dealt with semantic altruism in vowels and consonants. The second section discussed semantic altruism in Quranic intervals, while the third section handled semantic altruism in phonemic repetition.

The second chapter was entitled "Semantic Altruism in Morphological Level". It started with an introduction that discussed the term "Morpho-semantics". Then it was devided into four sub-sections. The first one dealt with semantic altruism in singular, dual, and plural cases. The second section discussed semantic altruism active and passive voice. The third section handled semantic altruism among verb stems, whereas the fourth section dealt with semantic altruism among derivation formula.

The third chapter was entitled "Semantic Altruism in the Syntactic Level". Like the two previous chapters, it dealt with the concept of "Syntactic semantics". It was subdivided into five sections. The first one dealt with semantic altruism in foregrounding and back grounding. The second discussed semantic altruism in feminization and masculinization. The third section dealt with semantic altruism between deletion and addition. The fourth section dealt with semantic altruism among

كلية التربية للعلوم الإنسانية
جامعة ديالى
المكتب الاستشاري للغات والترجمة

grammatical styles. Finally, the fifth section discussed semantic altruism between implying and replacing.

The investigation was run on each one of the above topics in the designated chapter and section. This dissertation depended on many important sources and references that had a great effect on giving the final shape of the study as well as being the solid sources to the study of altruism in the Glorious Quran. Those sources varied in their topics like interpretation and meanings of the Glorious Quran, Quran Science, Quran Similarities, linguistics, grammar, Arabic lexicology, Quran inimitability, as well as modern sources.

This diversity in the sources and references was due to the diversity of the topics. The scientific approach used in this study was the descriptive interpretive approach according to the interpretation and theorizing made in the study.

It is my duty to present my gratitude to all who helped in accomplishing this study . then, I would like to say that this is all I can accomplish and I do not assume that I made the ultimate achievement of this study. If I was true, then it was by the favor of God. If I committed mistakes, then error is the nature of man, and perfection is solely for God.

ABSTRACT